الموقف الأدبي



233





مجلة شهرية يصدرها الحزب الشيوعي العراقي

233

العدد 7 السنة 38 أيار 1991

فهرست

■ نحو المؤتمر الخامس لحزبنا ـ آراء ومناقشات

■ أدب وفن

■ مقتطفات ومعالجات

الغلاف الاول للفنان جبر علوان

الغلاف الثاني للفنان سردار عزيز



القانون الدولي وجرائم صدام حسين

د. حامد ايوب

لم يحدث منذ صدور أحكام محكمتي نورمبرغ وطوكيو في عام ١٩٤٦ ان ارتفعت الاصوات بالدعوة إلى محاكمة شخص أو أشخاص رسميين، مثلما حصل لصدام حسين ومعاونيه الكبار من المسؤولين العراقيين. ولا شك ان أول مبررات هذه الدعوات، التي انطلقت من أفراد ومسؤولين ومنظمات شعبية ورسمية في مناطق شتى من العالم[١]، تكمن في قيام قوات النظام العراقي باجتياح الكويت وضمه عن طريق القوة إلى العراق وازالته من الوجود كدولة. وقد سبب هذا العمل العدواني فواجع وكوارث واخطار شملت البلدين وامتدت آثارها إلى شعوب أخرى في المنطقة وخارجها[٢]، وأثارت حفيظة واستنكار الرأي العام في العالم.

إن عملية غزو الكويت عبرت عن استهانة منقطعة النظير بالقانون الدولي في ظل ميثاق الأمم المتحدة. ووضعت شعوب العالم وحكوماتها أمام مسؤوليات تدارك الوضع الخطير الناشيء عن ذلك، فتمخضت ردود الفعل عن سيل من القرارات صدرت عن مجلس الأمن لتدين العدوان وتطالب بالانسحاب من الكويت، وتدعو إلى اتخاذ تدابير سياسية واقتصادية وعسكرية لاجبار العراق على الامتثال للقرارات الدولية.

وبانتهاء المهلة المقررة من قبل مجلس الأمن عملت القوات الدولية المتحالفة إلى البدء بالعمليات العسكرية تحت غطاء قرار المجلس رقم ٦٧٨ والتي انتهت باخراج القوات العراقية من الكويت، ورضوخ النظام إلى جميع قرارات مجلس الأمن دون قيد أو شرط،

بعد ان كان صدام قد رفض كل الاهابات والوساطات والطلبات من دول ومنظمات دولية وشخصيات سياسية واجتماعية بالانسحاب.

وتنبع المطالبة بمحاكمة صدام حسين أيضاً من الجرائم المروعة التي ارتكبها وما يزال يرتكبها ضد أبناء الشعب العراقي، آخرها قصف المدن الآهلة بالسكان بمختلف أسلحة الابادة والتي راح ضحيتها عشرات الالوف، واجبار حوالي مليوني مواطن على الهرب من ديارهم عبر الحدود إلى تركيا وايران، في أضخم عملية نزوح شهدها العصر الحديث، مع ما رافق ذلك من موتٍ للآلاف بسبب الجوع والبرد والامراض.

ان بعض الأوساط المطالبة بمحاكمة صدام تحمّله، إضافة إلى ما تقدم ذكره، مسؤولية شن الحرب ضد ايران التي دامت ثماني سنوات كلفت الشعبين العراقي والايراني أكثر من مليون قتيل وجريح والحقت باقتصاد البلدين الدمار والخراب.

وبعد، فالسؤال الذي يطرح نفسه: هل أن هذه الدعوات والمطالبات بتقديم صدام إلى محكمة جنائية دولية تستند إلى مبرر قانوني، أم انها مجرد مواقف سياسية معادية لصدام ونظام حكمه؟

والاجابة على ذلك تقتضي الخوض في موضوعين أساسيين:

أولاً ـ مسؤولية الدولة والمسؤولية الجنائية للاشخاص الرسميين.

ثانياً ـ مدى انطباق أفعال صدام حسين على الجرائم الدولية.

مسؤولية الدولة:

تقوم مسؤولية الدولة بسبب فعلٍ غير مشروع (أما عمل أو امتناع عمل) مناف للقانون الدولي. وتتدرج مسؤولية الدولة تبعاً لطبيعة مخالفات القواعد القانونية التي ولّدت هذه المسؤولية، من المخالفات البسيطة لقواعد القانون الدولي، التي تتطلب الاعتذار أو التعويض عن الضرر، إلى الجرائم الدولية، التي تقوّض أسس هذا القانون ومبادئه.

وأعلى ضروب المسؤولية للدولة هي التي تترتب على اقتراف جريمة الحرب العدوانية التي تتطلب اتخاذ تدابير القسر حيالها بموجب قرار يصدر عن مجلس الأمن. وكان أول تطبيق لتجريم حرب الاعتداء هي التدابير التي اتخذتها الدول الحليفة بعد الحرب العالمية الثانية ضد المانيا الهتلرية. وهي تدابير ذات طابع «سياسي» ناجمة عن المسؤولية السياسية. وتمثلت وفق ما نصت عليه معاهدة (بوتسدام) في استلام الدول الحليفة مقاليد السلطة العليا في المانيا، والقضاء على النزعة العسكرية، وحظر جميع ضروب النشاط والدعاية الفاشية والعسكرية، وحفز التطور الديمقراطي لالمانيا، وتدمير

الصناعة العسكرية فيها، ومنعها من دخول المنظمات الدولية[٣]. وترتبت على المانيا ايضاً مسؤولية مادية والزمت «بالتعويض عن الاضرار والآلام التي سببتها للشعوب المتحالفة والتي لا يمكن ان يتحلل الشعب الالماني من مسؤوليته عنها[٤]».

مسؤولية الاشخاص الرسميين:

واذا كانت الدولة تتحمل مسؤولية سياسية ومادية جراء حرب الاعتداء التي تشنها على دولة أخرى، فان القانون الدولي المعاصر يرتب أيضاً مسؤولية «جنائية» على الاشخاص الرسميين الذين اقترفوا بأسم دولهم جرائم ضد السلم وجرائم ضد البشرية.

ومن المعلوم ان المسؤولية الجنائية للاشخاص الرسميين عن جرائمهم المضادة للسلم، ولقوانين الحرب، وللانسانية، تشكل أحد أنظمة القانون الدولي الجنائي. وهذا الفرع الجديد من القانون الدولي تبلور وتحددت معالمه في أعقاب الحرب العالمية الاولى التي شهدت اضمحلال مبدأ مشروعية الحرب، وظهور مبدأ عدم الاعتداء (حظر استعمال القوة) وبروز مفهوم المسؤولية الجنائية للدولة، واتساع نطاق الدراسات الفقهية بشأن تقنين الجريمة الدولية وتصاعد الدعوة إلى اقامة محكمة جنائية دولية دائمة واعداد مشروعات لها[٥].

ولكن الخطوة العملية الهامة بدأت من مؤتمر السلام، في باريس ١٩١٩، الذي قرر تشكيل لجنة عُهد اليها تحديد المسؤولية عن الحرب العدوانية وتعيين المسؤولين عن جرائم الحرب العالمية. وبعد شهرين من الدراسة قدمت تقريرها إلى المؤتمر بالنتائج التي توصلت اليها، بضمنها مقترح بانشاء محكمة جنائية دولية تنظر في محاكمة كبار مجرمي الحرب الالمان. وقد قدر لهذا التقرير ان يكون أساساً لسابقة قانونية وضعية هي الاولى من نوعها في أهميتها وخطورتها في مجازاة مرتكبي الحرب العدوانية وجرائمها مهما علا مركزهم. تلك هي المادة ٢٢٧ من معاهدة الصلح المنعقدة في فرساي ١٩١٩. اذ قضت بنصها «ان السلطات المتحالفة والمتحدة تتهم علناً غليوم الثاني امبراطور المانيا بالجريمة العظمى ضد الاخلاق الدولية وقدسية المعاهدات. وتنشيء محكمة خاصة لمحاكمة المتهم مع كفالة الضمانات الضرورية لمزاولة حق الدفاع».

على ان هروب الامبراطور غليوم إلى هولندا ولجوءه إليها، وامتناع حكومتها عن تسليمه إلى الدول المتحالفة، حال دون وضع الاحكام الجنائية الدولية السالفة الذكر موضع التطبيق[٦].

وخلال الحرب العالمية الثانية، التي شهدت جرائم خطيرة ضد السلام والأمن

الدولي وقوانين الحرب والانسانية، صدرت وثائق عن اجتماعات لممثلي الدول الحليفة في (في لندن كانون الثاني ١٩٤٢ ، وموسكو تشرين الاول ١٩٤٣ ، ويالطا شباط ١٩٤٥) تضمنت عزم هذه الدول على القبض على مجرمي الحرب في دول المحور، أياً كانت جنسيتهم ومعاقبتهم. وفي ٨ آب ١٩٤٥ وقع في لندن ممثلو الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا اتفاقاً يقضي بتشكيل محكمة عسكرية دولية لمحاكمة مجرمي الحرب في دول المحور الاوربية واقروا كذلك لائحة نظمت تشكيل المحكمة واختصاصها واجراءات المحاكمة. وجرى بعد ذلك الاتفاق على تشكيل محكمة أخرى تتولى محاكمة مجرمي الحرب اليابانيين في طوكيو عام ١٩٤٦.

لقد خُولت المحكمة العسكرية الدولية في نورمبرغ، حسب المادة ٦ من نظامها، بأن تحاكم وتعاقب الاشخاص الذين ارتكبوا لمصلحة تلك البلدان فردياً، أو بصفتهم أعضاء في منظمات أياً من الجرائم التالية: الجرائم ضد السلام، الجرائم ضد قوانين الحرب، الجرائم ضد الانسانية.

عقدت محكمة نومبرغ أولى جلساتها في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٤٥، ونطقت باحكامها في ١ تشرين الاول ١٩٤٦. فحكمت بالاعدام على شركاء هتلر الرئيسيين أمثال غورنغ وربنتروب وكايتل وروزنبرغ، وبالسجن المؤبد والمؤقت على مجرمين آخرين. ومثل هذا فعلت محكمة طوكيو ضد مجرمي الحرب اليابانيين. وقد انهت اعمالها في تشرين الثاني ١٩٤٦.

لقد طبقت محكمة نومبرغ ميثاق لندن ١٩٤٥ الذي جعل الحرب جريمة دولية، واسترشدت المحكمة بمعاهدتي لاهاي ١٨٩٩، و١٩٠٧، ومعاهدة فرساي ١٩١٩، واتفاقات جنيف ١٩٢٩، واتفاقات لوكارنو ١٩٢٦ وميثاق باريس (بريان ـ كيلوك) ١٩٢٨، ومعاهدات عدم الاعتداء المعقودة بين المانيا من جهة وكل من الاتحاد السوفييتي ويوغوسلافيا والدانمارك وجيكوسلوفاكيا والنرويج.

كانت محكمة نورمبرغ أول تطبيق للقضاء الجنائي الدولي، وطبقت لأول مرة مبدأ المسؤولية الفردية للحكام والمسؤولين عن ارتكاب الجرائم الدولية بحيث لا يمكن ان يعفى الحاكم من المسؤولية بذريعة كون الدولة شخصية معنوية. فهو الذي يدير سياستها ولا تعفيه من المسؤولية وظيفته الرسمية في الدولة ولا كونه أطاع أوامر الرؤساء الصادرة اليه ما دامت مخالفة للقانون الدولي.

الجرائم الدولية والقضاء الدولي:

وبالنظر لأهمية المبادىء التي انطوى عليها النظام الاساسي لمحكمة نورمبرغ،

وشبيهه نظام محكمة طوكيو، فقد صادقت الجمعية العامة للأمم المتحدة على وثيقة بهذه المبادىء في ١١ كانون الاول ١٩٤٦.

ورغبة من الأمم المتحدة في تقنين قواعد ومبادىء القانون الدولي الجنائي، وهي في أغلبها عرفية، وخلق آليات لتطبيق هذا القانون، عهدت الجمعية العامة للقيام بهذه المهمة إلى لجنة القانون الدولي التابعة لها، ولجان خاصة أخرى. واثمرت التجهود عن انجاز اربعة مشروعات هامة هي:

١ ـ مشروع تقنين بالجرائم التي ترتكب ضد السلام وأمن البشرية.

حدد المشروع هذه الجرائم في المادة الثانية. ويدخل في عدادها كل استعمال للقوة المسلحة أو اعتداء موجه ضد دولة أو تهديد باعتداء أو تحضير لاستعمال القوة المسلحة، أو قيام دولة بضم اقليم تابع لدولة أخرى إلى اقليمها، أو ارتكاب جريمة إبادة الجنس، أو أعمال القتل أو التعذيب أو الاستعباد، ومخالفة قوانين وعادات الحرب. وذكر المشروع ان هذه الأعمال تعد جرائم دولية يجب أن يعاقب مرتكبوها. ولا يعفى الجاني من المسؤولية سواء ارتكب هذه الأعمال بصفته رئيساً للدولة أو بوصفه أحد حكامها.

أحالت لجنة القانون الدولي المشروع إلى الجمعية العامة في دورتها السادسة من ٣ حزيران إلى ٢٨ تموز ١٩٥٤. لكنها لم تصادق عليه وأجلت النظر فيه لأن بعض الدول طالبت بتعريف العدوان قبل اقرار المشروع.

٢ ـ مشروع محكمة جنائية دولية.

تضمن هذا المشروع انشاء محكمة دائمة تتولى محاكمة اشخاص طبيعيين متهمين بارتكاب جرائم دولية، وتطبق القانون الدولي، بما في ذلك القانون الدولي الجنائي. وتتكون المحكمة من خمسة عشر قاضياً ينتخبون من الاشخاص ذوي الصفات الخلقية العالية الحائزين في بلادهم على المؤهلات المطلوبة للتعيين في أرفع المناصب القضائية أو من المتشرعين المشهود لهم بالكفاءة في القانون الدولي.

ولم تصادق الجمعية العامة على هذا المشروع ايضاً. في تشرين ثاني ١٩٥٤ فقد أبدت بعض الدول تحفظات بشأنه، وأجلت الجمعية النظر فيه حتى يتم الاتفاق على تعريف العدوان.

٣ ـ مشروع اتفاقية معاقبة مرتكبي جريمة ابادة الجنس البشري.

يحدد المشروع جريمة ابادة الجنس البشري بأنها الأفعال التي ترتكب بقصد القضاء، كلاً أو بعضاً، على جماعة بشرية بالنظر لصفتها الوطنية أو العنصرية أو الجنسية أو الدينية، سواء ارتكبت الافعال في زمن السلم أم في زمن الحرب. وقد حددت المادة الثانية الإفعال التي تعد ابادة للجنس وهي: قتل أفراد الجماعة، الاعتداء الجسيم على

أفراد الجماعة جسمانياً، اخضاع أفراد الجماعة عمداً إلى ظروف معيشية من شأنها القضاء عليهم مادياً، كلاً أو بعضاً، اتخاذ وسائل من شأنها اعاقة التناسل داخل هذه الجماعة، نقل الصغار قسراً من جماعة إلى أخرى. والعقاب على هذه الجرائم يشمل الذين يقترفون هذه الجرائم والذين يأمرون باقترافها، أو التحريض عليها، أو الشروع في ارتكابها.

لقد أقرت الجمعية العامة هذه الاتفاقية في كانون الاول ١٩٤٨، وتم التصديق عليها من جانب الدول، ودخلت طور التنفيذ في ١٢ كانون الثاني ١٩٥١.

٤ ـ مشروع تعريف العدوان.

عرف المشروع العدوان بانه «استخدام القوة المسلحة من قبل دولة ضد سيادة دولة أخرى أو وحدتها الاقليمية أو استقلالها السياسي، أو بأي اسلوب آخر يتناقض مع مثياق الأمم المتحدة، كما هو مبين في هذا التعريف.

وتتضمن المادة الاولى من المواد الثمان للمشروع قائمة بالأعمال التي تعتبر بمثابة أعمال عدوانية، منها قيام القوات المسلحة لدولة ما بغزو أو شن هجوم على أراضي دولة أخرى، أو باحتلال عسكري، مهما كان مؤقتاً، نجم عن مثل هذا الغزو أو أي ضم عن طريق استخدام القوة لاراضي دولة أخرى أو جزء منها.

لقد صادقت الجمعية العامة على هذا المشروع في كانون الاول ١٩٧٤ مما يعدُّ انجازاً هاماً لأنه يفتح الطريق لاعادة بحث مشروع تقنين الجرائم المرتكبة ضد السلام وأمن البشرية، ومشروع المحكمة الجنائية الدولية.

والمحصلة التي نخرج بها مما قدمنا، ان المسؤولية الجنائية الشخصية والفردية لقادة الدول، الذين يعملون باسمها ولحسابها، عن الجرائم المرتكبة ضد السلام وقوانين الحرب، والانسانية اصبحت أحد أنظمة القانون الدولي. وعلى ذلك ليس بمقدور من تترتب عليه هذه المسؤولية ان يدفع بعدم شرعية محاسبته. فجرائم الحرب، والجرائم المضادة للسلم والانسانية، اضحت محددة، وسجّلتها وثائق دولية دخلت دائرة القانون الدولي، وبذلك تسقط المبررات والادعاءات التي تقول ان مرتكبي هذه الجرائم لا تجوز محاكمتهم ومعاقبتهم بداعي ان ما قاموا به ليس محرماً وقت ارتكابه، أو بداعي أن لا عقاب على هذه الأعمال وقت ارتكابها، أو ان سيادة الدولة تحول دون معاقبتهم.

الجرائم الدولية وانتهاكات المسؤولين العراقيين:

ليس ثمة خلاف ان صدام حسين والمسؤولين الكبار الآخرين قاموا بأفعال تعد انتهاكات خطيرة للقانون الدولي، وتندرج في عداد الجرائم التي يعاقب عليها هذا القانون.

ان هذه الانتهاكات بدأت قبل أزمة الخليج بفترة طويلة وسببت آلاماً وفواجع للملايين من الناس داخل العراق وخارجه وعرضت السلم الدولي للخطر. تكفي الاشارة إلى ما يحدث هذه الايام، ان حوالي مليوني مواطن عراقي من الاكراد يهيمون على وجوههم هرباً من خطر الابادة، والمئات منهم يموتون كل يوم بسبب البرد والجوع والامراض. وان مدن مثل كربلاء والنجف والناصرية والبصرة وغيرها هدمت على رؤوس ساكنيها باسلحة الدمار.

ان الانتهاكات التي اقترفتها قيادة السلطة السياسية قابلة للتوزيع على كل الجرائم الدولية التي صنفها القانون الدولي الجنائي: وهي الجرائم ضد السلام، والجرائم ضد قوانين الحرب، والجرائم ضد الانسانية.

١ ـ **الجرائم ضد السلام**: وتتمثل في شن الحرب ضد ايران، وغزو دولة الكويت واحتلالها وضمها للعراق. وكلها افعال تنتهك ميثاق الأمم المتحدة والمعاهدات الدولية بما فيها المعاهدات المعقودة بين العراق من جهة وكل من ايران والكويت من جهة أخرى.

٢ ـ **الجرائم ضد قوانين الحرب**: وتشمل الانتهاكات التي حدثت خلال العمليات العسكرية وفترة الاحتلال. وتمثلت باعمال القتل والاعتقال التعسفي وسوء معاملة الاسرى والمعتقلين، (بما في ذلك تعذيبهم جسدياً وقتلهم) واستخدام الاسلحة المحرمة دولياً وضرب الاحياء المدنية، وأعمال التخريب غير المبررة بالضرورات العسكرية، مثل حرق آبار النفط في الخليج. وكل هذه الافعال منافية للقانون الدولي وخاصة اتفاقيات جنيف ١٩٤٩ الموقع عليها من قبل العراق.

٣ ـ **الجرائم ضد الانسانية**: وهي أعمال القتل والابادة وخاصة داخل العراق ونشير بشكل خاص إلى ابادة آلاف المواطنين بالغازات السامة في مدينة حلبجة واهوار الجنوب، وقتل وتعذيب ألوف المعارضين السياسيين، وتهجير نحو نصف مليون مواطن إلى ايران ودول أخرى بذريعة ان اصلهم غير عراقي، واصدار قانون يقضي باعدام اعضاء حزب الدعوة الاسلامية بدون محاكمة. ان كل هذه الافعال منافية للمعاهدة المتعلقة بمعاقبة مرتكبي جريمة ابادة الجنس البشري ١٩٥١، ولائحة حقوق الانسان ١٩٤٨، وميثاق حقوق الانسان المدنية والسياسية ١٩٧٦. وكل هذه الوثائق موقعٌ عليها من قبل العراق.

مدى شرعية محاكمة صدام حسين:

إلى جانب الاصوات المطالبة بمحاكمة صدام حسين، يرى البعض انه أقدم على اصدار أوامر وقام بأعمال تعد انتهاكات جسيمة للقانون الدولي ومع ذلك فان القانون الدولي لا يجيز هذه المحاكمة اذ «لا جريمة بدون نص ولا محاكمة بدون محكمة، ومن

ثم فان اجراءات التجريم والمحاكمة فيما يخص رؤساء الدول يجب ان تكون سابقة على ارتكاب الجرائم وليست لاحقة لها. . .»

والحقيقة ان هذا الاعتراض ليس بجديد، اذ سبق ان ردّ الدفاع، أمام محكمة نورمبرغ، التهم الموجهة إلى موكليهم بحجة انه لم تكن هناك نصوص وقت ارتكاب هؤلاء للجرائم المسندة لهم. وقد ردّت المحكمة هذا الدفع في حيثيات الحكم بقولها: «حقاً ان قاعدة لا جريمة ولاعقوبة إلا بنص تفترض وجود نص مسبق على وقوع الفعل، ولكن لا مجال للتمسك بهذه القاعدة اذا كان هذا الفعل مخالفاً بوضوح لكل المواثيق الدولية. ويسهل اكتشاف طابعها الضار بمجرد الادراك. فالمانيا الهتلرية كانت تعلم تماماً بأن الحرب العدوانية أمرٌ مخالف للقانون، وبالتالي فالالمان حينما حاربوا كانوا على علم وارادة بحقيقة عملهم الضار، ولهذا يجب ان يتحملوا عقاب المجتمع الدولي حيالهم».

مهما يكن من أمر، فقد تحول صدور حكم محكمة نورمبرغ في ذاته إلى أساس لشرعية الجرائم الدولية. وان عدم وجود محكمة لا يعني ترك الجاني بدون عقاب. فمحكمة نورمبرغ نشأت بقرار دولي وأدت مهمتها وانحلّت. ولم تولد لحد الآن محكمة جنائية دولية. فيمكن بقرار من مجلس الأمن تشكيل المحكمة المنشودة، استناداً إلى صلاحياته في المواد ٢٩ و٣٤ و٩٤ من ميثاق الأمم المتحدة، أعني الصلاحيات المتعلقة بالتحقيق وتنفيذ الاحكام.

والشيء الهام ان المحاكمة تتطلب عملاً دولياً. فهي لذلك ليست لصيقة بدولة معينة، إنما تخص الأمم المتحدة. ولا يمكن قبول الاحتجاج بان صدام حسين لا زال في الحكم مما يبعد عنه سلطة القانون الدولي وانه يخضع لسلطان القانون الداخلي فقط. فالقانون الدولي يسمو على القانون الداخلي، وان الانتهاكات مسّت الاول وتعدّت حدود العراق. وفي هذه الحالة يصح القول ان صدام يُسأل أمام المجتمع الدولي مثلما يسأل أمام الشعب العراقي. والمهم كل الأهمية إن الجاني يجب ان لا يفلت من العقاب.

وفي هذا المقام نتفق كل الاتفاق مع الطرح السليم بأن العدالة والشرعية يجب ان لا تكال بمكيالين. . فالنظام الدولي الجديد يفترض النظر بعين واحدة إلى الانتهاكات الخطيرة للقانون الدولي. وابرز مثال على ذلك هو مسلك القادة الاسرائيليين في شن الحروب العدوانية ضد الدول العربية واغتصاب حقوق الشعب الفلسطيني والتنكيل به وتحديهم للارادة الدولية برفضهم تطبيق قرارات مجلس الأمن والأمم المتحدة.

الهوامش:

(١) نشير على سبيل المثال لا الحصر إلى دعوات كل من وزراء خارجية المانيا وبلجيكا وفرنسا وايران،

ونداء وزراء خارجية المجموعة الاوربية المجتمعين بلوكسمبورغ في ١٦ نيسان ١٩٩١، إلى الامين العام للأمم المتحدة، ودعوة لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ الامريكي في ١٨ نيسان ١٩٩١.

(٢) ذكـر السيد ابـو الحسن مندوب الكويت الدائم لدى الأمم المتحدة ان اضرار حرب الخليج لحقت بـ ١٠٤ دول.

(٣) ج. أ تونكين، القانون الدولي العام، ترجمة أحمد رضا، القاهرة ١٩٧٢، ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦.

(٤) نفس المصدر، ص ٢٧٢.

(٥) نشير إلى ان أبرز الفقهاء الذين لمعوا في ميدان القانون الدولي ـ الجنائي في الفترة ما بين الحربين وبعد الحرب العالمية الثانية الرومانيان فيسباسيان بيلا وستيفان كلاسير والفرنسي دوفابر والانكليزي لوثر باخت.

(٦) د. حسن الجلبي، جرائم الحرب والمسؤولية السياسية في القانون الدولي جريدة (الحياة) ـ لندن.

نيسان ١٩٩١)

(٧) محاكمة صدام حسين. . كيف. . ولماذا؟ مقابلة منشورة في مجلة المصور المصرية العدد ٣٤٧٣ في ٣ مايس ١٩٩١ والآراء الواردة في بحثنا تخص الدكتورة عائشة راتب والدكتور صالح عامر.

(٨) الدكتور عبد الرحيم صدقي، القانون الدولي الجنائي، القاهرة ١٩٨٦، ص ٦٤.



نحو آفاق جديدة لنشاط منظمة تضامن شعوب اسيا وافريقيا

د. رحيم عجينة

كان من النتائج التاريخية لانتصار التحالف العالمي ، على مستوى الدول والحركات والتنظيمات الشعبية ، على الفاشية في الحرب العالمية الثانية ، ان حفز نضال شعوب آسيا وافريقيا ضد الكولونيالية والامبريالية ، ومن أجل استقلالها الوطني . واضفى دور الاتحاد السوفييتي الحاسم في تحقيق ذلك الانتصار ، وقيام دول اشتراكية أخرى ، طابعاً ديمقراطياً عميقاً على ذلك النضال ، وخلق ظروفاً واقعية لتحالف بين قوى حركة التحرر الوطني ، ولاسيما في آسيا وافريقيا ، والمعسكر الاشتراكي وحركة الطبقة العاملة العالمية من أجل انجاز تحولات سياسية واقتصادية واجتماعية تقدمية .

وعند نهاية الحرب العالمية الثانية لم تكن في افريقيا وآسيا إلا بضعة بلدان مستقلة ، واستقلال الغالبية منها كان منقوصاً ، وتشوبه مثالب خطرة ، وهكذا فهي لم تكن مستقلة من الناحية السياسية إلا شكلياً .

كان من الطبيعي اذن ان تنغمر شعوب آسيا وافريقيا في الكفاح لتصفية النظام الكولونيالي ، واقامة دولها الوطنية المستقلة ، التي سرعان ما بدأت بالظهور الواحدة بعد الأخرى في العقد الأول بعد الحرب . وكونت هذه البلدان تياراً عالمياً جديداً ، بجانب المعسكر الاشتراكي والمعسكر الرأسمالي ـ الامبريالي . ثم جسد مؤتمر باندونغ الذي تم عقده في ٢٤ نيسان ١٩٥٥ ، وانبثقت عنه حركة عدم الانحياز فيما بعد ، جسّد هذا القطب

الجديد بين مراكز القوى العالمية على مستوى الدول.

وفي ظل الصراع الدائر بين القوى الامبْريالية من جهة، وشعوب آسيا وافريقيا ودولها الفتية من جهة أخرى، وفي ظروف الحرب الباردة التي اعلنتها الدول الرأسمالية الغربية (والولايات المتحدة زعيمتها) على الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية الأخرى، والاحلاف والقواعد العسكرية، التي اقامتها الأولى (الناتو، السيتو، حلف بغداد، السنتو بعد ١٩٥٨)، وظهور حلف وارشو كاجراء دفاعي للدول الاشتراكية، اختط مؤتمر باندونغ سياسة تستند إلى المنطلقات التالية:

* تصفية النظام الكولونيالي والتحرر من الهيمنة الامبريالية سياسياً واقتصادياً.

* رفض اقامة القواعد العسكرية، ورفض الدخول في الاحلاف، والدعوة إلى حلها.

* الحياد بين الشرق والغرب وعدم الانتماء إلى أي من المعسكرين، فكراً وسياسة، وتجنب التورط في الصراع الدائر بينهما، والسعي للاعتراف بالعالم الثالث كقوة عالمية مستقلة عنهما.

* التمسك بسياسة التعايش السلمي بين الدول ذات الانظمة الاجتماعية المختلفة.

* التضامن بين شعوب آسيا وافريقيا من أجل تحررها وتقدمها الاجتماعي واحترام حقوق الانسان في الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

لقد ألهم مؤتمر باندونغ وقراراته الشعوب في آسيا وافريقيا ومنظماتها السياسية والاقتصادية، واستنهض نضالها، في حين استثارها العدوان البريطاني الفرنسي الاسرائيلي على مصر عام ١٩٥٦. وبعد عمليات من التهيئة الفكرية والسياسية والنشاطات العملية، واستناداً إلى الواقع التاريخي الملموس، انعقد المؤتمر الأول لحركة التضامن الآسيوي الافريقي في القاهرة في الفترة من ٢٦ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥٧ و١ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٨، مجسداً التطورات العميقة التي شهدتها القارتان، ومعبراً عن بدء مرحلة جديدة أكثر وعياً وتنظيماً وتعاوناً بين حركات التحرر الوطني، ومعلناً قيام منظمة تضامن الشعوب الافريقية الآسيوية (الابسو). وشارك في هذا المؤتمر مندوبون من ٤٥ بلداً واقليماً، يمثلون الاحزاب والمنظمات والقوى والشخصيات المناضلة ضد الاستعمار والامبريالية والرجعيات المحلية الحاكمة.

تميزت الابسو بكونها مؤسسة عالمية غير حكومية، ذات طبيعة شعبية، واستعداد كبير للتعاون والتضامن مع القوى الثورية العالمية. وهي لم تتبن فحسب قرارات مؤتمر باندونغ، بل طورتها، وعمقت مفهوم الحياد بحيث حررته من توجهه السلبي، وجعلت منه حركة

فعالـة في العداء للامبريالية والاستعمار الجديد والنضال ضدهما، وميزت بين الاعداء والاصدقاء والحلفاء، واتخذت موقفاً من كل منهم، وحددت مكانهم في الصراع الدائر في العالم، بالانخراط في الحركة العمالية للحفاظ على السلم ومنع نشوب حرب عالمية جديدة.

ان استعـراضاً موضوعياً لنشاط المنظمة خلال العقدين الاولين لوجودها، يعكس استجابتها للاهداف الرئيسية لحركة التحرر الوطني العالمية، وبخاصة في آسيا وافريقيا. فقد ركزت بالاساس على قضية الوجود الكولونيالي واقامة الدول الوطنية المستقلة وتعزيز الاستقـلال السياسي. أمـا الاستقـلال الاقتصـادي والتحـولات الاجتمـاعية التقـدمية والديمقراطية السياسية، فلم تتبلور آنذاك بالنسبة للمنظمة كاهداف مباشرة وملحة لحركة التحـرر الـوطني العـالمية، على الرغم من ان الوعي بضرورة وضعها كمهمات جديدة اساسية، وتشخيص دورها الحاسم في التطور اللاحق لتلك البلدان، ظهرا في الخمسينات وتعمقا لاحقاً في الستينات والسبعينات.

لقد كان للابسو وجود حقيقي في جميع معارك الشعوب الآسيوية والافريقية لتحقيق تلك الاهداف بقدر ما كانت تسمح به طبيعة المنظمة.

وعندما نبحث دور الابسو في تلك الفترة، أو ما يمكن ان نسميه المرحلة الأولى، فاننا ننطلق من حقيقة كونها منظمة عالمية، لا قطرية. وهي بصفتها هذه لا يمكن ان تعمل دون الاعتماد على وجود منظمات قطرية ذات نفوذ، سياسية واجتماعية ونقابية، تنتمي إلى عضـوية الابسـو وتتعـاون معهـا، وتدعو لها وتبشر بافكارها واهدافها. وبتعبير آخر ليس باستطاعتها ان تنظم لوحدها حركة جماهيرية في أي بلد من البلدان. فمثل هذه الحركة انمـا تعتمـد على منـظمة قطرية تعمل في وسط الجماهير. والابسو لا تمتلك مثل هذه الخصائص والمقومات اصلاً. وليس مفروضاً ان تمتلكها. واذا كان لها أي نفوذ، وهو قائم فعلاً، فانه نشأ وتطور بفضل المنظمات القطرية الاعضاء، أو المتعاونة، وهي من قوى المعارضة للفئات الرجعية الحاكمة، المناضلة في طليعة شعوبها ضد الكولونيالية، والتي تمثل الاغلبية الساحقة من فئات الشعب وطبقاته ذات المصلحة في التحرر واقامة الدولة القومية المستقلة.

كذلك كانت الابسو، كما هو مطلوب منها، مركزاً عالمياً غير حكومي لتنسيق مواقف المنظمات الاعضاء والمتعاونة، والاعلام والدعاية، وللاسهام في تنظيم حملات التضامن العالمية في كل قارات العالم ولاسيما بين حركة الشعوب الافريقية الآسيوية وشعوب امريكا اللاتينية، وايضاً مع حركة التضامن في اوربا.

وكأية ظاهرة سياسية أو اجتماعية، لا يمكن ان تبقى الابسو على حالها السابق، اذا

أرادت ان تحافظ على ديمومتها وتطورها، ولا يمكن ان تبقى بمعزل عن المتغيرات في عالمنا المعاصر. وبالارتباط مع هذا الفهم لابد من ان تشخص دخول حركة شعوب آسيا وافريقيا منذ السبعينات مرحلة جديدة، ولنسمها المرحلة الثانية. وأبرز سمات هذه المرحلة، هي التصفية الكاملة تقريباً للنظام الكولونيالي. حتى لم يبق اليوم إلا شعوب قليلة لم تتحرر من السيطرة الاستعمارية المباشرة، أو لم تحصل على حقها في تقرير مصيرها بنفسها، مثل الشعب العربي الفلسطيني والشعب الكردي، في منطقة الشرق الاوسط، والشعب الصحراوي في المغرب العربي، وشعب جنوب افريقيا.

وبنتيجة ذلك غدت دول آسيا وافريقيا تشكل الغالبية بين الدول الاعضاء في الامم المتحدة، وأكثر من ثلثي العضوية اذا اضفنا اليها دول امريكا اللاتينية، الوسطى والجنوبية. وتأسيساً على هذا اصبح لها، كمركز عالمي من مراكز القوى، دور أكثر فعالية وتأثيراً في التطورات العالمية والسياسية الدولية، وفي صياغة هذه التطورات. وترافق ذلك مع تنامي أهمية حركة عدم الانحياز، ومؤتمرات قمتها الدورية، التي تقترب في أهميتها من دورات الجمعية العمومية للامم المتحدة، حيث يجري الاسترشاد بقراراتها وبرامجها. يضاف إلى ذلك انها لم تعد تعامل كقوة احتياطية، ثانوية، لهذا المعسكر أو ذاك، وانما كمركز عالمي ذي موقف مستقل، يتكامل دوره. والسمة الثانية لحركة شعوب آسيا وافريقيا، التي أكملت مرحلة التحرر السياسي، هي تصدر مهمات تحقيق الديمقراطية السياسية واهداف التحرر الاقتصادي والاجتماعي، والتخلص من الاستعمار الجديد بمظاهره الجديدة (الديون والتبعية التكنولوجية ونقل النفايات، وتشييد الصناعات الملوثة للبيئة. . .) وصيانة البشرية من الكارثة النووية.

لقد توفرت لمنظمة تضامن شعوب آسيا وافريقيا خلال أكثر من ثلاثين عاماً الظروف والفرص لكي تبرهن على انها مؤسسة عالمية غير حكومية، قادرة على ان تلعب دوراً فعالاً ومتزايد الأهمية والتأثير في النضال الثوري الذي تخوضه بلدان هاتين القارتين، وتأمين تأييد الرأي العام العالمي له، وان تطرح في كل مرحلة نضالية أبرز القضايا وأكثرها الحاحاً لتكون محور النشاط المشترك لشعوب هذه البلدان والمساندين له. وساعدها على ذلك اقامة العلاقات مع الهيئات الدولية التابعة للامم المتحدة ومع العديد من المنظمات ذات الطبيعة التضامنية والانسانية في بلدان اوربا.

وقد دفعت التطورات العاصفة في عالم اليوم، والتغيرات في علاقات القوى العالمية وموازينها، دفعت مؤتمر الابسو السابع (١٩٨٨) إلى تشخيص الحاجة إلى معالجة هادفة لنشاطها اللاحق وانجاز مهماتها. ويمكن تلخيص أهم تلك التوجهات التي نأمل ان تتجسد في فعاليات ومبادرات ملموسة:

* تأكيد طبيعة المنظمة المعادية للامبريالية ودعم نضال الشعوب ضد الامبريالية والاستعمار الجديد وصيغه الجديدة.

* ضرورة اهتمام المنظمة بالدراسات والفعاليات المتخصصة التي يشارك في وضعها علماء متخصصون واصحاب خبرة من مختلف البلدان لتشخيص القضايا الأكثر الحاحاً التي تمس حياة ونضال ومشكلات شعوب هذه البلدان واقتراح المعالجات العملية والدعوة إلى دعمها من جانب الجمعية العامة للامم المتحدة والمنظمات الدولية الأخرى والرأي العام العالمي. ونخص بالذكر منها: المشكلات الاقتصادية وقضايا التنمية والتصنيع والامن الغذائي والديون والتكنولوجيا، وتلوث البيئة والتصحر والجفاف، وانتشار المخدرات والتعليم والوقاية الطبية... الخ.

* توجه المنظمة للاهتمام بنضال شعوب هذه البلدان في سبيل الديمقراطية وحقوق الانسان. فشعوب آسيا وافريقيا، التي تجد نفسها في نضال ضد الامبريالية تتعرض ايضاً إلى انتهاكات حادة لحقوقها وحرياتها الاساسية من جانب العديد من حكومات هذه البلدان، والمنظمة التزاماً بمبادئها لابد ان تقف ضد تلك الانتهاكات والتضامن مع ضحايا الارهاب. وهي بهذا الموقف تعزز حقاً دورها وسمعتها.

* الاهتمام بالدور الذي يمكن ان تلعبه منظمات جماهيرية تضامنية نشأت وتطورت في البلدان الرأسمالية المتطورة والبلدان النامية، وتقدم اشكال التضامن والدعم لنضال شعوب آسيا وافريقيا. ووضع برامج لنشاطات مشتركة. ونذكر على سبيل المثال لا الحصر، لجنة التضامن مع نضال شعب جنوب افريقيا ضد التمييز العنصري التي تضم عدة ملايين من مواطني بريطانيا العظمى، ومنظمة الحقوقيين الديمقراطيين العالمية، واتحاد المحامين العرب ومنظمات حقوق الانسان، ومنظمة العفو الدولية، والاوساط العلمية والثقافية الابداعية... الخ.

* ضرورة استمرار التعاون بين المنظمة وحكومات البلدان المختلفة عبر اللجان الوطنية وبشكل مباشر، وفي الوقت نفسه الحرص على استقلال نشاطات المنظمة وعدم السماح لتلك العلاقات باعاقة دور المنظمة واداثها مهماتها الاساسية في التضامن مع نضال شعوب تلك البلدان في سبيل الديمقراطية وحقوق الانسان.

* تنشيط فعالية شعوب آسيا وافريقيا في النضال من أجل عالم بلا اسلحة نووية وبلا حروب، ومن أجل سيادة مبادىء التعايش السلمي في العلاقات بين الدول ذات النظم الاجتماعية المختلفة. والتحري عن مقترحات ومبادرات جديدة تساهم في تنشيط وتسريع عملية نزع السلاح النووي والكيمياوي والجرثومي والتقليدي العام والشامل.

* اعارة اهتمام أكبر لمشكلات نزع السلاح وتصفية القواعد والاحلاف العسكرية

في بلدان آسيا وافريقيا مع توفير الضمانات الدولية لمنع أي اعتداء أو تدخل في شؤون هذه البلدان الداخلية والدعوة إلى احياء تلك المواد في ميثاق الامم المتحدة التي في مقدورها المساهمة بتوفير الضمانات المذكورة وفي بلورة مشاريع الامن الاقليمية في إطار الامن الدولي، والنضال من أجل ايجاد مناطق واسعة منزوعة السلاح النووي والاساطيل الحربية، مثل البحر المتوسط والخليج والمحيط الهندي.

* المساهمة في اقتراح الحلول للمشكلات والنزاعات القائمة بين دول آسيا وافريقيا واطفاء بؤر التوتر الراهنة وادانة الحروب وأساليب العنف في معالجة تلك المشكلات. ويتطلب الأمر حصر تلك المشكلات وتكليف متخصصين بدراستها وتقديم المقترحات لمعالجتها والمبادرة للتعاون مع الامم المتحدة بصددها.

* برمجة وتنظيم النشاط الاعلامي السمعي والبصري واستخدام التكنولوجيا الحديثة لمواجهة الاعلام الامبريالي، وعقد طاولة مستديرة لايجاد سبل جديدة لهذا الغرض.

ان من بين أبرز ما تتسم به هذه التوصيات هو الاهتمام الجلي بقضايا الديمقراطية السياسية وحقوق الانسان. فالملاحظ ان المنظمة لم تكن تولي اهتماماً ملموساً لهذه القضايا ولا لقضية الاضطهاد القومي في البلدان متعددة القوميات. وارتبط ذلك بكونها فصيلاً من حركة المنظمات الديمقراطية العالمية، العاملة في إطار الافكار السائدة فيها خلال الفترة الماضية، والمركزة اهتمامها بالتالي على الاستقلال السياسي لبلدان آسيا وافريقيا وعلى تحقيق اصلاحات ومكاسب للشعوب في ميادين الديمقراطية الاقتصادية والاجتماعية. وحتى قبل سنوات قليلة عندما طرحت موضوعة اقامة نظام عالمي جديد للعلاقات الاقتصادية يراعي - بين أمور أخرى - مصالح بلدان العالم الثالث المستقلة والخاضعة لاساليب الاستعمار الجديد، حتى في هذا المجال، جرى فصل قسري بين الديمقراطية السياسية والديمقراطية الاقتصادية والاجتماعية. ولكن ينبغي القول هنا ان هذا الوضع الفكري لم يغلب على مواقف ونشاط الابسو وحدها، وانما على نشاط عدد كبير من المنظمات الأخرى والاحزاب الشيوعية في البلدان الاشتراكية والعالم الثالث.

وثمة ظاهرة أخرى تعكس الاستهانة بالديمقراطية السياسية والتقليل من دورها، وهي ظاهرة تعليق المنظمة آمالاً كبيرة على صلاتها مع حكومات بعض الدول، أو مع القادة في دول أخرى، على الرغم من التغيرات السياسية والاجتماعية التي طرأت على تلك الحكومات أو على سلوك اولئك القادة ولجوئهم إلى احتكار حق النشاط السياسي المجاز قانونياً، وإلى قمع الحريات السياسية والغاء حرية التعبير عن الرأي والتنظيم السياسي والاجتماعي وعدم الاعتراف بالتعددية والديمقراطية. وأدى الحرص على العلاقات المذكورة في نهاية المطاف إلى حرمان عدد من الحركات والمنظمات والشخصيات

الديمقراطية والتقدمية التي كان لها دور فعال في بناء الابسو وتطويرها، من التمتع بحقوقها في عضوية المنظمة، وحرمان هذا الشعب أو ذاك من التضامن الذي هو بأمس الحاجة اليه، لكي يستعيد حقوقه المسلوبة ويواصل مسيرته في عملية التقدم الاجتماعي، ولكي يلعب دوره في نضال الشعوب من أجل السلام الدائم. واسفر ذلك كله، في الوقت نفسه، عن ايقاع ضرر بمكانة ونفوذ الابسو ذاتها.

وليس من الصعب ان نتوصل إلى بعض خلفيات ودوافع تلك الآمال. فالابسو واجهت في السابق، وتواجه الآن، صعوبات جمة في توفير الموارد المالية لمواصلة نشاطها في تنظيم اللقاءات والندوات وفي المجال الاعلامي وتقديم الدعم المادي والسياسي لبعض الحركات الوطنية والثورية.

وهناك سبب آخر وهو الأهم: سبب سياسي وفكري، نابع من حرص المنظمة على نشر افكارها واهدافها في مختلف البلدان، انطلاقاً من الاعتقاد بضرورة وجودها في اغلب اقطار آسيا وافريقيا، دون اعتبار لطبيعة وسلوك الحكام ولمواقفهم من الحركات والمنظمات الديمقراطية والتقدمية، وبضمنها الاعضاء في الابسو. وهي قوى ممثلة لجماهير شعوبها ومصالحها التي ينبغي وضعها في الاعتبار الأول. ورافق ذلك تصور مفاده ان التناقض بين مصالح الحركة الوطنية في أي بلد والابسو، يجب ان يحل بخضوع الأولى للثانية، وهذا استنتاج غير مبرر لانه يفترض قيام تناقض بين اهداف الابسو واهداف الحركات الوطنية في بعض البلدان، الأمر الذي لا يستند إلى ارضية حقيقية، ويؤدي إلى خلاف بين الابسو وهذه القوى وإلى الاضرار بالجانبين.

ان جهد الابسو لتعديل لائحتها الداخلية، بما ينسجم مع التغيرات في عالمنا المترابط المتكامل والمتناقض وفي مقدمتها التوجه لاشاعة الديمقراطية وعلى أساس مبادىء مؤتمر باندونغ وحركة عدم الانحياز، حقق في مؤتمرها السابق تطويراً واغناء لاهداف المنظمة وتحسين اداء هيئاتها القيادية المختلفة. ويعتبر ذلك خطوة هامة على طريق دمقرطة حياة المنظمة ذاتها.

وبالارتباط مع ذلك يؤمل ان تكون قاعدة القبول في عضويتها هي التعددية، وليس التمثيل على أساس منظمة واحدة من كل قطر. فالتأكيد على وحدانية التمثيل، إلا في الحالات الاستثنائية، مخل بتوجه الابسو للدفاع عن الديمقراطية واشاعتها في حياتها الداخلية. كما ان وحدانية التمثيل تؤدي إلى حرمان العديد من المنظمات والقوى المناضلة من احتلال مواقعها في هذه الحركة العالمية لشعوب آسيا وافريقيا.

ومن نفس منطلق التمسك بمبادىء الديمقراطية ودورها الحيوي والحاسم في تطوير الابسو كرابطة عالمية لمنظمات قطرية، كان الاجدى والأكثر انسجاماً مع ذلك ان يجري

انتخاب جميع الهيئات القيادية الأخرى للمنظمة، من بين الشخصيات البارزة في المنظمات الاعضاء ومن خلال التشاور معها.

ان المهمات التي تواجه شعوب آسيا وافريقيا والعالم، والاحداث العاصفة في العديد من البلدان، لاسيما في اوربا الشرقية، والترابط والتكامل المتزايدين بين بلدان العالم في ظل التناقضات المختلفة الشدة والانفجار في هذه المنطقة أو تلك، وتبوء النضال من أجل الديمقراطية وحقوق الانسان والقيم الانسانية الصدارة، كل هذا يحتم علينا ان نستوعب ان توازناً جديداً واصطفافاً جديداً ينشآن ويتغيران في مواقع ونفوذ القوى العالمية، وظهور أخرى. الأمر الذي يفرض بالضرورة رؤية هذا الجديد وحسابه في علاقات المنظمة وتأثيره عليها وعلى طبيعتها وعلى تنفيذ اهدافها ونشاطها. ويرتبط بهذا حقيقة ان قوى وحركات عديدة على مستوى الشعوب والحكومات تشعر اليوم، أكثر من أي وقت سابق، بالحاجة الماسة إلى تعبئة وأهمية الحركة التضامنية في الظروف النوعية الجديدة، وطبيعة أو محتوى حركة التضامن نفسها.

ونلاحظ في هذا الوقت ان نشاط الولايات المتحدة المعادي للشعوب وحرياتها تصاعد، وتجسد في غزو بنما والاخطار المحدقة بشعوب امريكا اللاتينية الوسطى، ووضع العقبات في طريق الحل السلمي العادل للقضية الفلسطينية والتدخل المتواصل في افغانستان وتنصلها هي وحلفائها من الالتزامات بقرار مؤتمر جنيف، والاصرار على مواصلة تنفيذ برامج التسلح المتنوعة...

وفي الوقت نفسه لا يمكن لأي مراقب ان يغفل وزن الحركة التضامنية وسعة القوى السياسية والاجتماعية والانسانية المساهمة فيها في تحرير نلسن مانديلا، والحاجة المضاعفة إلى هذه الحركة لتصفية العنصرية وضمان حرية وحق شعب جنوب افريقيا في تقرير مصيره.

ان المتغيرات والمستجدات في عالم اليوم، والمتوقعة في عالم الغد القريب، تفتح افقاً رحباً لنشاط الابسو التي تتمتع، افضل من غيرها، بمواقع ملائمة لتنظيم مبادراتها وتنامي دورها في مختلف بلدان العالم. وفي التحليل الأخير، سيعتمد توطيد نفوذ منظمة تضامن شعوب آسيا وفريقيا وبروز دورها على قدرتها على تحويل قراراتها، بعد الاغناء والتطوير وتصويب ما لا تزكيه الحياة، إلى واقع ملموس معاش.

نشرت في قضايا السلم والاشتراكية - اوائل ١٩٩٠

الثقافة الجديدة (العراق)
مايو ١٩٩١



آفاق الحركة الشيوعية

د. سعاد خيري

تمر الحركة الشيوعية اليوم بأزمة حادة حيث تفتت بعض احزابها ويفقد العديد منها جماهيره ويتخلى البعض الآخر عن اسم الشيوعية وعن مبادئها الماركسية اللينينية وعن برامجها واهدافها وعن طابعها الطبقي وتتعرض مصداقيتها لدى الجماهير للاهتزاز أو يفقد ثقة الجماهير ويعود ذلك بالاساس إلى :

١ ـ جمودها على النظريات والاستنتاجات الماركسية اللينينية للمراحل السابقة للثورة العلمية التكنولوجية وانغلاقها على التفتح الفكري والفلسفي الذي اطلقته هذه الثورة بل واهملت الاشراقات النبوئية لماركس وانجلس ولينين التي تتناول قضايا عصرنا وتعالت على ابداعات العلماء والفلاسفة الآخرين الذين استطاعوا ان يتبينوا مبادىء التفكير الجديد عن وحدة العالم وتكامله مثل آينشتاين ومبادىء التفكير السياسي الجديد ولاسيما عن ضرورة صياغة مبادىء الأمن العالمي العام مثل اولاف بالما.

٢ ـ فشل المثال الواقعي للمجتمع الذي تطمح اليه الاحزاب الشيوعية في تحقيق حلم الجماهير بمجتمع الرفاه والعدالة الاجتماعية وفشله في المنافسة مع الرأسمالية نتيجة الخروج عن النهج الماركسي اللينيني في قيادة المجتمع، والفصل القسري بين الاقتصاد والسياسة فلم يحقق الانتاجية الاعلى في الاقتصاد ولم يحقق النظام السياسي الأفضل.

٣ ـ شجبت الاحزاب الشيوعية في البلدان الرأسمالية المتطورة الجمود العقائدي في الحركة الشيوعية وانتقدت الاشتراكية الواقعية وحاولت تطوير الماركسية إلا انها فشلت في

انجاز ذلك وعجزت عن خلق نموذج افضل للاشتراكية بل وحتى في قيادة الطبقة العاملة في بلدانها لمواجهة ظروف الاستغلال الجديد في عصر الثورة العلمية التكنولوجية والشركات متعددة الجنسية وهجوم الرأسمالية على مكتسبات الطبقة العاملة واتساع نطاق البطالة لتشمل العمال والمثقفين ولاسيما الشباب منهم. فتزعزعت ثقة هذه الفئات بالاحزاب الشيوعية وبذلك خسرت الكثير من مواقعها في المجتمع وفي البرلمانات وتقلصت عضويتها.

٤ ـ واعتمدت الاحزاب الشيوعية في بلدان العالم الثالث على التلقي النظري والعمل على قسر الواقع لكي ينسجم مع المقولات النظرية الجاهزة دون تمحيص ودون أخذ الواقع بنظر الاعتبار مما أدى إلى تعظيم العامل الذاتي وسيادة الارادوية واهمال العامل الموضوعي والتخلي عن الجماهير أو الانابة عنها والتضحية بالديمقراطية السياسية في سبيل الديمقراطية الاقتصادية الاجتماعية فخسرت الاثنين معاً وعزلت نفسها عن الجماهير وفقدت ثقتها مما سهل انقياد الجماهير للدكتاتوريات الحاكمة، أو التهرب من جحيمها باللجوء إلى التيارات السلفية.

٥ ـ وعمق هذه الأزمة استغلال الرأسمالية لها سياسياً واقتصادياً وفكرياً. فقد شجعت المعادين للشيوعية لركوب الموجة الجماهيرية المستاءة من الكبت والتقشف للاستيلاء على الحكم في معظم البلدان الاشتراكية والعمل في سباق مع الزمن لبناء القاعدة الاقتصادية والاجتماعية للتطور الرأسمالي وتلطيخ كل ما انجزته الاشتراكية من تطور حضاري وما قدمته من مكاسب للشغيلة واشغال الجماهير بالمظاهر البراقة للمجتمع الاستهلاكي عن الالتفات إلى مكاسبها وهي تسلب بالجملة. واستغلت البلدان الرأسمالية المتطورة الأزمة الاقتصادية التي تعانيها هذه البلدان لتفرض شروطها على المساعدات الاقتصادية التي تقدمها لها. وعرقلت عملية الاصلاح الضرورية ولاسيما النهوض الاقتصادي والتكنولوجي. كما شجعت الحركات القومية الانفصالية لتفتيت وحدة هذه البلدان. وجندت اجهزتها الاعلامية الجبارة ومراكز ابحاثها السياسية والسايكولوجية في حملة مسعورة ضد الشيوعية والاشتراكية وانظمتها يساعدها عدد كبير من المثقفين الضعيفي الثقة بأفق البشرية وبالجماهير وامكانياتها ففاضت قرائحهم بعشرات «النظريات» التي ملأت الصحف والمجلات واصدرت عشرات الكتب الداعية إلى التطور الرأسمالي كطريق أوحد نحو الاشتراكية التي باتت بعيدة جداً!! وانتهت الماركسية اللينينية وبطل مفعول كل ما انتجته عدا النهج أي المادية الديالكتيكية!! وان الاشتراكية لم تتحقق حتى في الاتحاد السوفييتي وانما كان ذلك مجرد توجه نحو الاشتراكية لانه لم يكن ممكناً بناء الاشتراكية دون تحقيق الرأسمالية اولاً وقبل كل شيء!! وان ما يجري الآن في البلدان

الاشتراكية تصحيح لهذا الخطأ التاريخي وعودة إلى الرأسمالية!! باعتبارها مرحلة محتومة في سير تطور كل المجتمعات متجاهلين ان عدداً من هذه البلدان الاشتراكية كانت تسودها مجتمعات رأسمالية متطورة قبل انتقالها للاشتراكية.

انهم بهذه المنظومة المتكاملة من الافكار يعملون شاؤوا أم ابوا على سلب الحركة الشيوعية الأفق أولاً والتراث النظري وما يحمله من تجارب غزيرة ثانياً والمثل وما يحتويه من الخطأ والصواب ثالثاً وأخيراً القضاء على الحركة لسلب البشرية أدوات التغيير وما تتطلبه من تجديد لتستسلم للمسيرة العفوية وليتركوا للرأسمالية حرية السيطرة على العالم والبحث عن السبل لتصريف ازماتها على حساب هذه المجموعة من الدول أو تلك وحرية اختيار أساليب تحقيق اهدافها وهي لا تتوانى عن تهديم الحضارة الانسانية وابادة البشر في سبيل ذلك.

وفي الحقيقة انهم لم يأتوا بجديد فكل هذه المنطلقات الفكرية جاءت على لسان المنظرين والايديولوجيين المدافعين عن الرأسمالية منذ نشأة الحركة الشيوعية وفي الأدب الماركسي اللينيني تفنيد مفحم لها يتلاءم وتلك المرحلة من تاريخ الحركة ولابد للشيوعيين المعاصرين من تفنيدها على ضوء معطيات العصر الراهن ومتطلباته لكي يتعمق وعيهم ووعي الجماهير وتتوطد حركتهم ويتصاعد نضالهم.

لقد ظهرت الحركة الشيوعية كضرورة تاريخية ليس لقيادة الصراع الطبقي من أجل تحرير العمل من عبودية الرأسمال فقط، وانما من أجل تحقيق المجتمع الانساني الذي يحرر الفرد من جميع أشكال الاغتراب ويطلق طاقاته الابداعية ويمكنه من تحقيق ذاته وحريته كأساس لتقدم البشرية وتحررها. والحركة الشيوعية كأي كيان حيّ يولد ويتطور لينجز مهمته التاريخية ثم يضمحل. وقد مرت بأزمات حادة ولكن الحياة التي فرضت وجودها تفرض تجددها أيضاً لتصبح اهلاً للنهوض بمسؤولياتها التي لم تتحقق بعد. ومرت الحركة الشيوعية في امتحانات عسيرة اثبتت فيها جدارتها ولاسيما في قيادة النضال لانقاذ البشرية من خطر الفاشية الهتلرية. ورغم كل اخطائها استطاعت ان تروض الرأسمالية بابعاد شبح الحرب العالمية والعمل على نزع السلاح وساندت حركة الشعوب من أجل تحررها من الكولونيالية والقضاء على تخلفها كما أسهمت في تعزيز القيم الانسانية وفي تطور الحضارة العالمية كما تثبت اليوم حيويتها بانتقاد نفسها والعمل الحثيث لتصحيح اخطائها وتجديد نفسها.

ان البشرية وهي تواجه اليوم اخطاراً لم يسبق لها مثيل في أمس الحاجة إلى الحركة الشيوعية المتجددة. فالرأسمالية رغم كل ما ادخلته من منجزات ايجابية ومن تعديلات على طبيعتها من تدخل الدولة على نطاق واسع في النشاط الاقتصادي لزيادة التوظيفات واسناد

معدل الربح وضبط النمو الفوضوي لاقتصاد السوق عن طريق اعتماد أشكال من التخطيط والبرمجة وايجاد آليات لاعادة توزيع الدخل والثروة على نحو يعزز الطلب الفعال ويحول دون تكرر تفجر أزمات فائض الانتاج وتطوير الشركات الاحتكارية إلى شركات متعددة الجنسية لتدويل الرأسمال والانتاج والاستغلال والتوزيع وفي تنافسها مع الاشتراكية استوعبت الثورة العلمية التكنولوجية فتضاعفت انتاجية العمل وسخرتها ليس لانتاج الوفرة التي تحرر البشرية من الحاجة بل لمضاعفة ارباح الرأسماليين والحكم على عشرات الملايين من العمال بالبطالة، رغم كل ذلك لم تستطع ان تقضي على طابعها الاستغلالي وعلى التناقض الرئيسي بين العمل والرأسمال ولن تستطيعه إلا بالقضاء على نفسها ـ كما انها لم تستطع درء الأزمات الدورية المدمرة رغم تباعد فتراتها وخفة وطأتها. بل ان الرأسمالية في هذه المرحلة عمقت التناقض ليس بين الطبقة العاملة والرأسمال في بلدانها فقط وانما بين الرأسمال الدولي والطبقة العاملة العالمية من خلال استغلال الشركات متعددة الجنسية للعمال في عدة بلدان وزادت الهوة ليس بين الرأسماليين والكادحين في بلدانهم فقط بل وبين مستوى الشعوب في البلدان الرأسمالية المتطورة وشعوب العالم الثالث الذين امتصت دماءهم خلال قرون. وكبلتهم بالديون فحكمت عليهم بالتخلف المزمن وتركتهم نهباً للجهل والفقر والمرض.

وللخروج من أزمات فيض الانتاج شجعت الرأسمالية الانتاج العسكري وشددت سباق التسلح فاصبح العالم ملغوماً باسلحة تكفي لفنائه عدة مرات. والثورة العلمية التكنولوجية في ميدان التسلح جعلت الحرب تعني انتحار البشرية، فقد أدى استخدامها على نطاق ضيق في حرب الخليج إلى تدمير العراق بفترة وجيزة ودون تقديم خسائر بالارواح من جانب المعتدين بل ولم يكونوا بحاجة إلى الجيوش الجرارة التي استقدموها أو إلى كفاءة عالية للمهاجمين ولا حتى إلى الشجاعة والاقدام. بل حولت التكنولوجيا الحديثة الحرب إلى ما يشبه لعب الاطفال! فالكاميرات الحساسة تحدد الهدف بواسطة الليزر ومجرد ضغط الزر يصبح أكبر هدف عسكري أو مدني اثراً بعد عين. ولم تتخل الرأسمالية بعد عن عدوانيتها بل واستخدام الحروب لحماية مصالحها فمعالم العالم الجديد لم تجد طريقها إلى الواقع بعد إلا بمقدار ضئيل والتفكير الجديد لا يزال يلاقي المقاومة ليس من اعداء البشرية فقط وانما من الطلائع الثورية القديمة المتحجرة. ان حرب الخليج الثانية لم تكن من أجل تحرير الكويت وصيانة الشرعية الدولية بل جاءت لحماية الامبراطورية النفطية اغنى امبراطورية كولونيالية في التاريخ الاستعماري لحساب الرأسمال العالمي بقيادة الرأسمال الامريكي ولفرض التوازن في المنطقة لمصلحة الولايات المتحدة وحليفتها اسرائيل. وستجد امريكا الكثير من أمثال صدام حسين من

القادة الدكتاتوريين المعادين لشعوبهم وللانسانية يخلقون لها المبررات لاستعراض احدث ما قدمته الثورة العلمية التكنولوجية من وسائل الدمار لاخضاع الشعوب واستعبادها ولتحول عملية الحرب ليس إلى نزهة لجنودها وتعزز فيهم روح التفوق على الشعوب الأخرى وتحولهم إلى ابطال دون مشقة وتسعدهم برؤيا الضحايا ونتائج التدمير لينالوا مقابل ذلك الاوسمة والمكافآت المالية ليس هذا فقط وانما لتحول الحرب إلى تجارة «بزنس» تدر عليها الارباح فقد تقاضت مبالغ تزيد على تكاليف الحرب بعشرات المليارات لقاء ضمانها استمرار تدفق نفط الخليج الرخيص على الدول الرأسمالية المتطورة جميعاً.

ان البشرية بأمس الحاجة إلى الحركة الشيوعية من أجل تعبئة جميع الشعوب للنضال ضد الحرب كمهمة انسانية أولى تتقدم على جميع المهام الأخرى بما فيها الصراع الطبقي دون ان تلغيها، وتقف ضد اللجوء إلى الحرب لحل أية مشكلة داخلية أو دولية ولا لتحقيق أية شرعية لأن الحرب بحد ذاتها خرق للشرعية وتخلق المشاكل دون ان تحل أية مشكلة فحرب الخليج الثانية فضلاً عما كلفته من قتل للابرياء ودمار خلفت المزيد من المشاكل المستعصية مما سيجعل شعوب المنطقة تعاني لسنين عديدة.

والبشرية بحاجة الآن إلى الحركة الشيوعية أكثر من أي وقت مضى ليس لأنها المعبر عن مصالح جميع المنتجين فقط وانما لأنها المعبر عن مصالح البشرية عموماً وليس لأنها العاملة بدأب من أجل وحدة صفوف الكادحين لتحقيق اهدافهم فقط وانما لأنها العاملة بتفان من أجل وحدة جميع القوى الانسانية من أجل بناء نظام عالمي جديد يسوده السلام والعدالة الاجتماعية وحرية الشعوب في تقرير مصيرها واختيار سبل تطورها وتجند كل امكانياته للقضاء على المشاكل ذات البعد العالمي كنزع السلاح والقضاء على تخلف العالم الثالث وانقاذ الطبيعة وتصحيح وضع البيئة وتحرير البشرية من المجاعة والاوبئة.

ان البشرية بأمس الحاجة إلى تلك الحركة الشيوعية المتجددة التي لا تضيع الهدف ووضوح الرؤية مهما تكاثفت المشاكل والصعوبات، الحركة القادرة على تمزيق نسيج العنكبوت الذي لفته اجهزة الاعلام الرأسمالية حول عقول وسايكولوجيا الجماهير لتشل حركتهم المتطلعة إلى عالم أفضل وحيث تلتبس الامور على الكثير من السياسيين فيرسمون صورة كئيبة للعالم نتيجة التحليل الوحيد الجانب للوضع العالمي فلم يروا فيه سوى انهيار المنظومة الاشتراكية وانتصار الرأسمالية ولم يروا من معالم النظام الدولي الجديد سوى سيطرة الولايات المتحدة وقيادتها للعالم. لم يتبينوا ان الذي انهار هو الانظمة البيروقراطية المتحجرة المعيقة لتطور الاشتراكية والمسيئة لمثالها الملهم للشعوب، انهيار الانظمة المعزولة عن شعوبها والقيادات البيروقراطية وهرم من المفاهيم والاساليب الادارية في قيادة الدولة والمجتمع ولى زمانهاوثبت عجزها وعلى الرغم من استيلاء العناصر المعادية

للاشتراكية في عدد منها إلا ان العملية التاريخية غير منتهية فشعب المانيا الديمقراطية الـذي ضحى باشتراكيته المشوهة ليستظل بالرأسمالية بدأ يشعر بخيبة الأمل وبدأت النشاطات الجماهيرية لمواجهة النتائج التراجيدية للانضمام إلى الرأسمالية حتى وان يكن في واحدة من أقوى مواقعها وهو المانيا. ولا يزال الاتحاد السوفييتي رغم صعوباته ومشاكله يعمل من أجل تجديد الاشتراكية ولابراز افضلياتها وطابعها الانساني، ولا يزال قوة اسناد عظيمة للحركة الجماهيرية العالمية الطامحة إلى نظام عالمي جديد ومناضل كفوء لتحقيقه.

ان عصرنا هو عصر الحركات الجماهيرية الواسعة والدبلوماسية الشعبية حيث تمتد هذه الحركات عبر الحدود لتشكل تيارات عالمية تقف بوجه الحروب وضد العدوان واستعباد الشعوب وضد الدكتاتوريات والتمييز العنصري. ولم تعد الرأسمالية مطلقة الحرية في العدوان وشن الحروب رغم انها لم تتخل عن طبيعتها العدوانية بعد ولم تتخل عن استخدام الحروب وسيلة لحماية مصالحها كما حصل في حرب الخليج إلا انها لم تعلنها إلا بعد ان موهتها بشرعية دولية اعدها لها الدكتاتور صدام حسين بعدوانه على الكويت ولم تطلق العنان لقواتها كما في السابق على الرغم من انها نفست عن حقدها بتهديم العراق. وجوبهت بجبهة استنكار جماهيرية واسعة غطت جميع أنحاء العالم بما فيها الولايات المتحدة اضطرتها لوقف الحرب. كما تواجه دكتاتورية صدام حسين وأعماله الوحشية لقمع طموحات الشعب الكردي بحملة شعبية ودولية عارمة ويحظى الشعب الكردي باسناد عالمي كبير سوف يعجل بانهيار الدكتاتورية وضمان الحل الديمقراطي العادل للقضية الكردية.

ان البشرية بحاجة إلى الحركة الشيوعية المتجددة المُستنيرة بالتفكير الجديد المتطور بديناميكية عالية والمستفيدة من كل تراثها وتجاربها لتصوغ نظرياتها ومنطلقاتها الآنية بالاستناد إلى الواقع المتطور ابداً.. انها بحاجة إلى تنظيمها الوطني المستقل المرن العامل على تعبئة جميع قوى المجتمع نحو الاهداف التي تنسجم مع اهداف البشرية وتضمن تطور مجتمعاتها كأساس لتطور كل المجتمعات وضمان حرية الفرد كأساس لحرية المجتمع وبالتالي الانسانية. انها بحاجة إلى احزاب متينة تعتبر الديمقراطية أساساً لسياستها الداخلية دون ان تخل بالحد الأدنى من المركزية الضروري لوحدة الاحزاب ككيانات سياسية اجتماعية ايديولوجية لتكون المدرسة في ممارسة الديمقراطية في المجتمع وتقدم المثل للتنظيمات الاخرى، إلى احزاب ذات أفق واضح وسياسة تربط ربطاً ديالكتيكياً بين المطالب والاهداف الآنية مع المطالب والاهداف المستقبلية كما تربط بين اهداف الكادحين وبين اهداف شعوبهم وتهتم بتجارب الشعوب الاخرى واذ تنظر إلى

المستقبل لا تنبذ الماضي بل تفيد من تجاربه واذ تنتقد السلبية منها تفخر بما قدمته شعوبها من انجازات بفضل نضالاتها.

والاحـزاب الشيوعية التي بمجمـوعها تكون الحركة الشيوعية لا تستطيع النهوض بمهمتها التاريخية ما لم تجدد نفسها وأساليب تنظيمها وعملها وما لم تنطلق من مبادىء التفكير الجديد وفلسفته والعمل من أجل ان تصبح هذه المبادىء والفلسفة في متناول ادراك الجماهير لتتحول إلى قوة مادية رادعة لكل عدوان وقادرة على بناء النظام العالمي الجديد القائم على تحرير الشعوب من الحروب والتخلف ومن جميع أشكال الاغتراب.

فالتفكير الجـديد الذي يشكل تطوراً نوعياً للماركسية اللينينية، وتجديد الاحزاب الشيوعية، واعـادة بنـاء الاشتـراكية يبشـر بفجر جديد للحركة الشيوعية يؤهلها للنهوض بمسؤولياتها ازاء البشرية ويقرب انتصارها.

١٩٩١/٤/١٥

مهام البديل الديمقراطي

يوسف أمين سعيد

من دراسة مطوّلة للكاتب بعنوان «رأسمالية الدولة في العراق ودورها في انتقال العراق إلى الرأسمالية اخترنا خاتمتها لباب «نحو المؤتمر الخامس. . . ».

تطرح القوى الوطنية والديمقراطية المعارضة للدكتاتورية شعار البديل الديمقراطي، ولست بصدد الحديث عن مكونات هذا البديل من جوانبه السياسية، يجسدها شعار دولة القانون والتعددية الحزبية والديمقراطية المستندة إلى دستور دائم تشرّعه جمعية تأسيسية تساهم فيها قوى المعارضة، وينظم بنفس الوقت النظام السياسي العراقي لاحقاً على أساس فصل السلطات ومراقبة السلطة التنفيذية وانتخاب رئيس الدولة. . . الخ. فموضوعنا يتعلق بموقف دولة البديل الديمقراطي من نمط رأسمالية الدولة والرأسمال الخاص، وسبل تطوير الاقتصاد العراقي واتجاهات ذلك لاحقاً. وطبعاً لا يمكن عزلها عن طليعة الطبقات التي تقف وراء البديل الديمقراطي وتشكل قاعدته الاجتماعية آخذين بنظر الاعتبار تدويل الاقتصاد الواسع على الصعيد العالمي وترابط الاسواق والتكامل الاقليمي، وان العراق أحد مكونات كل تلك الروابط بهذا الشكل أو ذاك.

وتطرح مختلف الاحزاب وقوى المعارضة والحركات السياسية في برامجها تصوراتها واهدافها في هذا المجال، وكل منها يستند إلى منطلقات فكرية محددة ترتبط بمنهجها

الفكري عموماً. وأعتقد أنه ليس من الضروري ايراد ما تطرحه الاحزاب في وثائقها. فلا زالت انعكاسات التجربة التاريخية لاغلب البلدان غير واضحة في وثائق هذه الاحزاب، بل يمكن القول ان هناك توجهات تجري مناقشتها حالياً للوصول إلى الصياغات الملائمة. وحزبنا يقوم بذلك منطلقاً من واقع العصر الراهن والمتغيرات الحاصلة فيه وارتباطاً باوضاع العـراق السياسية والاقتصادية والاجتماعية. فالوثيقة التي طرحتها ل م في آذار الماضي للنقاش تدعـو إلى وضع برنامج يخدم في الاساس مهمات النهوض بالانتاج الوطني، بمشاركة الدولة والرأسمال المحلي الكبير والمتوسط والصغير ومشاركة مختلف المنتجين بهـدف تطوير القـوى المنتجـة في بلادنـا، والتعاون مع الرأسمال العربي والمؤسسات العالمية الرأسمالية وغير الرأسمالية . . . الخ.

في المقطع المذكور يعبر الحزب عن موقفه من كل الانماط الاقتصادية ودورها في عملية التنمية. والذي يوضح اتجاهاته بشكل ما في فقرة لاحقة عند حديثه عن التطور الرأسمالي وما يمتلكه من ايجابيات وسلبيات وارتباط ذلك بالعدالة الاجتماعية. وهو تعبير واقعي وعملي عن الموقف من تطور الرأسمالية في العراق التي تحاول، أو تكاد، تتوج مرحلتها الثانية في وضع العراق في إطار البلدان المتطورة.

ومما يجعل لمكونات هذه الاتجاهات فاعلية أكبر في الاقتصاد هو الاطار السياسي الديمقراطي الذي يوفره البديل واسلوب خوض النضال في إطاره من أجل المطالب الخاصة بالعمال والفلاحين وسائر الكادحين. وفي إطار ذلك يتم التوصل إلى التناسب الملائم للعلاقة بين انماط الرأسمالية (الدولة والخاص). وباعتقـادي ان هذا التناسب لا يمكن تحديده بصيغ ثابتة أو جامدة، بل يمثل علاقة متحركة تنجم من تطور الاوضاع وتحركها والاهـداف المـراد الوصول اليها. تلك الاهداف تتحدد في إطار الممارسة الديمقراطية بمشاركة كل القوى، رغم انه يجب على الدولة، باعتبارها مالكة الوسائل المالية والادارية التي تمكنها من توزيع واعادة توزيع الدخل على قطاعات الشعب باتجاه تحقيق المزيد من العدالة الاجتماعية، ان تتمسك بتلك القطاعات الاستراتيجية التي تمكنها ان تشرف على السياسة المالية والنقدية أو الادارة المباشرة لقطاعات أخرى حسب الحاجة وفي ضوء ما تقرره الهيئات المنتخبة المخولة والدراسات العلمية المبررة. ولذا فان السياسة الاقتصادية لدولة البديل الديمقراطي يجب ان لا تكون (ولن تكون في ظل دولة المؤسـسات الدستورية والديمقراطية) ارتجالية ارادوية تنطلق من الشعارات السياسية فقط، بل على أساس منهج عملي وعلمي يستهدف أساساً:

١ ـ تصحيح الخلل في الاقتصـاد العـراقي بتقليص اعتماده على عائدات النفط والتحـويل إلى الصناعة التحويلية الممكنة وتطوير الزراعة باتجاه استعادة العراق مكانته

كمصدر للحبوب والمنتوجات الزراعية وليس مستورداً كما هو الحال عليه الآن.

٢ ـ مواصلة منهج التصنيع التكاملي المحلي أو على الصعيد العربي والاقليمي في توسيع الصناعات أو توزيعها واعتماد الواقع في رسم الخطط والسياسات الاقتصادية في هذا المجال آخذاً بنظر الاعتبار التوزيع الجغرافي للصناعات قدر الامكان لغرض تحقيق التنمية الاجتماعية المتوازنة جغرافياً.

٣ ـ ان التطوير الاقتصادي على الطريق الرأسمالي رغم ما يوفره من تطور للقوى المنتجة وتحسين الاداء والانتاجية والتشغيل يجب ان لا يغفل الجانب السلبي لتأثيراته الاجتماعية سواء من حيث تنازلات المداخيل أو الاستفادة من الخدمات الاجتماعية أو القدرة الشرائية وتلبية الاحتياجات وضمان المستقبل. وهذه مهمة الدولة التي عبر برامجها وميزانيتها الاعتيادية ونفقاتها الجارية وآلية الاسعار والدعم الحكومي تستطيع التخفيف من تلك السلبيات.

٤ ـ معالجة الاختناقات التي يولدها تفاوت وتائر التطور بين القطاعات والفروع المترابطة في الاقتصاد العراقي (مثلاً اقامة المشاريع وحاجتها إلى مواد البناء. أو الكوادر المؤهلة) وعلى الصعيدين الكمي والنوعي من خلال الدخول مباشرة في انتاجها وتوفيرها أو استيرادها أو تحفيز رؤوس الاموال للاستثمار فيها عبر سياسة الفوائد والقروض.

٥ ـ تطوير الخدمات الصحية والتعليمية والاشراف على نشاط الرأسمال الخاص في هذا المجال، وتجهيزها بأحدث المعدات والمستلزمات والتكنولوجيا المتقدمة وتطوير مناهج التعليم وابعادها عن الايديولوجيا وارسال البعثات إلى الخارج اضافة إلى تطوير الدراسات العلمية العليا في الجامعات والمعاهد العراقية لتستطيع مواكبة منجزات الثورة العلمية التكنولوجية. وعلى ان تكون هذه الخدمات في متناول كل فئات الشعب العراقي.

٦ ـ وقف برامج عسكرة الاقتصاد التي ينفذها النظام الحالي لكونها تستنزف أموالاً طائلة يمكن توظيفها بعائدية أفضل في القطاعات الأخرى الصناعية والزراعية وبالتالي زيادة امكانيات انهاض الاقتصاد المخرب. من جهة أخرى فان سياسة التصنيع العسكري للنظام الحالي تزيد من حدة التوتر ومخاطر تفجر الوضع في المنطقة مما يشكل خطراً على شعوب المنطقة والعالم أجمع.

٧ ـ اعتماد منهج التكامل الاقتصادي مع الاقطار العربية في كل المجالات الممكنة ووفق خطط مبررة ومستندة إلى الامكانات الواقعية وضرورات تطوير كل بلد سواء في الصناعة أو الزراعة أو الهياكل الارتكازية والطاقة. وأخذ موضوع الغذاء وتوفيره بنظر الاعتبار مما يساعد العديد من البلدان والشعوب العربية في التخلص من معاناتها من نقص الغذاء أو يساعدها في نهوضها الاقتصادي. ويمكن ان تتحول الاتحادات المتشكلة حالياً إلى أطر

أولية لهذا الاتجاه اذا جرى تقليص طابعها العسكري والامني لصالح جوانبها الاقتصادية والاجتماعية.

٨ ـ يجب أن يعتمد التطوير الاقتصادي على التفاعل الموضوعي مع قوانين التطور الاقتصادي بعيداً عن محاولات التسريع القسري في التنمية بالاستناد إلى الارادة السياسية والحماسة. بل يكون بتوظيف تلك القوانين في الاتجاهات الموضوعية لها والحد من تأثيراتها السلبية. وليس ترويضها بما يشيع التصورات النظرية المبنية على الرغبات في سرعة الوصول.

٩ ـ وعلى صعيد التطوير القطاعي للاقتصاد فبالاضافة إلى ضرورة التوجه لتخليصه من احادية الجانب التي يتسم بها، فانه يجب التوجه للحد من الاعتماد على موارد النفط الخام عبر تصنيعه وتصدير المنتجات النفطية، وتقليص الاستثمارات في القطاعات غير المنتجة على الأقل إلى مستوى التوازن الملائم مع الاستثمارات في القطاعات المنتجة. والتوجه إلى تحسين كفاءة الاستثمار والتشغيل والادارة لدى كل قطاع وبالاخص في المؤسسات التي تشكل نمط رأسمالية الدولة لكون هذه المؤسسات أكثر تعرضاً وميلاً إلى الركود والرتابة من غيرها بفعل آلية عمل الدولة والادارة الاقتصادية التي تتسم بضعف الدينامية واللامرونة في التجاوب مع متطلبات الاقتصاد بسرعة.

١٠ ـ يجب التخلص من النظرة التي تعتبر نمط رأسمالية الدولة هدفاً وخطوة نحو الاشتراكية أو على الأقل يجب عدم تحويله إلى صنم لا يجوز المساس به. فهذا النمط الانتقالي يجب ان يتغير تبع تغير الظروف التي يعمل فيها سواء من حيث الحجم أو المجالات التي يؤثر فيها. ومن هنا ضرورة اعتماد الدراسات والمعطيات المتحققة والتنبؤ بالآفاق لرسم السياسة التي تحدد تناسب هذا النمط مع الانماط الأخرى وعلاقاته ومجالاته. فقد تتطلب الظروف تقليص هذا النمط أو تغيير أشكاله أو توسيعه حتى إلى احتكار بعض القطاعات، ولو لفترة محددة. ان المنهج المطلوب باعتقادي يستند إلى الاستفادة القصوى من كلا شكلي الرأسمالية المتاحة حيث كلاهما ضروري ولكل منافعه الاقتصادية في مجالاته ولكن المهم الوصول إلى التناسبات الملائمة في كل فترة من فترات تطور الاقتصاد.

١١ ـ وفي هذا المجال يطرح نفسه موضوع التعامل مع الشركات المتعددة الجنسية والاحتكارات الرأسمالية بمختلف الصيغ (عقود المقاولة، الامتياز، المشروع الجاهز، التأجير) وكلها تدخل في إطار نمط رأسمالية الدولة. واعتقد ان الاستفادة من هذه الامكانيات ضرورية للعراق حالياً رغم ما تحمله من اضرار تتعلق بفقدانه لقسم من دخله القومي عبر تحويلات تلك الشركات. فمن خلال هذه الشركات لا يحصل العراق فقط

على الاموال اللازمة لتمويل مشاريعه المتعاقد عليها بل ان هذه الشركات تساهم في نشاطها هذا ببناء قاعدة اقتصادية متينة تستند إلى خبرة متقدمة في الادارة والتنظيم والتكنولوجيا المتقدمة وبالتالي توفير الاجواء والمستلزمات لتطوير القوى المنتجة العراقية لتصل إلى المستوى العالمي، اذن فالموضوع لا يتعلق بالاستفادة من هذه الشركات أم لا. باعتقادي، بل، يتعلق بالوصول إلى أفضل الشروط لصالح العراق عند ابرام العقود. وهنا يلعب دوراً هاماً موضوعياً تزايد تدويل السوق العالمي أي الدرجة التي تمكن من القول انه يستحيل على بلد أي كان ان يواصل تقدمه الاقتصادي بمعزل عن البلدان الاخرى. واقامة العلاقات معها.

١٢ ـ وان يستمر الاعتماد على التخطيط الاقتصادي للمزايا التي يمتلكها في تحديد التناسبات واستخلاص المقارنات بين المتحقق والمخطط. ولكن يجب الاستفادة من خبرة سنوات التخطيط السابقة في العراق وغيره وباتجاه تقليص الشمولية المركزية فيه وان لا يتحول التخطيط إلى كابح لديناميكية الاقتصاد وللنمو. فالتخطيط يمكن ان يكون أداة فعالة في مكافحة مظاهر الركود اذا أحسن استخدامه ولم يجر تحويله إلى مؤشرات صنمية.

١٣ ـ وأخيراً ونتيجة لما عانته منطقة كردستان من ويلات الحرب والاقتتال اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً يجب ان يتضمن منهج دولة البديل الديمقراطي برامج جدية ملموسة لازالة آثار تلك الممارسات على كل الاصعدة واحداث تنمية في هذه المنطقة تنسجم وحقوق هذا الشعب العادلة ومع احداث التنمية المتوازنة جغرافياً في العراق ويتم هذا بتخصيص المبالغ الاستثنائية وتوجيه الطاقات الملائمة لاحداث نقلة نوعية في اقتصاد كردستان وحياة شعبها باتجاه التقدم الاجتماعي والسلم. وعلى أساس الدمقراطية الحقيقية وبمساهمة ممثلي الشعب الكردي الجدية في رسم تلك البرامج وتنفيذها.



الوعي الايديولوجي للوحدة والافتراق في تقاليد العلم المللي النحلي الاسلامي

د. ميثم الجنابي

من الصعب التحديد الدقيق لزمن ظهور الاحاديث المنسوبة للنبي محمد حول افتراق الأمة إلى نيف وسبعين فرقة. فهو عادة ما يرتبط باسانيد مختلفة إلى شخصيات شهيرة في تاريخ الاسلام.

إلا ان هذه المقدمة الفكرية المقدسة، التي صاغها تطور الصراع الفكري والسياسي، لم تحصل على اعتراف كلي بها من ممثلي «العلوم الاسلامية»، بما في ذلك العلم المللي النحلي الاسلامي.

سوف لن نستفيض في تدقيق الحدث التاريخي الذي أثار امكانية البلورة الحديثية لما يسمى بانقسام الأمة إلى فرق عديدة. إلا ان ما لا يمكن تحديده زمنياً بدقة، وما يصعب ربطه بحادثة تاريخية ملموسة، يكشف من جهة أخرى، عن واقع تحجّره المبطّن في الوعي الثقافي الذي ما أن يبرز إلى السطح، حتى يطفح بصيغ متباينة، وذلك بفعل تباين الفرق والاتجاهات التي تمتثله والتي تنفث كل منها فيه «روحها الخاصة».

فاذا كنا الآن نستطيع، بمساعدة تاريخ الفكر الاجتماعي والسياسي المصاغ في تقاليد العلم المللي النحلي الاسلامي، ان نحدد بدقة بالغة تسميات الفرق واتجاهاتها وأسباب ظهورها وانقساماتها، فليس ذلك لأنها كانت فعلاً تاريخياً ـ فكرياً منصرماً، بل لأنها ارتبطت، على الدوام، بقوى وحّدت في ذاتها سياسية الفكرة، وفكرية السياسة، تاريخية الرمز ورمزية الفعل، كما هو الحال بالنسبة للخوارج والمعتزلة وغيرهم من فرق

الاسلام الكبرى. إلا ان ادراك أسباب ظهور الحركات وانقساماتها لا يندرج في سياسية أو فكرية أو رمزية الاتجاهات وأفعالها، بل في وحدتها التاريخية (أي الفكري والسياسي والرمزي).

فالوحدة التاريخية للفعل السياسي، ورمزيته الفكرية (الاجتماعية ـ النفسية)، وفكريته العقائدية هي التي تُبلور امكانية تزايد وتعمق عناصر الوعي غير المباشر والتجريدي، الباحث عن الاسباب وترابطها التاريخي. وفي هذه العملية تتكشف الصلات الخفية والدقيقة لثقافة العصر في صراعها. واذا كان الحديث المنسوب إلى النبي محمد القائل بانقسام الأمة إلى نيف وسبعين فرقة من بين أكثر الاحاديث بروزاً، فليس ذلك إلا لكونه وحّد في صيغه المختلفة تعمّق ظاهرة الانقسام. وقد انعكس في هذه الظاهرة كل من حكم الاشارة، والادانة العقائدية، والعقائدية اللاهوتية، واللاهوتية الايديولوجية.

فلو ادرجنا الاحاديث العديدة من حيث صياغاتها المختلفة في تعبيريتها، المتشابهة في منطلقاتها الاولية، فانها لا تتعدى الاحاديث الاربعة التالية:

الأول: «افترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنين وسبعين فرقة وتفترق امتي على ثلاث وسبعين فرقة»،

الثاني: «ان بني اسرائيل افترقت على احدى وسبعين فرقة وان امتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة»،

الثالث: «ليأتيّن على امتي ما أتى على بني اسرائيل، تفرّق بنو اسرائيل على اثنتين وسبعين ملة، وستفترق امتي على ثلاث وسبعين ملة تزيد عليهم ملة، كلهم في النار إلا ملة واحدة. قالوا: يارسول الله وما الملة التي تتغلب؟ قال: ما أنا عليه واصحابي»،

الرابع: فهو الذي يضيف المجوس، بالصيغة التي يتسلسل فيها انقسام «الامم» بالشكل التالي: «المجوس على سبعين فرقة واليهود على احدى وسبعين فرقة والنصارى على اثنتين وسبعين فرقة، بينما ستفترق أمة الاسلام على «ثلاث وسبعين فرقة، الناجية منها واحدة والباقون هلكى. قيل: ومن الناجية؟ قال: أهل السنة والجماعة. قيل: وما السنة والجماعة؟ قال: ما أنا عليه اليوم واصحابي».

مما سبق يبدو واضحاً التباين والاختلاف والتراكم في صيغ الحديث. إلا ان كل ذلك يعكس ايضاً ويعبّر عن وحدة الحديث في تطوره، أي انه يعكس العملية التاريخية لتطور الصراع الفكري، التي سبق وان أشرنا اليها بتراتبية حكم الاشارة والادانة العقائدية، والعقائدية اللاهوتية، واللاهوتية الايديولوجية. أو ما يمكن ان ندعوه بالتاريخية الموضوعية في تطور فكرة الحديث خارج استعماله وتطبيقه «المنهجي» في العلم المللي النحلي الاسلامي.

فالتباين في صيغ الحديث ليس نتاجاً لتباين السلسلة الاسنادية بل لتباين المراحل التاريخية. فاذا كان الشكل الاول للحديث لا يعكس في اتجاهيته العامة والظاهرية سوى حكم الاشارة إلى واقع الافتراق، وبالتالي طابعه الحيادي، فان الشكل الثاني للحديث يركّز على مفهوم الادانة «كلها في النار» والعقائدية (الجماعة). بينما تعمّق وتحديد العقائدية (الجماعة - ما أنا عليه واصحابي) إلى الدرجة التي أخذت تتسامى إلى عالم اللاهوت الجبري، بحيث اصبح مسار التطور التاريخي الانقسامي واقعاً حتمياً. هذا يعني ان الانقسام لابد آت إلى الامة المحمدية شان «الأمم» السالفة. في حين ادرج الحديث الرابع في بوتقته العقائدية كل الاديان الفاعلة آنذاك، ولكنه رمى بها جانباً أمام اللاهوت المؤدلج (فكرة الفرقة الناجية).

إلا ان هذه اللوحة «المنطقية» تعكس في تجريديتها، تاريخية الظاهرة. اننا نستطيع ان نتتبع بوضوح تاريخية الحديث، ومن خلال ذلك ابراز العناصر المتراكمة فيه، ومن ثم تطبيقه اللاحق، أي كل ما ساهم بصورة فعالة في بلورة تقاليد التصنيف والتقييم في مؤلفات الملل والنحل الاسلامية.

فالمشترك في صيغ الحديث المتباينة، هو فكرة الانقسام والافتراق. ولا ينبغي النظر إلى هذه الظاهرة خارج إطار الافتراق الفعلي في الأمة الاسلامية الاولى. وبالتالي ليس الحديث إلا نتاج مرحلة متأخرة نسبياً من «تقاليد» الفِرقة.

فالقرآن شدد على ضرورة الوحدة والاعتصام بحبل الله، ورفض التفرق باعتباره من عالم الجاهلية. وبالتالي فانه مما لا مبرر له رفع حتمية الانقسام إلى مستوى الضرورة، كما هو جلي في الاحاديث[1]. فالحديث الاول الحيادي الطابع في اشارته إلى افتراق اليهود ثم النصارى ثم المسلمين، لم يشر إلا إلى انقسام لم يفصح عن ماهية توجهه. بل ان صيغته العامة قد توحي أيضاً حتى بافضلية الانقسام، مازال يمتلك في اشارته للاسلام زيادة في عدد فرقه، رغم ان الوعي الاسلامي آنذاك لم يكن يجهل كون زيادة الانقسام هو زيادة الصراع والفرقة. واذا كانت هذه الزيادة قد تطابقت مع العدد الآنف الذكر فلأنها، فيما يبدو، كانت مرتبطة بهولة الصراعات والانقسامات الدرامية في كيان الأمة الاسلامية الناشئة.

فالوعي التاريخي واللاهوتي الاسلامي لم تتح له آنذاك، بعد، فرصة طويلة لتأمل ابداعه الخاص. لقد وجد نفسه في خضم المعارك الدموية التي انتجت قوته الاتهامية والتقييمية، دون ان تعطي له فرصة التأمل البارد. ومن العبث الآن البحث في هذه الظاهرة عن نقيضة، فما زال التاريخ المنصرم لا يخضع بحد ذاته إلا لامكانية الفهم والتحليل. ولهذا لم تعن سرعة الاتهام والتقييم فيه سوى تعبير عن ديناميكية الصراع الاجتماعي. إلا

ان هذه السرعة خلقت في الوقت نفسه النماذج العديدة لفهم حقيقة وبواعث الانقسامات وتقييمها. فاذا كان التراث الحديثي يمتلك الكثير مما يمكن ادراجه فيما بين معارض ومؤيد للانقسامات الفكرية والاجتماعية مثل «افتراق امتي رحمة» و «لا تجتمع امتي على ضلالة» و «لا تزال طائفة من امتي ظاهرين على الحق إلى يوم القيامة» وغيرها، فانه لم يكن في الواقع، إلا اسلوب استيعاب الظواهر الانقسامية، واضفاء طابع القدسية عليها.

فالاحاديث الآنفة الذكر، تمتلك من القوة التحليلية والتقييمية ما يمكن الجزم معها، بانـه لم يكن بالامكان صياغتها بالشكل الآنف الذكر دون صيرورة المقدمات العريضة والمتباينـة والمتناقضـة، بحيث اصبح من الممكن خلق ذلك التآلف الفكري الدقيق لـ «التقييم الحديثي» ولا يشكل حديث افتراق الامة إلى ثلاثة وسبعين فرقة شذوذاً عن هذه العملية. على العكس، انه تكوّن في خضم الصراع الفكري ومن خلاله «كمياً» و «نوعياً».

فارتباط عدد الفرق فيما بين السبعين والثلاث والسبعين لا ينبغي النظر اليه، من الناحية التاريخية، سوى كونه الحصيلة التجريدية لكمية الصراعات والفرق المنشقة في الامة الاسلامية. وهذا ما ستدركه تقاليد الملل والنحل الاسلامية، على الأقل في تلك المحاولات الاولية لكشف الاسباب القائمة وراء الفرقة وبواعث الاختلافات والانقسام. ومن الممكن ان نتخذ من مقتل عثمان بن عفان (٣٥ هـ) بداية أولية شكلت من حيث موقعها وفعاليتها الاجتما ـ سياسية، حافزاً هائلاً في تثوير نوعية الانقسام الفكري الممكن في تاريخ الخلافة. اذ انه أعطى للانقسام السياسي شرعيته اللاحقة في فكرة «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»، والتي لم تعن من حيث مضمونها العملي والفكري، سوى تبرير وتقديس الانشقاق الدائم باسم المبدأ المطلق، الذي يتطابق في بعض جوانبه مع فكرة الفرقة الناجية. إلا ان هذا المبدأ الذي عمم، في ذاته، انقسامات الأمة، شأن كل ظاهرة اجتماعية تاريخية، كان لابد وان ينتج نقيضه القائل بضرورة اطاعة الامام فاضلاً كان أم فاجراً. وقد ولّد ذلك كله في وحدته الصراعية ديناميكية البحث عن الشمولية الاوسع في ميادين البحث المختلفة، أي انه وجد لنفسه الطريق في الفقه والكلام، الحديث والتفسير، الفلسفة والتصوف. . . الخ. باختصار، في كل ما يمت بصلة للتجريد المتعمق في مجرى الممارسة الاجتماعية. وهذا ما تكشفه بدقة بالغة ظاهرة تباين واختلاف صيغ الحديث. ففي الوقت الذي شدّد على ظاهرة الانقسام الفعلية في الأمة الاسلامية، فانه تضمّن على الدوام رؤية مثيلها في التاريخ السالف. وليس اعتباطاً ان تتواجد اليهودية والنصرانية ولاحقاً المجوسية في أفق الرؤية التاريخية والتقييمية لانقسامات الامة الاسلامية. أي انه تضمّن درجات المقارنة والادانة الأولية. وفي هذه المقارنة والادانة أخذت تتبلور عناصر البديل الايديولوجي ـ الفكري.

انهـا العملية التي بلورها قرن من الصراع السياسي، الذي تتوج بسقوط الخلافة الامـوية وظهـور العبـاسية كاستمـراريتها الضرورية ونفيها «الشرعي». فالخلافة الاموية عمقت الصراع الفكري على أساس السياسي، بينما العباسية عمقّت السياسي على أساس الفكري. وليست هذه المعادلة مجرد انقلاب الموازين والمعايير في وعي وممارسة القوى الاجتماعية والفكرية السلطوية والمعارضة، بقدر ما هي تعكس عملية الوحدة المتناقضة في التطور الحضاري ذاته. اذ ليست مقاييس الوعي السياسي سوى منظوميتها الفكرية. وما كان بامكان الاخيرة ان تظهر في بداية الأمر إلا كرد فعل. فما زالت الدولة لم تتكامل بعـد كقـوة مغتربة فوق الجميع ومع الجميع، بالضد منهم ومع مصالحهم. إلا ان هذه الجوانب المتباينة والمتناقضة في صيرورة الدولة ومؤسساتها هي العملية الطبيعية التي تفرز في وعي القوى المتصارعة ضرورة البرهنة عليها. فالدولة الاموية لم تكن بهذا الاطار سوى المقدمة التاريخية في حركيتها الاولية. ولهذا السبب كان لابد لها من ان تفرز عناصر وعيها الذاتي. فهي لم تبدع اسلوب الدفاع عنها في ميدان الشعر والأدب، بل وفي قوة القمع السياسي وتحريضية الفكرة الجبرية. ولهذا كان من الصعب جداً، فيما يبدو، ان تظهر فكرة انقسام الامة إلى الفرق السبعين ونيف. اذ كان ذلك يستلزم على الأقل ظهور الكمية العددية الواضحة للعيان والجلية، التي كان معها من الممكن الاقرار أو الاعتراف برقم مقبول لا يثير الشك والجدل.

لقد أفرزت المرحلة الاموية، دون شك، أكثر من هذا العدد، من حيث تشعبات الفـرق، وأقـل منـه، من حيث استتبـابها التنظيمي والفكري. وعمّقت المرحلة الاموية عقائدية الصراع المذهبية دون ان تفسح له مهمة التكامل المعرفي. ولم يتحدد ذلك بطابع الصراع السياسي للقوى فحسب، بل وبسرعة الانتصارات العسكرية التي اسكرت العاطفة وابعدت العقل عن وحدة ما يجري وكليته. وفي أفضل الاحوال لم يجر النظر إلى التاريخ آنذاك سوى كونه برهاناً لا يمكن دحضه على قوة الاسلام ووحدته.

بصيغـة أخـرى، لم يفسـح المجـال، بعد، لأن تحصل فكرة انقسام الأمة على استقلالها الذاتي. ولهذا السبب لم تظهر إلى السطح لا مثالية السلف الاجتماعية ولا قوّتهم المعـرفية، أي لا موقعهم الاجتمـاعي في وعي الـذاكرة التاريخية ولا موقعهم المعرفي كحـاملي اليقين الاخلاقي. فقد اشترك في غمار المعركة من كان بالامس في تاريخيته سلفـاً. ولهـذا كان من الممكن ان تقتـل الصحابة والتابعين كمناهضين معاصرين، أو خارجين مارقين أو فاسقين كفاراً، أي شأن كل التاريخ السياسي في مراحل الصراع. ولهذا كان من الصعب على ممثلي السلطة الاموية ان يرفعوا شعار السنة والجماعة. فالخلافة الاموية لم تكن بحاجة إلى سنّة. إلا انها جمعّت امكانية الاحتجاج الفكري من خلاف

افـرازه سياسياً، بينمـا عمقّت الـدولـة العبـاسية، باعتبـارها الاستمرارية الطبيعية للدولة الاموية، امكانية الاحتجاج الفكري على أساس تهميشه السياسي. أو بصيغة أخرى، انها خلقت وحدة سياسية ـ اقتصادية جديدة قوية فسحت المجال أمام تعبيرها في معترك الفكر. وهذا ما أدى بدوره إلى ظهور فكرة الجماعة داخل الافتراق والسنّة داخل الانحراف. أي ذلك الواقع الذي حصل على تعبيره الخاص في الحديثين الثالث والرابع خصوصاً.

فمن بين ممثلي تقاليد الملل والنحل الاسلامية الاوائل، الذين أشاروا إلى الطابع الايديولوجي لفكرة الجماعة والسنّة، هو الحسن بن موسى النوبختي (ت ـ في نهاية الربع الاول من القـرن الثـالث الهجري). فبعد ان استعرض آراء الكثير من الفرق، باستثناء الشيعة، أكد على ان كل هذه الصنوف «من أهل الارجاء والخوارج وغيرهم مختلفون فيما بينهم، ويؤثمون بعضهم على بعض في الإمامة والاحكام والفتوى والتوحيد وجميع فنون الدين. ينكر بعضهم من بعض ويكفّر بعضهم بعضا. أكثر ما عندهم ان سمّوا انفسهم، على اختلاف مذاهبهم، الجماعة، يعنون بذلك انهم يجتمعون على ولاية من وليّهم من الولاة براً كان أو فاجراً. فتسّموا بالجماعة على غير معنى الاجتماع على دين، بل صحيح معناهم معنى الافتراق»[1]. وفيما لو تأملنا كتابات القرنين الثاني ـ الثالث الهجريين، التي ارخّت، بهـذا القـدر أو ذاك، لقضية الاختـلاف في الأمـة، فاننا سنلاحظ غياب فكرة الانقسـام وحتميتـه، دع عنـك مسـألة تحديد الفرق وترقيم تعدادها. فابن هشام (ت ـ ٢١٣ هـ) في خاتمة (السيرة النبوية) يفرد مقطعاً صغيراً بعنوان (افتتان المسلمين بعد موته) (أي النبي محمد)، وفي هذا المقطع لا نعثر إلا على ترديدة لكلمات عائشة القائلة بأنه لما توفي النبي ارتد العرب واشرأبت اليهودية والنصرانية ونجم النفاق وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية[2]. اننا نعثر ههنا على العناصر الاولية التي ستصاغ وتدمج في فكرة الحديث الآنف الذكر. وهنا تجدر الاشارة إلى ان الكلمات المنسوبة إلى عائشة، بغض النـظر عمـا اذا كانت هي قائلتهـا، انما تعكس ما جرى تاريخياً، حتى في حالة افتراض الدافع «السنّي» التبريري لخلافة ابي بكر. ذلك يعني بأن حديث انقسام الفرق، لم يستند بالضرورة إلى العناصر الواردة في الكلمات المنسوبة لعائشة، بقدر ما يعكس كلاهمـا ويعبران عن عملية طويلة من اعادة النظر في التاريخ المنصرم في ضوء صراع القوى. ففي هذا الصراع، جرت استعادة النظر بالتاريخ السالف والبحث فيه عن عناصر التأييد «الروحية» للقوى المحتربة. فتعمق الصراع، خصوصاً في مراحل ازماته الحادة، عادة ما يستفز ويستثير فكرة الرجوع للماضي[3].

ان التباين الداخلي لهذه العملية المعقّدة مرتبط بتباين القوى الاجتماعية وتقاليدها الفكرية والاهداف الآنية والبعيدة المدى لاطروحاتها. إلا ان ذلك لا يعيق امكانية انطلاقها

جميعاً من مقدمة فكرية واحدة، ولتكن مختلقة أو موضوعة، مازالت تتضمن في ايديولوجيتها رصيد التأييد الشخصي والتمثيلية الخاصة. ولعل حديث انقسام الأمة والفرقة الناجية، هو الذي شكل في الوعي الانقسامي والوحدوي بديهية الادلجة وتمثيلية الذات.

ان دخول الحديث ميدان الايديولوجيا قد حوّله إلى قوة سياسية كامنة. ولم يتحول إلى قوة سياسية فعالة إلا بعد ان أخذت تتعمق فيه عناصر اللاهوتية. وليست اللاهوتية ههنا سوى الافق النظري الأكثر واقعية في ثقافة المرحلة. وهذا ما يمكن ان تعكسه لنا تصورات المعتزلة وموقفها من الحديث. اذ، بغضّ النظر عن نزعة الحديث الجبرية في تاريخيته اللاهوتية (خصوصاً في صياغاته الاخيرة)، فانه لم يمنع اتباعها من علماء الملل والنحل كالقاضي عبد الجبار (ت ـ ٤١٥/ ٤١٦ هـ) وابن المرتضى (ت ـ ٨٤٠ هـ) من اعتناق الحديث والاقرار به.

غير ان هذا الواقع لا يكشف إلا عن الجانب العام المرتبط بتطور تقاليد استعمال الدين ودخوله الوعي الايديولوجي، الذي حوّله إلى قوة سياسية. وفي مجرى تطورها تحولت هذه القوة السياسية إلى بديهية فكرية، أو مقدمة نظرية، بالارتباط مع الصيغة التي يوظّف فيها هذا المؤرخ أو ذاك، من مؤرخي العلم المللي النحلي، الحديث في منظومته التصنيفية والتقييمية. اضافة لذلك، تكشف هذه الظاهرة أيضاً حقيقة تمايز وتطور الحديث من جهة، واستعماله من جهة أخرى. ففي الحالة الاولى، نتعامل مع ظاهرة فكرية ـ سياسية تتضمن عناصر التقييم الاولية، وفي الحالة الثانية نتعامل مع منظومة تقييمية تتضمن عناصر الفكر الفلسفي واللاهوتي والسياسي.

ففعالية الحديث الفكرية بدأت تبرز بعد ان امتلك قيمة فكرية قائمة بحد ذاتها. وهذا ما يبرز في مبدأ الاستشهاد الدائم به حال التعامل مع واقع الانقسامات الفعلية في المدارس والاتجاهات الاسلامية. وقد حوله هذا الاستعمال الدائم في ميدان الاتهام السياسي الفكري إلى بديهية سياسية ـ فكرية لم تعد، بحد ذاتها، تخضع إلى جدل بقدر ما اصبحت حقيقة معترف بها، رغم غياب الاقرار المطلق بها من قبل الجميع. إلا انه حتى في حالة رفض الاعتراف بصحة الحديث، كما هو الحال عند ابن حزم (ت ـ ٤٥٦ هـ)، فان فعاليته ظلت قائمة في تحديده، وتصنيفه للفرق على أساس ما أسماه بالقرب والبعد عن السنّة.

ولا يمكن اغفال ما في هذا الاستعمال من واقعية التأثير الخفي لتقليدية الوعي وتقاليد السياسية. إلا ان هذا الاطار العام الخارجي، والمهم في الوقت نفسه، للظاهرة ليس إلا التعبير الذي أفرزته ثقافة الخلافة وصراعاتها الفكرية ـ السياسية بفعل ما للقرآن والسنّة من طابع مصدري في وعيها الاجتماعي. أي اننا نتوصل من جديد، بغض النظر

عن تبـاين طرق فحص المـادة في جوانبها ومستوياتها العديدة، إلى الذروة التي بلغتها الصراعات الفكرية ـ والسياسية والمذهبية في وحدة اللاهوتي ـ المذهبي ـ السياسي. وفي هذا كمنت الفعـالية الفكرية ـ السياسية تاريخياً، للحديث وعناصر المحافظة فيه. وقد تضمن ذلـك بحـد ذاته تناقضات فعالة في تثوير الوعي الاجتماعي والسياسي، وتعميق عناصر التقييم في ميدان الدراسات المللية النحلية الاسلامية، ولكنه في الوقت نفسه كبح من جماحها العقلي بفعل تقنيته الحدودية الصارمة.

* * *

الهوامش

(١) من الممكن دون شك الاعتـراض على هذا الاستنتـاج من وجهة النظر المنطقية الشكلية، باعتباره استنتاجاً يعتقد الضرورة اللازمة. إلا ان هذا الاعتراض هو من نصيب الجدل الفكري لا من واقعيته في منظومة الاحكام اليقينية للاسلام المحمدي. اضافة لذلك ان النبي محمد وآيات القرآن رفضت من حيث الجوهر كل تفريطات التنبؤ اليقيني.

(١) النوبختي: فرق الشيعة، النجف، المطبعة الحيدرية ١٣٥٥/١٩٣٩

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، بيروت، دار الجيل، تقديم وتعليق طه عبد الرؤوف (ب. ت) ج٤، ص ٢٣١.

(٣) ان الرجوع للماضي ليس نتاجاً لعمق الذاكرة التاريخية، بقدر ما هو اسلوب العلاقة الخفية بين الثابت والمتحول، القائم والمنصرم، المطلق والنسبي في الوجود الاجتماعي والوعي. إلا ان مراحل الأزمات عادة ما تعطي لهذا الرجوع صيغته الايديولوجية. وفي هذا المجال تختلف، دون شك، عوالم السياسة والايديولـوجيا والعلم. فالسياسة والايديولوجيا لهما مبرارتهما واسلوبهما واهدافهما الخاصة. أي ان عملية الرجوع بالنسبة لهما مادة ووسيلة الصراع العملي، بينما في العلم هي المادة والمقدمة المنفية في استمرارية الابداع الفكري. إلا ان ذلك لا يعني تنافي هذين الجانبين، بقدر ما يعكس تداخلهما من خلال التأثير المتبادل فيما بينهما. وهذا ما سنعثر على بعض تجلياته في تقاليد الملل والنحل الاسلامية.



عن اطلاق الرأسمالية في الوطن العربي*

د. نادر فرجاني

اولاً : في مجال النظر، والقصد، والسبيل اليه

ثمة أمور ينظر فيها المرء فينتهي، حكماً، إلى ما وراءها. وموضوع القطاع العام والخاص، في الحقبة الراهنة من تطور الوطن العربي، هو من صنف هذه الأمور.

وأياً كان المنحى، فلمناقشة دور القطاعين، والعلاقة بينهما، تداعيات مجتمعية كلية. فالأمر المطروح على بساط البحث يمتد، تلقائياً، إلى طبيعة التشكيلة الاجتماعية برمتها.

فالدعوة إلى تحجيم القطاع العام، بل وبيعه للافراد، وإفساح المجال للقطاع الخاص في الوطن العربي، أو «الخاصخصة»، وإن أثارها البعض من منطلق تحسين الكفاءة الاقتصادية أو غيره، هذه الدعوى تستهدف، نهاية تحوير التشكيلة الاجتماعية بغرض الحد من ملكية الدولة، وإدارتها المباشرة، لقوى الانتاج، ومن ثم، إضعاف الوظيفة الاجتماعية للدولة في حماية جمهرة الناس، والتمهيد لنمط نمو رأسمالي مزعوم، وتعميق التبعية للغرب الرأسمالي.

ومن دلائل ان هذه الدعوة تبطن خلاف ما تظهر ان حجج انصار الخاصخصة بادية الوهن. فالكفاءة ليست حكراً على القطاع الخاص، وحلول رفع كفاءة القطاع العام في

الاقطار العربية، مع الحفاظ على وظيفته الاجتماعية المذكورة، دون قهر للقطاع الخاص، بادية للعيان، سواء عن طريق تعريض مشروعات القطاع العام للمنافسة، وتوفير استقلال نسبي للادارة فيها عن الحكومة على أسس اقتصادية، إلى غير ذلك.

كما أن كثيراً من المثالب التي تنسب إلى القطاع العام هو منها، بحد ذاته، براء. فإنشاء علاقة سببية بين وجود القطاع العام وغياب المشاركة مثلاً، هو أمر لا يقوم عليه دليل علمي. أما لوم القطاع العام على تفشي البطالة فيدخل في نطاق السخف الممجوج. حيث اتهم القطاع العام تكراراً، وبحق، بتغليب اعتبار التشغيل على اعتبار الانتاجية. وإن كان الحق يقتضي بيان أن هذا كان يتم في إطار السياسة الاقتصادية العامة للدولة. وفي النهاية، فإن جل سوءات القطاع العام في البلدان المتخلفة تعود إلى التنظيم الاجتماعي والسياسي المحيط به، والذي يحدد بيئة السياسات الاقتصادية للقطاع العام، بل ويضع قيوداً شديدة على حركة المجتمع ككل.

غير أن الموضوع ليس بهذه البساطة. فالأصل، بالطبع، أن الدولة عندما تمتلك، أو تدير مباشرة، تنوب عن الشعب بأن تسعى إلى مصلحته، وتكون مسؤولة أمامه، وإن أخفقت في نيابتها هذه، قام الشعب بتغييرها.

وعندي أن طبيعة الدولة القائمة في الوطن العربي تهدر مبدأ النيابة عن الشعب ككل يكاد يكون مطلقاً. ومن بين معالم إهدار الدولة القائمة لنيابتها. التهاون في صيانة وتطوير أحد أصول الامة الاساسية، ألا وهو القطاع العام، والحيلولة دون قيامه بوظيفته الاجتماعية التي أنشىء من أجلها، ثم التواطؤ في محاولة الاجهاز عليه. وتضفي هذه الاعتبارات على مفهوم ملكية الدولة، في الاطار السياسي الراهن، صبغة إشكالية. وبعبارة أخرى، يثار تساؤل هام عن جدوى القطاع العام، في تحقيق اغراضه، في ظل التنظيم الاقتصادي للدولة القائمة في الوطن العربي. على أية حال، يوصلنا النظر في دور القطاعين إلى جوهر البنية المجتمعية، والعملية السياسية في القلب منها. وفي العصر الحالي، لا يتسنى تخليص الموضوع المطروح من ابعاد دولية حاكمة، إن بسبب التبعية القوية للاقطار العربية لبلدان المركز الرأسمالي، أو بداع من اعتبار التغيرات الكبرى التي يمر بها العالم كله وتتصل بمسألة دور القطاعين في التنظيم الاجتماعي عامة.

غير أن اعتبار الابعاد الدولية للموضوع لا يعني التعميم المسطح الذي يلغي الفروق الجوهرية القائمة بين الوطن العربي ومناطق أخرى من العالم. بل، على العكس تماماً، يقوم المدخل السليم للبعد الدولي على تمثل موقع الوطن العربي من النظام الدولي المعاصر، وبخاصة تمايزاته في إطار هذا النظام.

كذلك تدخل دراسة الأمر من المنظور القومي اعتبارات فوق ـ قطرية ذات أهمية

خاصة. فالمستقبل في أرض العرب لا يحمل وعداً إلا من منطلق قومي. وعلى النقيض، لا يحمل استمرار منحى التجزئة إلا الوعيد. فالنظر في أمر القطاعين، العام والخاص، في الوطن العربي دون اعتبار للابعاد المجتمعية والقومية والدولية إذاً يكون مبتسراً وقاصراً.

ولكن ما هو القصد من طرح الموضوع؟ الاجابة على هذا السؤال مهمة في ذاتها، كما انها تُعين، اضافة، منهاج البحث.

وعندي ان القصد من البحث، في المنظور القومي، هو الاستنارة أولاً، ثم تبني موقف فكري يرمي إلى المساهمة في التوصل إلى غايات الامة في التحرير وتقرير المصير، والوحدة، والتنمية المستقلة، وصيانة الامن القومي. ومؤدّى هذه الاجابة إلى المعيار السياسي في الحكم على أي أمر في هذه المناقشة يتعين ان يكون المساهمة في تحقيق غايات الأمة ويسود هذا المعيار الكلي على أي معيار جزئي آخر، كما يُسقط تماماً أي معيار جزئي يتعارض معه. فعلى سبيل المثال، لا ريب في ان الكفاءة الاقتصادية، بالمعنى الضيق، أمر مرغوب، وشرط مهم في أي مشروع للتنمية ولكن إذا كان الحكم ان مقترحاً ما، يستهدف تعزيز الكفاءة، ولكن يتناقض مع المعيار الكلي، وجب إسقاط معيار الكفاءة في الحكم على هذا المقترح. وصار لزاماً البحث عن صياغة للكفاءة في إطار معيار غايات الأمة.

ويقتضي المنظور المستقبلي في وطن متخلف وتابع ومجزأ، البدء من الواقع المعاش، والتبصر بحركية المجتمعات العربية، في المحيط الدولي، وفي الأجل الطويل، وصولاً إلى غايات الأمة. وينفي هذا المنطق الاستغراق في الماضي، أو حتى في اللحظة الراهنة، وعلى وجه الخصوص، فإن الوقوف عند تعداد إنجازات الماضي يعيق الحركة إلى الامام.

نقطة البدء المناسبة للتدبر المستقبلي في تقديري هي الاعتراف بالازمة الحادة التي تنتاب عملية التنمية في الوطن العربي، وفي المركز منها الازمة السياسية المتمثلة، أساساً، في هيمنة نظم حكم قمعية وغير ممثلة، أخفقت في خلق مشروع للنهضة في الوطن العربي.

ودون الدخول في تفصيل لا يسمح به المقام، ادعي ان التمعن في مقارنة الوطن العربي بمجتمعات أخرى في العالم الثالث، كالهند مثلاً، تبين بجلاء مدى التخلف النسبي الذي يعانيه الوطن العربي، ناهيك عن التفكير في انجازات المجتمعات المصنعة، أو في آفاق تطور البشرية.

كذلك أرى ان إعمال منظور الأجل الطويل يظهر ان بعض مقترحات، تبدو براقة في الأجل القصير، قد تجر ويلات في منظور زمني أبعد. فانتهازية الأجل القصير لا تضع

مجتمعات على طريق النهضة، وتاريخ الوطن العربي الحديث مليء بالامثلة. ولنعتبر مثلاً مسألة الاستدانة، والوعود البراقة التي احاطت بها في الأجل القصير، والمأزق الأكبر الذي تمخضت عنه، وعندي أن الدعوة محل النظر، أي الخاصخصة، هي من هذا الصنف الذي يُغلب منظور الأجل القصير، إما عن ضيق أفق أو عن سوء نية.

ثانياً: في هوية الاقتصاد والمجتمع في الوطن العربي، وموقع الخاصخصة*

الاقتصادات العربية هي، لدرجة أو أخرى، اقتصادات «خليطة»، بمعنى انها تضم عناصر رأسمالية إلى جانب بعض أشكال التخطيط. وبعبارة أخرى، هي اقتصادات تعتمد على آلية السوق دون ان تكون طليقة، وإنما تضع عليها الدولة قيوداً تحد من حركتها الحرة. والهدف الاجتماعي لتدخل الدولة لفرض هذه القيود هو الحد من غلواء الرأسمالية حماية لمصالح جمهرة غير القادرين، وهم الغالبية الساحقة في مجتمعات العالم الثالث.

فالرأسمالية هي، في جوهرها، نظام لهيمنة طبقة ولاخضاع الجماهير يتم فيه تعلية السعي للقوة والسيطرة على صورة السعي لتراكم رأس المال، ويكون التعبير عن الخضوع فيه عن طريق قبول علاقات الملكية الخاصة وآلية السوق.

والقوة الاساسية المحركة للنظام الرأسمالي هي البحث عن الربح. وتتوقف عملية التراكم، الحيوية للنظام، على قدرة الطبقة الرأسمالية على استخلاص الربح. وتعتمد هذه القدرة على الشرعية الاجتماعية لحقوق ملكية وسائل الانتاج. وتتطلب هذه الحقوق تقسيم عمل تضافري بين مجال الأعمال والدولة، بحيث يصبح تراكم رأس المال هو المبدأ الناظم للحياة الاجتماعية والسياسية.

إن الرأسمالية لا تعني، على الاطلاق، غياب دور الدولة، ولكن ان تكون الدولة جهازاً لخدمة التطور الرأسمالي الذي تهيمن عليه الطبقة الرأسمالية. وعليه، فإن الدولة يمكن ان تكون غاية في السطوة في نسق رأسمالي، بل لابد وان تكون كذلك في ظروف العالم الثالث اليوم (انظر في شيلي تحت حكم بينوشيه مثلاً وغيرها).

ويضيق المجال هنا عن تفصيل آليات تراكم رأس المال الطليق وآثاره على العمل والاسواق والمجتمع. ولكن اكتفي بالاشارة إلى ان تراكم رأس المال عملية تستهدف تعظيم الربح الخاص، ولا تستهدف تعظيم الرفاه الاجتماعي، ويترتب عليها بالضرورة إهدار بشري ومادي، كما تدل على ذلك الخبرة التاريخية.

وتجدر كذلك ملاحظة ان التطور الرأسمالي في الغرب المصنع قد تم في ظروف تاريخية محددة، غير ممكنة حالياً، وبتكلفة اجتماعية هائلة على مدى أكثر من قرن من

الزمان قبل الوصول إلى مستويات الرفاه المادي السائدة في مجتمعاته . وكلنا عليم انه رغم ذلك الرفاه المادي ، فإن مجتمعات المركز الرأسمالي تزخر بسوءات اجتماعية واضحة .

كما ان الرأسمالية الطليقة قد انقرضت من مجتمعات المركز الرأسمالي ، بل ان مجتمعات الغرب التي يضرب بها المثل الآن هي تلك التي تمارس الدولة فيها دوراً قوياً يوصف بالاشتراكية ، ألا وهي المجتمعات الاسكندنافية .

والاستخلاص في اقتصاديات التنمية قديم ، ومستمر ، على انه لا يتوقع ان تؤدي آلية السوق الطليقة إلى نتائج مقبولة اجتماعياً في العالم الثالث . فلا يتوقع منها ان تنجح في انجاز تراكم رأسمالي يكفي للتشغيل الكامل لقوة العمل . ولا أن تؤدي إلى انتاج سلعي وخدمي كفيل باشباع الحاجات الاساسية للسكان . وبوجه عام تؤدي آليات السوق الحر إلى محاباة الاغنياء على حساب الفقراء . كما انها تقود إلى حالة من الاندماج التابع ، من موقع ضعيف ، في النظام الرأسمالي العالمي .

وبعبارة أخرى ، فإن آليات السوق لا يتوقع منها الوفاء بالمعيار الذي ارتضيناه للحكم على الأمور في هذه المناقشة . ولذلك تبلورت الحاجة إلى التخطيط والتدخل الحكومي خاصة في مجالات الاستثمار والتجارة الخارجية . والتقدير انه لكي يتم التدخل الحكومي بفعالية ونجاح في مجتمعات العالم الثالث ، فإن ذلك يقتضي تغييرات اجتماعية وسياسية بعيدة المدى ، لم تتحقق في كثير من المجتمعات التي تبنت نموذج الاقتصاد الخليط ، وافضى ذلك إلى اخفاقات عديدة نعرفها جميعاً .

ويتعين ان يكون واضحاً ان نموذج الاقتصاد الخليط لا يستبعد وجود قطاع خاص قوي ومنتج .

غير ان مجمل الاوضاع السائدة في العالم حالياً تدل على ان فرصة التراكم الرأسمالي الوطني الكبير في بلدان العالم الثالث ليست متاحة إلا عن طريق الدولة . وان رأس المال الخاص يميل ، بوجه عام ، إلى الانغماس في الاقتصاد «الهش» ، أي الساعي إلى الربح السريع أياً كان مصدره ذلك إن لم ينغمس في الاقتصاد «الاسود» وأن أقصى ما يمكن ان يقدمه رأس ا لمال الخاص في هذه البلدان هو الارتفاق بالشركات متعدية الجنسيات ، والانضواء تحت سوق المال العالمي .

ولنا في التجربة المصرية دليل قوي على ما سبق ، رغم كل ما قامت به الحكومة لتشجيع رأس المال الخاص منذ منتصف السبعينات ، بما يمكن معه القول إن القطاع الخاص ، شاملاً رأس المال العربي والاجنبي ، قد دُلل لأبعد مدى متصور ، بالتأكيد بالمقارنة بالقطاع العام ، وربما إلى حد الافساد . ومع ذلك فقد افرزت التجربة من الكوارث العديد ، ولم يساهم القطاع المدلل باضافة محسوسة في تطوير المقدرة الانتاجية

للاقتصاد المصري أو تشغيل القوى العاملة.

واذا وسعنا مجال النظر من الخاصخصة إلى مسألة الادماج في السوق الرأسمالي العالمي، وهي بيت القصيد، فليكن لنا في مصير «المعجزة» التركية عبرة. فسنوات النمو الاقتصادي السريع، مقاساً بالمقياس النقدي القاصر لمعدل نمو الناتج الاجمالي، قد ولّت.. مخلّفة وراءها ركاماً من المشكلات المجتمعية الهيكلية سوف يعاني منها الشعب التركي لسنوات، إن لم يكن لعقود. وستعني تباطؤ النمو الاقتصادي، حتى بالمفهوم الضيق الذي تعتمده دوائر المركز الرأسمالي، ناهيك عن التنمية بالمعنى الهيكلي الشامل.

وليست خبرة مصر منذ منتصف السبعينات بمختلفة جذرياً. ولكن المطلوب الآن، تحت دعوة الخاصخصة، تجرع جرعة اضخم من نفس الدواء المر، غير الواعد إلا بتفاقم المرض.

إن تمثل جوهر الرأسمالية، والخبرة التاريخية للتطور الرأسمالي في الغرب الرأسمالي وفي العالم الثالث على وجه الخصوص، ولطبيعة الدور الذي يمكن أن يقوم به رأس المال الخاص في مجتمعات العالم الثالث في نهايات القرن العشرين، وخبرة مصر تحديداً في العقدين الماضيين، كل هذا يدعونا إلى الحكم ان محاولة فرض نمط رأس المال على الاقطار العربية، من مدخل إطلاق الحريات لرأس المال الخاص ولقوى السوق، وهو ما تعنيه الخاصخصة نهاية، لا يمكن ان يترتب عليها إلا إفقار متزايد لجمهرة العرب، وزيادة فوارق الثروة والدخل في المجتمعات العربية، وتأصيل الفساد والطفيلية، وتعميق التبعية لرأس المال العالمي. وهذه كلها ظواهر شهدناها عياناً في كثير من المجتمعات العربية، وخاصة مصر، في العقدين الماضيين، وليست الخاصخصة إلا نتيجة منطقية لهذه الظواهر من ناحية، ومعجلاً لها من ناحية أخرى.

ولا يدعى عاقل ان تجربة الاقتصادات الخليطة، خلت من العيوب. أو ان التدخل الحكومي، والتخطيط، كانا خلوا من الاخطاء، خاصة في ظل حكومات من النوع القائم في الاقطار العربية. إلا ان مثالب البديل المتمثل في الخاصخصة، بما هي لابد جالبة من سوءات جسام للتطور الرأسمالي في مجتمعات متخلفة، تدعونا من منظور المعيار الذي ارتضينا، إلى التمسك بالدعوة إلى توفير متطلبات نموذج الاقتصاد الخليط من التغير الاجتماعي والسياسي، ومن ثم تصحيح اخطائه وزيادة كفاءته. غير أنه لا يتوقع ان يقود نموذج الاقتصاد الخليط إلى النتائج المتوخاة منه دون تغيير سياسي حاسم؛ كما تدل على ذلك خبرة الماضي القريب. وأرى في تأزم هذا التغيير السياسي المطلوب لب مأزق التنمية في الوطن العربي.

ولا يفوتني الاشارة إلى ان المناقشة السابقة قد ركزت على المنظور القطري. أما في المنظور القومي، فإن التحرك الجدي تجاه غايات الأمة في التحرير وتقرير المصير، وفي الوحدة، وفي التنمية المستقلة، وفي صيانة الامن القومي، يقتضي حركة جماهيرية وحدوية، ونخباً سياسية حاكمة تعبر عن هذه الحركة الجماهيرية. وكلا هذين الشرطين بحاجة إلى تبلور تاريخي.

ثالثاً: الخاصخصة قادمة

ليس تفضيل زمرة من المثقفين، لتغير اجتماعي ما، بحد ذاته شرطاً، أو ضماناً، لقيامه، مهما كانت وجاهة الرأي المسبب لهذا التفضيل. وإنما لكل تغير اجتماعي ظروف موضوعية لابد وان تتمخض عنها الحركة الاجتماعية كي يتحقق. ولا ريب ان الفكر يمكن ان يلعب دوراً في بلورة تفضيل اجتماعي معين. ولكن الفيصل في القيام هو توفر الشروط الموضوعية.

واخشى ان الشروط الموضوعة للخاصخصة قائمة إلى حد بعيد في الاقطار العربية. فالشعب والقوى السياسية المستنيرة مغيَّبة عن الفعل السياسي. والانظمة القائمة في البلدان العربية المستهدفة بالخاصخصة في المقام الأول ـ وأقصد تلك كبيرة الحجم التي تتمتع بقطاع عام كبير وذي وظيفة اجتماعية مهمة ـ تلك الانظمة إما مستدينة إلى حد الافلاس، أو تابعة إلى حد الانبطاح، أو كليهما، مهما كان الخطاب الرسمي الأجوف. والتنمية في أزمة طاحنة فيها كلها. كما قد نشأت، وترعرعت، في كنف الحكومات القائمة، وفي حضن الغرب الرأسمالي، قوى اجتماعية، ومؤثرة سياسياً، تدين بالخاصخصة. وأخيراً، فإن الموجة العالمية جارفة ووراءها قوى عاتية.

والواقع ان الخاصخصة معنا فعلاً. فرغم فقر معلوماتنا، يبدو ان العراق قد تفرَّد على صعيد الوطن العربي، وربما العالم الثالث، بأوسع حملة للخاصخصة، تم فيها «تفويت» عديد من مشروعات القطاع العام إلى فئة رأسمالية، ولا أقول برجوازية عمداً، تم خلقها في غضون اسابيع بقرار فوقي، وبأثمان بخسة، واطلقت يدها في العمال والاسعار، واضحى لها انعكاسات واضحة السوء على الاقتصاد والمجتمع، وقد تكون آثارها المستقبلية أفدح. يحدث هذا في العراق لا غيره، وله في التاريخ المعاصر ما له، فما بالك بما بقي؟

في مصر والجزائر، تتجمع سحب الخاصخصة في الأفق، وهي آتية بسبب توليفة العوامل سالفة الذكر.

ولا نرى في الخطاب الرسمي المؤيد للقطاع العام في سوريا حصانة من الخاصخصة، فلعل لعامل ازمة التنمية وزن أكبر في توليفة العوامل المعضدة للخاصخصة فيها.

أما الدول العربية الأخرى، فهي باستثناءات معدودة لا يقاس عليها، بين «مخاصخص» فعلاً أو ينتظر.

يحدث هذا في الاقطار العربية في حين تتراكم الكتابات التي تلقي الشكوك حول مصداقية الخاصخصة كحل سحري لرفع الكفاءة الاقتصادية، ليس فقط في العالم الثالث، بل حتى في الغرب الرأسمالي. ويحدث على الرغم من اعتبار خصوصية الوطن العربي يوجب التنبه لاخطار للخاصخصة لا تقوم في مجتمعات المركز الرأسمالية، كما يوجب التحفظ أكثر على جدواها في التوصل إلى غايات الأمة.

وبناء على ما سبق، أرى ان على المثقفين العرب، المتبنين لغايات الأمة، الاستعداد لمواجهة موجة من الخاصخصة في العقدين القادمين، بسلاحي البحث والفكر، والمساهمة في الفعل السياسي، بهدف الحد من غلواء هذه الموجة وتقصير اجلها ما أمكن.

عن (المستقبل العربي) ٨/ ١٩٩٠

* مداخلة قدمت في «الحوار المفتوح» في ندوة «القطاع العام والقطاع الخاص في الوطن العربي» التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، بالتعاون مع الصندوق العربي للانماء الاقتصادي والاجتماعي، في القاهرة خلال الفترة ١٤ ـ ١٧ أيار/ مايو ١٩٩٠.

* المقصود بالخاصخصة نقل ملكية مؤسسات الدولة إلى القطاع الخاص. ث. ج.



حقوق الانسان والنظام السياسي في العراق

د. حكمت ابو شهاب

«الانسان أثمن رأس مال»
كارل ماركس.

تمثلت نقطة البداية للاعتراف الجزئي بحقوق الانسان في انكلترا في اصدار بعض الوثائق القانونية وفقاً لقوانين مختلفة، مثل وثيقة «الماغناغارتا» عام ١٢١٥، وملتمس الحقوق الصادر عام ١٦٢٨، ووثيقة الحقوق التي صدرت عام ١٦٨٩، ولكن هذه الوثائق القانونية كانت تنظم بعض الاحكام ذات المضمون الدستوري المتعلقة بحقوق المواطن الانكليزي اضافةً إلى انها كانت متفرقة، لا تجمعها وثيقة قانونية واحدة.

وجاءت النقلة النوعية التي تحققت في الاعتراف الرسمي بحقوق الانسان مع استقلال الولايات المتحدة الامريكية عام ١٧٧٦، وصدور الدستور الامريكي عام ١٧٨٧، واندلاع الثورة الفرنسية في ١٤ تموز ١٧٨٩ تحت شعار الحرية والعدالة والمساواة، وشكّل انتصار تلك الثورة البرجوازية انعطافة كبرى في مجال التدوين الرسمي لحقوق الانسان. وتجسد ذلك في اعلان حقوق الانسان عام ١٧٩١، وهدفه الاساسي حماية المواطن من جور الحاكم. فلقد جاء في المادة السادسة عشرة من هذا الاعلان: «كل مجتمع لا تُقرر فيه ضمانات لحقوق الأفراد ولا يسود فيه مبدأ الفصل بين السلطات هو مجتمع ليس له دستور». وشكّل ذلك الاعلان انعطافاً في تكريس الأسس النظرية العامة لحقوق الانسان وحرياته. فلم يكتف رجال الثورة الفرنسية بالاعلان، وانما أكدوا في نفس الوقت على الحاجة إلى ضمان الحقوق والحريات عن طريق تنظيم المبادىء

الاساسية للدولة، وفي مقدمتها مبدأ السيادة الشعبية، أو كما يطلق عليه، مبدأ سيادة الأمة، ومبدأ الفصل بين السلطات، ويتضمن مبدأ سيادة الأمة ان الحكام هم نواب الشعب ويتولون مهامهم نيابة عنه لفترة محدودة وضمن صلاحيات مرسومة لا يجوز تجاوزها، ان الحكام وفقاً لهذا المبدأ هم مفوضو الشعب اذ «ليس في وسعهم ان يبتّوا نهائياً في شيء، كل قانون لم يوافق عليه الشعب يكون باطلاً، أي لا يكون قانوناً مطلقاً»(1). أما مبدأ فصل السلطات فيعتبر من الناحية التأريخية واحداً من أهم المبادىء الديمقراطية للثورة البرجوازية، كان الحكام والملوك في السابق يجمعون السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية للدولة دون حساب أو رقابة تذكر، فدعا هذا المبدأ إلى فصل هذه السلطات وأناطتها بثلاث هيئات قائمة بذاتها، بحيث تقوم كل سلطة بمراقبة السلطتين الأخريين، وتقديم حسابها أمامهما، «اذا ما اجتمعت السلطات الثلاث بيد شخص واحد أو السلطتين الاشتراعية والتنفيذية، فان ذلك يتطلب وسائل قاسية من أجل البقاء على الحكومة»(2).

مهما كانت أهمية الثورة الفرنسية، والثورات البرجوازية الأخرى في اوربا، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، إلا ان تلك الثورات، والانظمة السياسية التي تمخضت عنها، ظلت قاصرة عن تقديم الضمانات الكافية لممارسة الحقوق والحريات التي تمّ الاعلان عنها، وتدوينها في دساتير وقوانين البلدان المعنية، وذلك بسبب الطبيعة الطبقية الاستغلالية للرأسمالية، فتمركز الثروة بيد البرجوازية يؤدي إلى امتلاك القوة السياسية، وبالتالي لا يمكن الفصل فصلاً تاماً بين الديمقراطية السياسية والشرعية القانونية من جهة، وبين الديمقراطية الاقتصادية والاجتماعية من الجهة الأخرى، فبدون ازالة الاستغلال الطبقي يظل جوهر الديمقراطية منقوصاً. ان ازالة الاستغلال الطبقي في الاشتراكية يزيح العقبة الاجتماعية أمام الديمقراطية، والديمقراطية الاشتراكية تعني أول ما تعني اشراك ملايين الناس في ادارة الدولة والمجتمع مشاركة فعالة، فلقد أكد لينين على ان «الأمر الجوهري في سلطة السوفييت هو ان الأساس الدائم والوحيد لكل سلطة الدولة، لكل جهاز الدولة، هو ذلك التنظيم الواسع النطاق لتلك الطبقات بالضبط، التي كانت تضطهدها الرأسمالية... ان هذه الجماهير التي كانت مع تمتعها بالمساواة في الحقوق بموجب القانون، معزولة فعلاً، بألف مناورة، عن الاشتراك في الحياة السياسية، عن ممارسة الحقوق والحريات الديمقراطية حتى في أكثر الجمهوريات البرجوازية ديمقراطيةً، انما هي مدعوة الآن للاسهام بقسط دائم، الزامي، بل حاسم، في ادارة الدولة ادارة ديمقراطية»(3).

ومن جملة التشويهات التي رافقت بناء الاشتراكية، تخلفها بالقياس إلى الديمقراطية السياسية البرجوازية، ولكن السبب في ذلك لا يعود إلى الطبيعة الطبقية وجوهر النظام الاشتراكي بقدر ما يعود الأمر في ذلك إلى الاساليب الخاطئة في ادارة المجتمع(4). وفي

هذا الصدد يقول ميخائيل غورباتشوف: «ان الديمقراطية هي ذلك الهواء العليل الصافي الذي لا يمكن إلا فيه ان يحيا الكيان الاجتماعي الاشتراكي حياة زاخرة، ولهذا عندما نقول ان الامكانيات الضخمة للاشتراكية ليست مستخدمة عندنا بعد بالكامل فاننا نقصد بذلك أيضاً ان تسريع تطور المجتمع غير معقول وغير ممكن إلا بتطوير الديمقراطية الاشتراكية وجميع جوانبها ومظاهرها تطويراً أبعد مدى»(*).

وتدل التجربة العالمية على ان الديمقراطية الاقتصادية سرعان ما تتآكل بغياب الديمقراطية السياسية التي تضمن رقابة الشعب على اجهزة الدولة ومشاركته في رسم السياسة العامة، وخلافه سرعان ما تتنامى ظواهر الفساد والطفيلية وعدم الكفاءة في ظل الاجهزة البيروقراطية.

الاعلان العالمي لحقوق الانسان

شهدت البشرية خلال القرن الحالي عدداً من الحروب الاقليمية فضلاً عن الحربين العالميتين الأولى والثانية، التي ما زالت البشرية تعاني من الويلات والكوارث التي سببتها وذهب ضحيتها ٥٠ مليون قتيل و٣٥ مليون جريح ومعوق، ناهيك عن الخسائر المادية والآثار النفسية والخراب(٦).

واستخدمت أغلب الحكومات المشاركة في تلك الحرب أنواع العسف والقمع والارهاب ضد شعوبها تحت ذريعة الحفاظ على الجبهة الداخلية ومقاومة العدو الخارجي. وبعد هزيمة الفاشية وحلفائها في تلك الحرب المدمرة برزت ضرورة وضع حد لانتهاك حقوق الانسان وحرياته وصيانة كرامته، حيث كان واحداً من أهم العوامل لاصدار الاعلان العالمي لحقوق الانسان، هو انتعاش مبادىء الديمقراطية السياسية، نتيجة الحركة الجماهيرية العالمية المطالبة بصيانة حقوق الانسان وحرياته بعد الانتصار على الفاشية. وفي العاشر من شهر كانون الاول عام ١٩٤٨ أقرت الجمعية العامة للامم المتحدة وثيقة الاعلان العالمي لحقوق الانسان وجاء في مقدمة الاعلان التأكيد على ضرورة الاعتراف بكرامة الانسان المتأصلة في جميع الشعوب، وبالحقوق المتساوية والثابتة التي تعتبر أساس الحرية والعدل والمساواة في العالم. كما أشارت المقدمة إلى ان تناسي حقوق الانسان وازدراءها قد افضيا إلى أعمال همجية، وأكدت على ضرورة تولي القانون حماية حقوق الانسان حتى لا يضطر في آخر الأمر إلى التمرد على الاستبداد والظلم، وأشارت إلى مساواة النساء مع الرجال وان يكون لهن مالهم من حقوق في كافة المجالات، وطالبت المقدمة ان تسهر الاسرة الدولية على ضمان مراعاة حقوق الانسان والحريات الاساسية

واحترامها من قبل كافة الدول[٧].

ان مغزى الاعلان العالمي لحقوق الانسان يكمن في وضع وتدوين الاسس العامة للحقوق والحريات في وثائق دولية تقرّها الدول، وأبرز ما جاء في الاعلان العالمي كذلك هو التأكيد على الحق الطبيعي للشعوب والأمم كبيرها وصغيرها في النضال من أجل تلك الحقوق والحريات، الأمر الذي يعطي مشروعية للنضال بكافة السبل والاساليب من أجل تمتع الشعوب بحقوقها وحرياتها.

ويمكن تقسيم الحقوق والحريات التي تضمنها الاعلان العالمي إلى حقوق سياسية وحقوق عامة، فالحقوق السياسية، هي تلك الحقوق التي تُدعى عادةً بالحقوق الدستورية، مثل حق الانتخاب والترشيح وحق المشاركة في الاستفتاءات العامة حول المسائل التي تتعلق بمصائر البلاد، وحق تولي الوظائف من أجل المساهمة في ادارة وتوجيه الدولة[٨].
أما الحقوق العامة فهي تلك التي تتعلق بحق الانسان في الحياة والحريات المتعلقة بمبدأ شرعية الجرائم والعقوبات، وحرية الرأي والتفكير والعقيدة والضمير والاجتماع والتظاهر والانضمام إلى الجمعيات، والحق في التنقل والسفر من وإلى خارج البلاد، وسرية المراسلات، وحق العمل والضمان الاجتماعي والزواج، اضافة إلى العديد من الحقوق الخاصة مثل الحقوق المتعلقة بالاسرة، والحقوق المالية، وبراءة الاختراع وغيرها[٩].

النظام السياسي في العراق وحقوق الانسان

صادقت الحكومة العراقية عام ١٩٤٨ على الاعلان العالمي لحقوق الانسان، اضافة إلى الميثاق الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، والميثاق الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية لعام ١٩٦٦ وقد صادقت عليها الحكومة العراقية في ١٩٧١.

في هذا الجزء من المقال سوف نناقش مدى التزام الحكومة العراقية بالمواثيق الدولية لحقوق الانسان، ليس من خلال القوانين السائدة والقرارات التي يصدرها مجلس قيادة الثورة الذي يعتبر السلطة التشريعية العليا في البلاد فحسب، بل كذلك من خلال الممارسة اليومية لهذا النظام. ان تلك القوانين والقرارات تتناقض مع نصوص وجوهر المواثيق الدولية لحقوق الانسان، وتشكل خرقاً فظاً لحقوق الانسان فهي تمثل من الناحية العملية والقانونية شكلاً من أشكال تقنين القمع والارهاب في العراق، واضفاء صيغ قانونية مشروعة عليه، وبمعنى آخر اضفاء المشروعية القانونية على خرق المواثيق الدولية المتعلقة بحقوق الانسان.

لا مغالاة في القول ان النظام السياسي العراقي في طليعة الانظمة بالنسبة إلى غياب سيادة القانون، فالممارسات العملية اليومية للنظام تتنافى ليس فقط مع الاعلان العالمي لحقوق الانسان والمواثيق الدولية الأخرى بل حتى مع دستوره المؤقت باعتباره القانون الاساسي للدولة. ان السمة الاساسية لممارساته تكمن في الارهاب والديماغوجيا وتمجيد القوة والسلطة الفردية. سوف نورد نماذج من ممارساته القانونية، صحيح ان العراق هو البلد الوحيد في العالم الذي يحكم منذ أكثر من ثلاثين عاماً في ظل دساتير مؤقتة وظروف طارئة ومحاكم استثنائية وعسكرية، فبعد قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ صدر الدستور العراقي المؤقت في ٢٧ ـ ٧ ـ ١٩٥٨ وتمّ بموجبه الغاء القانون الأساسي للملكة العراقية. ولكن الملاحظ ان وتيرة القمع والارهاب في ظل انعدام الحريات الديمقراطية بدأت تتصاعد في العراق منذ انقلاب ١٧ ـ ٣٠ تموز ١٩٦٨ بشكل مخطط ومدروس، هذا في الوقت الذي نرى خلال الفترة نفسها كثيراً من الدول في العالم قامت باجراء وادخال تعديلات هامة على دساتيرها الدائمة بما ينسجم مع التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي لتلك البلدان، اضافة إلى جعل دساتيرها أكثر ملاءمةً مع جوهر العصر والمواثيق الدولية لحقوق الانسان، أما العراق فما زال يحكم بموجب دستور مؤقت لم تقره هيئة منتخبة، بل أصدره مجلس قيادة الثورة الذي يسيّره، عملياً، رئيس البلاد، وقام هذا المجلس باصدار المزيد من القوانين والقرارات التي توقع عقوبة الاعدام، فعلى سبيل المثال من شهر آذار ١٩٧٦ وحتى عام ١٩٨٧ أصدر المجلس ١٧ قراراً لها قوة القانون يجيز فيها عقوبة الاعدام، وذلك على ٢٩ نوعاً من الافعال المرتكبة[١٠]. والانكى من ذلك ان بعض القرارات تسري بأثر رجعي على الافعال المرتكبة قبل صدور القرار، الأمر الذي يتنافى مع الفقرة الثالثة من المادة ١١ للأعلان العالمي لحقوق الانسان التي تؤكد على «عدم جواز ادانة أي شخص من جراء إداء عمل أو الامتناع عن اداء عمل إلا اذا كان ذلك يعتبر جرماً وفقاً للقانون الوطني أو الدولي وقت الارتكاب...» اضافة إلى ذلك ان الدستور العراقي المؤقت نفسه يؤكد على عدم جواز تطبيق القوانين باثر رجعي[١١]. وفي هذا السياق، ماذا عن المكانة السياسية والقانونية التي تحتلها السلطات الثلاث في العراق؟

ينص الدستور على ان مجلس قيادة الثورة، هو السلطة التشريعية العليا في البلاد (المواد ٣٧ ـ ٤٥) علماً بان هذا المجلس يتألف في الوقت الحاضر، من سبعة اعضاء فقط بعد مقتل وزير الدفاع العراقي السابق في ربيع العام الماضي في حين يعتبر البرلمان على المستوى العالمي السلطة التشريعية العليا في البلاد تجسيداً لمبدأ سيادة الأمة فتنص كافة الدساتير في العالم، بغض النظر عن الانظمة السياسية والاجتماعية، على كون البرلمان السلطة التشريعية العليا في البلاد، باعتبار البرلمان منتخباً من قبل المواطنين البالغين سن

الرشد يوم الانتخاب. ان اناطة التشريع في العراق بمجلس غير منتخب تتنافى مع الاعلان العالمي لحقوق الانسان. فالفقرة الأولى والثالثة من المادة الحادية والعشرين أكدتا على ان ارادة الشعب هي مصدر سلطة الحكومة. ويُعبر عن هذه الارادة بانتخابات نزيهة ودورية تجري على أساس الاقتراع السري وعلى قدم المساواة بين الجميع أو حسب أي اجراء آخر مماثل يضمن حرية التصويت. لكن النظام العراقي ذهب أبعد من هذا الخرق فاصدر مجلس قيادة الثورة القرار رقم ٦٠ في ٤ ـ ٢ ـ ١٩٨٩ محدداً شروط ضمانات عضوية المجلس الوطني فجاء في الفقرة ج من المادة الأولى: «ان يكون مؤمناً بمبادىء واهداف ثورة ١٧ ـ ٣٠ تموز وان تكون مساهمته في المعركة المقدسة ضد العدوان الايراني سواء بالمشاركة أو التطوع أو التبرع في ميادين العمل والانتاج أو نتاجاته الفكرية والأدبية فعالة متميزة وتتناسب وقدراته وامكاناته وان يكون مؤمناً بان قادسية صدام قد عززت بالمجد هام العراق وانها الطريق الذي ليس سواه من طريق للحفاظ على العراق أرضاً ومياهاً وسماءً وأمناً ومقدسات.» ويتناقض هذا القرار مع نصوص الدستور العراقي المؤقت، الفصل الثاني من الباب الرابع ـ المواد ٤٧ ـ ٥٦ المتعلقة بالمجلس الوطني، وكيفية تشكيلية، كما يتناقض مع قانون المجلس الوطني نفسه المرقم ٥٥ لسنة ١٩٨٠، ناهيك عن كون القرار صادراً من هيئة غير منتخبة من مجلس قيادة الثورة، اضافة إلى ذلك فالقرار قابل للتفسير والتأويل بأكثر من معنى لأنه يفتقد إلى المقومات العلمية للقرار القانوني الذي يجب ان يتصف بالايجاز والوضوح والدقة، كما يفتقر القرار إلى المقومات التي تحدد شخصية المواطن الذي يشمله.

من الناحية السياسية فالقرار يمثل أولاً تحدياً لارادة اكثرية الشعب العراقي المعارضة للحرب، ويمثل ثانياً، ازدراءً واضحاً للمجتمع الدولي، ويمثل ثالثاً، استخفافاً بالرأي العام العربي والعالمي والمنظمات الانسانية العالمية الغير رسمية، ويعبر أخيراً بشكل واضح، عن الدعوة إلى الحرب وتمجيد القوة. ففي الوقت الذي ادان المجتمع الدولي بهيئاته ومنظماته الرسمية،والرأي العام العربي والعالمي والقوى الوطنية العراقية، الحرب، واعتبروها حرباً مجنونة وحرباً غير عادلة بما الحقته من الاضرار البشرية والمادية والاجتماعية وآثارها النفسية لكلا الشعبين العراقي والايراني، يذهب مجلس قيادة الثورة الذي يترأسه صدام ليؤكد في القرار المذكور الطبيعة العدوانية للنظام العراقي باللجوء إلى القوة في حل النزاعات الاقليمية والدولية، وهذا يتنافى مع ميثاق الامم المتحدة الذي يؤكد على عدم جواز اللجوء إلى القوة في حل النزاعات الاقليمية والدولية (المادة ٢ فقرة ٣، ميثاق الامم المتحدة). فاذا كانت صفة عضو المجلس الوطني بالمواصفات التي تضمنها القرار المذكور، اذن فأين يمكن ان نلتمس صدق الحكومة العراقية في الحديث به عن

الديمقراطية والتعددية الحزبية والسياسية في العراق؟! ان القوى الوطنية العراقية ادانت الحرب العراقية ـ الايرانية وطالبت منذ اليوم الأول بايقافها، هذا في الوقت الذي تعتبر مسألة ادانة الحرب والمطالبة بايقافها جريمة بالنسبة للنظام العراقي وتوقع عليها عقوبة الاعدام. ان المجلس الوطني في العراق واحد من المؤسسات التي اصطنعها النظام العراقي لأخفاء طابع المشروعية القانونية على حكمه وممارساته فضلاً عن خضوعه التام لمشيئة رئيسه. فبالرغم من مرور عشر سنوات على صدور قانون المجلس الوطني رقم ٥٥ لسنة ١٩٨٠ وانبثاق هذا المجلس، إلا انه لم يصدر لحد الآن دستوراً دائماً للبلاد، ولم يصدر أي قانون أو قرار تشم منه رائحة المعارضة لزعيم النظام ثم ان الدستور المؤقت لم يعطِ أي وصف للمجلس الوطني، أهذا المجلس هيئة تشريعية أم استشارية لمجلس قيادة الثورة؟ فقد أكتفى الدستور بالاشارة فقط إلى كيفية تشكيل المجلس ودورات انعقاده دون ان يحدد أو يشير إلى مكانته بين السلطات المركزية العليا لسلطة الدولة(١٢).

أما السلطة التنفيذية فتتمركز أساساً بيد رئيس الجمهورية الذي يشغل في نفس الوقت رئاسة الوزارة. فبالرغم من ان الدستور العراقي المؤقت يتحدث في المادة ٦١ عن مجلس الوزراء، إلا ان هذا المجلس لا وجود له في الواقع الفعلي، لكنَّ النظام العراقي نظامٌ رئاسي بفعل التصرفات اللاقانونية للرئيس العراقي المخالفة للدستور المؤقت.

ان السلطة التنفيذية في العراق لا تخضع في تشكيلها للسلطة التشريعية، غير الموجودة من الناحية العملية، وانما تخضع لرئيس الجمهورية، لأن كافة نواب الرئيس والوزراء ونوابهم يعتبرون مستشارين للرئيس، وهم ملزمون بتنفيذ سياسته، وللرئيس الحق في اقالة أي منهم من دون ان يأخذ موافقة أية جهة كانت، كما ان السلطة التنفيذية لا تقدم أي برنامج للتصديق عليه، وهي غير ملزمة بذلك من الناحية القانونية ونواب الرئيس والوزراء ووكلاؤهم غير مسؤولين إلا أمام الرئيس، فالوزارة لا تجتمع دورياً وليس لها أوقات محددة لعقد الاجتماعات، ولا يحق لأيٍّ من نواب الرئيس والوزراء ووكلائهم المطالبة بدعوة الوزارة للاجتماع، وفي أغلب الاحوال تقتصر اجتماعات الوزارة على تلقي توجيهات واوامر الرئيس وتقديم التقارير عن تنفيذها: وفضلاً عن ذلك ليس لمجلس الوزراء صلاحيات تذكر لا من الناحية القانونية ولا من الناحية العملية. ان نواب الرئيس والوزراء ونوابهم خاضعون خضوعاً مطلقاً للرئيس، ليس في الأمور المتعلقة بتنفيذ سياسة الدولة على المستويين الداخلي والخارجي فحسب، وانما حتى ما يتعلق بامورهم الشخصية البحتة كوزن البدن، وطريقة الحديث، وطرق تناول الطعام والشراب.

أما السلطة القضائية المتمثلة بالقضاء العراقي وهيئة الادعاء العام فهي سلطة مسلوبة الارادة وشبه معطلة من الناحية القانونية الرسمية. فمن جهة لا تملك حق

الاعتراض على القوانين والقرارات التي يصدرها مجلس قيادة الثورة والتي لها قوة القانون، بالـرغم من تناقض تلك القوانين والقرارات مع الدستور العراقي المؤقت من جهة، ومع الاعلان العالمي لحقوق الانسان والمواثيق الدولية والقانون الدولي من الجهة الأخرى، ان حق الاعتراض والنظر في دستورية القوانين يعتبر واحدٌ من أهم مهام السلطة القضائية في البلدان التي تتسم بسيادة القـانـون، كما انها لا تمتلك حق النظر في دعاوى وشكاوى المـواطنين المتعلقـة بالتعسف في استخدام السلطة من قبل موظفي الدولة، أو دعاوى الطعن في دستورية القوانين والقرارات التي يصدرها مجلس قيادة الثورة، والتي كثيراً ما تلحق أكبر الاضرار بحقوق وحريات المواطنين وحقوقهم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.
ان أهم السمات التي يتصف بها القضاء في أيَةِ دولة قانونية هو استقلاليته، وعدم وجود أي سلطان عليه، عدا سلطة القـانـون. فتلعب السلطة القضـائية دوراً هاماً في الدفاع عن الشرعية وترسيخ مبادىء العدل والمساواة والدفاع عن حقوق المواطنين من حالات سوء استخدام السلطة والنظر في دستورية القوانين والقرارات. وفي ظل انظمة غير قانونية يكون للقضاء دور هامشي في حياة البلاد والدفاع عن الحق وترسيخ المبادىء القانونية والوعي القـانـوني لدى المـواطنين. ولكي تلعب السلطة القضـائية دوراً كامـلًا حقاً ينبغي عدم اخضاعها لقرارات السلطة التنفيذية.

ان السلطة القضائية في العراق، المتمثلة في جهاز القضاء وهيئة الادعاء العام، تابعة لوزارة العدل العراقية وخاضعة في نفس الوقت للمحاكم الاستشارية والاستثنائية التي تنظر في كافة التهم السياسية والتهم المتعلقة بـ «أمن الدولة». أما القضاء العراقي فتقتصر مهامه على القضايا المدنية والتجارية والاحوال الشخصية.

ان النـظام أصـدر العـديد من القـرارات التي يكـرس فيهـا تخـريب العـلاقـات الاسرية(١٣). الأمر الذي يتنافى مع كافة الشرائع والقوانين والأعراف الاجتماعية والمواثيق الدولية.

من خلال العرض لمكانة السلطات الثلاث نلاحظ بأن السمة الأكثر بروزاً هي تمركز السلطة في يد صدام حسين الذي يتصرف بشكل فردي غير خاضع لأية رقابة لا من الناحية الـدستورية والقانونية ولا من الناحية الفعلية العملية، وهذه السمة هي القاسم المشترك لكافة الانظمة الدكتاتورية والفاشية في العالم. فبالاضافة إلى كون رئيس الجمهورية هو رئيس مجلس قيادة الثورة الذي يعتبر السلطة التشريعية في البلاد، فهو يشغل في نفس الوقت رئـاسـة الـوزارة التي تمثل السلطة التنفيذية. وبهذا يكون في آن واحد رئيساً للسلطتين التشريعية والتنفيذية. وتقول المبادىء الدستورية «لا تكون الحرية مطلقاً اذا ما اجتمعت السلطة الاشتراعية والسلطة التنفيذية في شخص واحد أو في هيئة حاكمة واحدة، وذلك

لأنه يخشى ان يصنع الملك نفسه. . . قوانين جائرة لينفذها تنفيذاً جائراً»[14]. اضافة إلى هذا وذاك فهو القائد العام للقوات المسلحة، وأمين سر القيادة القطرية للحزب الحاكم ونائب الامين العام للقيادة القومية للحزب، علماً بانه يمارس الآن مهام الامين العام للقيادة القومية بعد وفاة ميشيل عفلق، أضف إلى ذلك ان كافة الاجهزة القمعية في العراق تخضع لرقابته وترتبط بشخصه ارتباطاً مباشراً عبر مسؤولي هذه الاجهزة (الأمن العامة، المخابرات العامة، الاستخبارات العسكرية، جهاز الأمن الخاص، قوات الطوارىء، القوة الضاربة، قوات القصر الجمهوري، قوات الأمن الداخلي، قوات الحماية الخاصة).

وهكذا نرى من الضروري التفرقة بين الدستور والنظام الدستوري من جهة وبين الدولة القانونية والدولة اللاقانونية من الجهة الأخرى، لنرى مدى التطابق والتناقض بين ما هو كائن في عراق اليوم، وبين ما يجب ان يكون عليه عراق الغد.

ان التفرقة بين الدستور والنظام الدستوري مسألة في غاية الأهمية، لأنه وإن كان لكل دولة دستور ينظم الاسس العامة للسلطة، إلا انه من الممكن ان تكون هذه دولة غير دستورية، فالدولة لا يمكن ان تكون دستورية ما لم تكن السلطة فيها مقيدة وتكفل حقوق وحريات المواطنين وتقدم الضمانات الفعلية الملموسة لممارسة تلك الحقوق والحريات[15]. والتأريخ الدستوري مليء بالشواهد والأمثلة على الدول التي كانت لها دساتير، ولكنها كانت دولاً غير دستورية ولا تعير أيّة أهمية لتقييد السلطة العامة، ولا تكفل الحقوق والحريات الديمقراطية للمواطنين، سواء آكان ذلك من الناحية الدستورية أو من الناحية العملية. فالبرتغال كان يسودها نظام دكتاتوري وكان لها دستور صدر في عام ١٩٦٣، وامبراطورية اثيوبيا كانت دولة ملكية مطلقة تستند في حكمها على نظرية الحق الالهي، ولكن كان لها دستور صدر عام ١٩٥٥[16] والعراق اليوم هو الآخر له دستور، وهو الدستور المؤقت الصادر في عام ١٩٧٠ ولكنه نظام دكتاتوري ارهابي.

من الضروري ان يتوفر في الدولة القانونية دستور دائم يوضح فيه كافة السلطات العامة وعلاقة كل منها بالأخرى، ومنع السلطة التشريعية باعتبارها السلطة العليا في البلاد من التخويل في التشريع التفويضي[17]. ان مبدأ الفصل بين السلطات يعتبر واحدٌ من أهم المقومات الأساسية للدولة القانونية وخضوع الاجهزة الادارية (التنفيذية) في الدولة لسلطة القانون والرقابة، والأخذ بمبدأ تدرج القوانين، أو بمعنى آخر علوية النصوص الدستورية على كافة التشريعات الأخرى في البلاد، تليها في المرتبة القوانين العادية الصادرة من السلطة التشريعية العليا وفي المرتبة الأخيرة القواعد القانونية والقرارات التي تصدرها السلطة التنفيذية، الأمر الذي يعني وجود الضمانات القانونية لحماية القانون الأعلى من التناقض مع القانون الأدنى منه مرتبة، ومن المقومات الأساسية الأخرى للدولة القانونية

تكمن في الاعتراف وحماية حقوق وحريات المواطنين السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتقديم الضمانات المادية الكافية من أجل ممارستها والدفاع عنها من سوء استخدام وتصرف الجهاز الاداري (التنفيذي). وأخيراً تعتبر الرقابة القضائية واحدة من أبرز مقومات الدولة القانونية التي تضمن سير العدالة وتنفيذ القوانين وصيانة الدستور، وذلك عن طريق الطعن في القوانين التي تتناقض مع مضمون وجوهر الدستور[١٨].

ان قوى البديل الديمقراطي تناضل من أجل اقامة نظام ديمقراطي يتمتع في ظله شعبنا الكردي بالحكم الذاتي الحقيقي وسائر أقلياته القومية بحقوقهم الادارية والثقافية. ان شعبنا العراقي الذي قدم عشرات آلاف الضحايا من ابنائه سيبقى يناضل من أجل دولة سيادة القانون التي تضمن حقوق وحريات المواطنين وتصونها وتضمن حقوق الانسان وفق المواثيق الدولية والقانون الدولي.

الهوامش:

(١) جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، ترجمة ذوقان فرقوط، دار القلم، بيروت ـ لبنان، ص ١٥٥.

(٢) مونتسكيو، روح الشرائع، ترجمة عادل زعيتر، جـ١، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٥٣، ص ٢٤٩.
ـ ان السلطة التنفيذية تلعب دوراً أساسياً في الدولة البرجوازية، وذلك بالارتباط بزيادة حدة التناقضات الطبقية، الأمر الذي تتحول السلطة التنفيذية في فترة الازمات تحولاً حاداً في اتجاه القمع والارهاب، من أجل تسيير آلة الدولة بما يخدم مصالحها الطبقية.

(٣) لينين، حول الديمقراطية الاشتراكية السوفييتية، موسكو، دار التقدم ١٩٦٧، ص ١٤٤.

(٤) راجع بالتفصيل، ميخائيل غورباتشوف، البيريسترويكا والتفكير الجديد لأجل بلادنا وللعالم بأسره، ترجمة زياد الملا، دار الشيخ للدراسات والترجمة والنشر، دمشق ١٩٨٨، ص ١٣٣ وما بعدها.

(٥) ميخائيل غورباتشوف، التقرير السياسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي إلى المؤتمر السابع والعشرين، دار نشر وكالة نوفوستي، موسكو ١٩٨٦، ص ٧١.

(٦) راجع بالتفصيل، البروفسور تاديوبش فاليتشنيوفسكي، النهج، عدد خاص، العدد ٩، اواخر آب ١٩٨٥، ص ٩٥ ـ ١٠١.

(٧) راجع، المواثيق الدولية لحقوق الانسان، مركز دراسات حقوق الانسان في مصر، دار الطليعة، بيروت ١٩٨١، ص ١٧ ـ ١٨.

(٨) راجع نفس المصدر السابق، ص ٢٠، ص ٢٣ ـ ٢٤.

(٩) راجع نفس المصدر السابق، المواد ١ ـ ٥، ٧ ـ ٢٠، ٢٢ ـ ٣٠، ص ١٨ ـ ٢٧.

(١٠) راجع الثقافة الجديدة، حقوق الانسان في العراق، شباط ١٩٨٩، العدد ٢٠٦، ص ٣٢ ـ ٣٣.

(١١) راجع الدستور العراقي المؤقت الصادر في ١٦ ـ ٧ ـ ١٩٧٠، المواد ١٩ ـ ٢٥.

(١٢) راجع نفس المصدر السابق، المواد ٤٧ ـ ٥٦، وكذلك قانون المجلس الوطني رقم ٥٥ لسنة ١٩٨٠.

(١٣) راجع القرار التالي على سبيل المثال لا الحصر:

استناداً إلى احكام الفقرة (٢) من المادة الثانية والاربعين من الدستور المؤقت قرر مجلس قيادة الثورة بجلسته المنعقدة بتاريخ ١٥ - ٤ - ١٩٨١ ما يلي :

١ - يصرف للزوج العراقي المتزوج من امرأة من التبعية الايرانية مبلغ قدره أربعة الاف دينار اذا كان عسكرياً والفان وخمسمائة دينار اذا كان مدنياً في حالة طلاق زوجته أو في حالة تسفيرها إلى خارج القطر.

٢ - يشترط في منح المبلغ المشار اليه في الفقرة (١) من هذا القرار ثبوت حالة الطلاق أو التسفير بتأييد من الجهات الرسمية المختصة واجراء عقد زواج جديد من عراقية .

٣ - يتولى الوزراء المختصون تنفيذ هذا القرار.

صدام حسين

رئيس مجلس قيادة الثورة

(١٤) مونتسكيو، نفس المصدر السابق، ص ٢٢٨ .

(١٥) راجع الدكتور ابراهيم عبد العزيز شيحا، المبادىء الدستورية العامة، الدار الجامعية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٢، ص ٤٢ - ٤٣ .

(١٦) راجع نفس المصدر السابق، ص ٣٧ - ٣٨ .

(١٧) المقصود بالتشريع التفويضي، ان يقوم البرلمان باعتباره السلطة التشريعية العليا في البلاد بتخويل الهيئات الحكومية (السلطة التنفيذية) حق اصدار القوانين .

(١٨) راجع بالتفصيل، الدكتور عبد العزيز شيحا، مبادىء الانظمة السياسية، الدار الجامعية للطباعة والنشر، بيروت، بدون تاريخ، ص ١٠٧ - ٨١١٢



البيئة كارثة من أم الكوارث

كاظم عيدان

يبدو تناول مسألة البيئة وتأثيرات الحروب الصدامية عليها نشازاً وسط عشرات الألوف من القتلى وحالة الخراب والدمار الشامل الذي يلف الوطن وجيرانه . ولكن لابد في وسط هذا الخراب الشامل من النهوض ورؤية ما خلفته هذه الحروب على البيئة في العراق وفي المنطقة .

واذا استثنينا حروب النظام على كردستان وما خلفته اسلحة الدمار من تخريب في طبيعة المنطقة ايكولوجياً فان حربيه الاخيرتين (ونعني قادسيته المشؤومة وأم الكوارث) قد جلبت مشاكل بيئية هائلة للعراق والمنطقة . ولا يمكن اغفال التدمير الذي يفوق الوصف لقوات التحالف للعراق .

ان تلوث البيئة الهوائي بمخلفات البترول المحترقة يمثل مشكلة كبيرة، اذ ان نواتج احتراق هذا العدد الهائل من آبار النفط تشكل خطراً جدياً على صحة الانسان . فاشتعال حوالي ستمائة بئر للنفط في الكويت وتدمير منشآت ومصافي النفط في العراق يجعل ملايين براميل النفط تحترق يومياً . فاذا علمنا ان كل كيلو غرام واحد من الوقود يحتاج إلى خمسة عشر كيلو غراماً من الهواء، فستتضح لنا اللوحة المأساوية لطبيعة الهواء الذي سوف يستنشقه ابناء المنطقة .

ان اوكسيد الكربون غاز عديم اللون ذو تأثير سمّي قوي، اذ عند استنشاقه يتحد كيمياوياً مع الهيموغلوبين في الدم وبهذه الطريقة يقطع امداد الجسم بالاوكسجين .

ويشكل هذا الاتحاد الكيمياوي خطرا على الحياة حتى عند وجوده بكميات قليلة في الهواء اذ ان تركز ٢٠ نسبة حجمية منه يقتل كل وجود حي لبضع دقائق فقط. ويكون تأثير النواتج القليلة لتركز هذا الغاز متمثلاً في ضعف ونقصان النشاط العملي واضطراب أهم اجهزة واعضاء الجسم كما قد يؤدي إلى امراض الاوعية الدموية والقلبية.

كما ان هيدريد الكربون (CH) كمادة منفصلة لجزيئات من وقود متبخر أو غير محترق أو متحلل تشكل ضرراً على الانسان، ولقد ثبت بأن تركّز بعض موادها الشديد يؤدي إلى السرطان، ويساعد وجود هيدريد الكربون في الهواء على تكون السخام (الدخان الاسود) مما يؤثر على الرؤية والتنفس وتهيّج وتدميع العيون.

تتميز اكاسيد النتروجين، حتى ولو كانت بتركيز قليل جداً، بانها سامة وذات تأثير ضار على الجهاز التنفسي. ويكون تأثيرها على الجسم البشري أقوى من أول اوكسيد الكربون. ولقد ثبت بأن تنفس هواء يحوي ٠١ , ٠٪ من ثاني اوكسيد النتروجين لمدة نصف ساعة يؤدي إلى امراض جدية. ومن المعروف انه في الحالات التي يصل فيها تركيز (NO_2) إلى ٠٧ , ٠٪ في محل مغلق فانها تؤدي إلى الوفاة في فترة نصف ساعة.

ان اكاسيد النتروجين في الجو أو في جسم الانسان تتحد مع الماء مكوّنة حوامض تتساقط على شكل امطار مما يؤدي إلى زيادة حموضة التربة. كما ان لهذه الاحماض تأثيرات ضارة على نمو الكائنات الحية، اذ انها تستقر في المزروعات وفي أجسام الحيوانات.

وتتعدى خطورة الغازات الضارة المناطق المنكوبة بعشرات الكيلو مترات. ويتضح ذلك مما تناقلته وكالات الانباء عن سقوط الامطار السوداء في المدن الايرانية ومنها العاصمة طهران.

وبالاضافة إلى التأثيرات الضارة للدخان الاسود على الجهاز التنفسي فانه يحجب اشعة الشمس مما يؤدي إلى تغير المناخ نوعاً ما.

ولا تتوفر معطيات دقيقة عن التلوث الذي احدثته الغارات الجوية من جراء ضرب المفاعلات النووية العراقية ولا عن المصانع التي تنتج الاسلحة الكيمياوية والجرثومية، اضافة إلى المصانع الحربية الاخرى، ولكن المؤكد ان الجو تأثر كثيراً من جراء تلوثه بالمشعات والمواد الكيمياوية.

لقد احدثت الحروب الصدامية اضرارها على مجمل نواحي الحياة، فاضافة لما ذكرناه عن تلوث الهواء فان تشوهاً كبيراً قد أصاب التربة العراقية وتربة المناطق الاخرى المجاورة (ايران والكويت) بما احدثته تلك الاعداد الهائلة من الآليات العسكرية بمختلف اصنافها من كبس وقص أثناء انتقالها مما أدى إلى الاضرار بطبيعة الاراضي وبالكائنات

الحية الموجودة عليها. وستظهر تأثيرات هذا التشوّه في التربة على الزراعة في العراق. وهناك ايضاً الشبكة من الطرق العسكرية التي امتدت في اخصب الاراضي العراقية. كما ان ملايين الاطنان من القنابل ومئات الصواريخ التي القتها قوات التحالف لابد انها احدثت اضراراً جسيمة في التربة وما فيها وما عليها.

لقد تعرضت مياه الخليج وشط العرب إلى اضرار بيئية كبيرة سيمتد أثرها لسنوات عديدة. فبقعة النفط التي تكونت على سطح الماء جراء تدفق عشرة ملايين برميل إلى البحر، والتي تعتبر أكبر عدة مرات من بقعة البترول في الآسكا، ستعرقل العمل في معامل تكرير المياه خصوصاً وان منطقة الخليج تعتمد بشكل رئيسي على هذه المعامل، فهنالك معامل تحلية تنتج خمسة ملايين غالون يومياً وان ستة ملايين شخص يعتمدون على هذه المعامل.

وكان من جراء الحرب تواجد عدد كبير من السفن الحربية التي رمت بفضلاتها من زيوت وعوادم غازات في البحر كما جرى تفجير الكثير من الالغام والقنابل مما أدى إلى تلوث مياه الخليج وتعريض ثروته السمكية والطيرية إلى الخطر. ولا شك ان هذا الأثر سيمتد طويلاً اذ سيترسب البترول ويغطي معظم الشواطىء في أماكن توالد الاسماك.

ومن المعروف ان منطقة الخليج، كمنطقة بيئية، تعتبر مغلقة اذ ان مياهها لا تتحرك بسرعة وان مياهها لا تتبدل إلا خلال ثلاث إلى خمس سنوات. ولهذا فان تلوث المياه سوف لا يزول خلال فترة قصيرة وان عودة الحياة البحرية في هذه المنطقة يحتاج لسنوات عديدة.

لقد جرى غمر الكثير من الاراضي العراقية بالمياه وبنيت السواتر الترابية على الانهار كما جرى تلغيم ضفاف الانهار في حين ان بعض المناطق الطبيعية كالاهوار وغابات النخيل قد جرت ازالتها لأغراض عسكرية.

ان اثر الكارثة البيئية على العراق سيمتد لبلدان عديدة وفي مجالات مختلفة. فعلى سبيل المثال كانت بلادنا موطناً لهجرة ملايين الطيور التي تقطع الاف الاميال لتجد في دفء شتاء اهوار العراق مشتى مناسباً. لقد حرمتها الحروب من هذه المشاتي الجميلة وعرضتها لخطر الانقراض.

ويتسع مفهوم البيئة اليوم ليشمل كل ما يحيط بالانسان. فاذا عرفنا هول الاضرار التي سببتها الغارات الهمجية لقوات الحلفاء فان البيئة كانت الخاسر الاول. ويتمثل هذا في الخراب الذي لف كل مناحي الحياة فمن تدمير لمحطات تنقية المياه ونسف لشبكات الكهرباء إلى ضرب للجسور وتخريب مرافق المياه والصرف الصحي.

وكانت احدى نتائج هذه البيئة المدمرة انتشار الامراض المعدية والنفسية. ولا شك ان هنالك ولادات مشوهة وانساناً محطماً.

لقد اختل التوازن الطبيعي في العراق والمنطقة . وتلك هي الكارثة الحقيقية ، وان اعادة هذا التوازن من أصعب الامور وتحتاج إلى جهود ضخمة .

والآن بعد ان حلت الكارثة ما هي الاجراءات الوقائية التي يجب اتخاذها لمعالجة هذا الوضع المأساوي الذي خلفته حروب النظام . ان احدى المعالجات الاساسية تتمثل في ازالة مشعل هذه الحروب وهي الدكتاتورية وتولي نظام ديمقراطي تهمه مصلحة الشعب والوطن .

ولابد من جهد دولي في سبيل استعادة الوضع الدولي فضخامة الكارثة أكبر من جهد دول منفردة كما ان اضرارها تتعدى العراق إلى منطقة الشرق الاوسط .

ويجب ان تستمر مراقبة ومعالجة البيئة واخضاع السكان إلى الفحص الصحي لسنوات عديدة .

ولعل هذه الملاحظات في هذه المقالة تحفز وتثير كل الذين يعز عليهم ان يصبح الوطن الجميل خراباً بالمساهمة في معالجة هذه الكارثة ولنعمل على تقليل كمية السموم في الطبيعة العراقية بهوائها وترابها ومائها لأن هذه السموم سوف تقضي على البقية الباقية من شعبنا .

لتتحد كل الايادي الخيرة في القضاء على رأس الثعبان وازالة سمومه واخطاره .



تركيا في الاستراتيجية الامريكية بعد سقوط الشاه

د. أ

عن مطبعة الجاحظ في دمشق صدر مؤخراً كتاب للدكتور جرجيس حسن عنوانه «تركيا في الاستراتيجية الامريكية بعد سقوط الشاه» ويقع في ١٥١ صفحة من القطع المتوسط

يضم الكتاب بالاضافة للمقدمة والخاتمة ثلاثة فصول هي ١ ـ انهيار المواقع الامبريالية في ايران بعد سقوط الشاه. ٢ ـ أهمية تركيا لحماية المصالح الامريكية. ٣ ـ التحرك التركي ضمن الاستراتيجية الامريكية.

يقول المؤلف في مقدمة الكتاب «روادتني فكرة كتابة مثل هذا البحث، عندما زرت ايران قادماً من فينا في بداية خريف ١٩٧٩. أي بعد الثورة الايرانية وانهيار المواقع الامبريالية في هذه المنطقة المهمة، ولكن تلك كانت مجرد فكرة لا أكثر. . . وازدادت فيّ الرغبة في كتابة مثل هذا الموضوع خاصة عندما حاول الجيش التركي اجتياح الاراضي العراقية في محاولة للقضاء على الحركة الكردية المسلحة داخل العراق. فكتبت في بداية سنة ١٩٨٥ مقالة تحمل نفس عنوان الكتاب. ونشر القسم الاول منها في خه بات (النضال) لسان حال الحزب الديمقراطي الكردستاني. كما أذيع القسم الثاني، فيما بعد، في الاذاعة السرية للحزب الديمقراطي الكردستاني. وهكذا بدأت أجمع المعلومات عن هذا البحث المتواضع، وبالرغم من انني كنت بعيداً عن المدن والمكتبات العامة، إلا أنني

عتمدت بالدرجة الاولى على انصات الحزب الديمقراطي الكردستاني، وكذلك اعتمدت على الجرائد والمجلات التركية. . واعتمدت أيضاً على الكتب والمنشورات التي تصدرها الاحزاب الكردية في جميع انحاء كردستان المجزأة، وعلى الجرائد والمجلات العراقية والايرانية وخاصة الكيهان العربي».

ويضيف المؤلف في مقدمته «وللحق اقول ان الموضوع كان صعباً، ولكنه مهم في نفس الوقت. صعب لأنني لم أعثر على كتاب يتناول هذا الموضوع بشكل مفصل، عدا كتاب ظهر حديثاً لنديم البتكين تحت عنوان «تركيا بوابة الاستراتيجية الامبريالية العالمية» وكذلك كتاب جهاد صالح «الطورانية بين الاصولية والفاشية» ويكتسب الموضوع أهمية في انه لم يجر إلا قليلاً، الحديث عنه سابقاً وبشكل تفصيلي، عن سياسة الامبريالية الامريكية وحلف الاطلسي في المنطقة من خلال الركيزة الثابتة لها (تركيا)» ص ٧.

في الفصل الاول «انهيار المواقع الامبريالية في ايران بعد سقوط الشاه» يؤكد المؤلف على ان انتهاء دور الشاه كشرطي في منطقة الخليج، التي تنتج ٦٠٪ من النفط وتضم ٧٠٪ من الاحتياطي العالمي للبترول، زاد من أهمية تركيا للغرب اذ «ان خسارة امريكا بسقوط الشاه افدح من خسارة أي طرف آخر، فقد كان شرطياً نموذجياً لحماية مصالحها، وشريكاً لا يقدر بثمن لتوطيد دعائها» وسقوط الشاه اخلّ بعملية التوازن الهامة لاستمرار مصالح الغرب وامريكا. لذلك برزت أهمية ايجاد موقع هام آخر لكي يحل محل موقع الشاه لسابق، فكانت انظار امريكا والغرب متجهة لتركيا.

في الفصل الثاني «أهمية تركيا لحماية المصالح الامريكية» يستمر المؤلف في ابراز أهمية تركيا للولايات المتحدة التي لم يعد لها خيار بعد سقوط الشاه سواها «باعتبار انها قاعدة متقدمة شبيهة تماماً بايران سابقاً، من حيث القوة البشرية والاستراتيجية، وقربها من الحدود السوفييتية، وبالتالي قربها من العالم الاسلامي».

ويعود المؤلف إلى تاريخ اهتمام الولايات المتحدة بتركيا، والذي يعود لبداية القرن الماضي، وتطور هذا خصوصاً بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وحصول تركيا على العضوية الكاملة في حلف شمال الاطلسي في شباط ١٩٥٢. ويتناول المعاهدات والاحلاف الهامة التي عقدت بين امريكا وتركيا، والتي جاء في بنود احداها، وهي الموقعة في ١٩٥٩/٣/٥: «وللولايات المتحدة الحق الكامل بأن تسيطر وتغزو الاراضي التركية، اذا قام الشعب التركي باقامة حكومة ثورية أو ديمقراطية في السلطة السياسية لا تناسب الولايات المتحدة ومصالحها في المنطقة، ويخرق المعاهدات والاتفاقيات الموقعة بين الطرفين لهذا العام والاعوام التالية».

ويورد المؤلف استناداً إلى ما كُتب في دليل القوة الجوية الامريكية انه لحد عام

١٩٧٣ كانت توجد في تركيا (١٠١) قاعدة عسكرية امريكية اطلسية، ارتفعت فيما بعد إلى (١٣٤) قاعدة، وتتكون هذه القواعد من مطارات وموانىء بحرية وسفن الاسطولين السادس والسابع الامريكيين، بالاضافة لمحطات تجسس وتنصت واعتراض ورادارات.

أما الفصل الثالث من الكتاب وهو أطول الفصول وأهمها فيتناول «التحرك التركي ضمن الستراتيجية الامريكية» مبتدئاً بالانقلاب العسكري التركي في ١٢ ايلول ١٩٨٠ حيث سيطر الجنرال ايفرين على السلطة، بأمر واشراف من وكالة المخابرات المركزية الامريكية، في الوقت الذي كانت فيه القوات المشتركة لحلف شمال الاطلسي تقوم بمناورات عسكرية على أرض تركيا لطمأنة الانقلابيين وحمايتهم. وكان قائد سلاح الجو التركي يتابع الانقلاب باهتمام كبير مع وزير الدفاع الامريكي.

كما يسهب الكتاب في تحليل الاسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والامنية التي عاشتها تركيا قبل الانقلاب وأدت بالتالي لوقوعه، ثم يؤكد ان «الحركة الانقلابية جاءت ليس للقضاء على هذه المشاكل وما يخدم مصلحة الشعب التركي، وانما لترسيخ دعائم الامبريالية وتنفيذ سياستها في منطقة الشرق الاوسط».

ثم يتناول الكتاب التحرك التركي على صعيد الدول العربية والاسلامية المجاورة، فيشير إلى انه منذ ٨ تموز ١٩٣٧ عندما تم التوقيع على معاهدة سعد آباد مع العراق وافغانستان وايران، كانت تركيا تهدف إلى اجهاض الحركات التحررية في المنطقة. فالمادة السابعة من هذا الميثاق نصت على «ان الجهات المتباحثة تعمل على عدم السماح لقبول أية نشاطات على اراضيها على شكل عصابات أو فئات أو منظمات مسلحة تهدف إلى مناصبة العداء لأية جهة من الجهات المتحالفة» ص ٥٨.

ينتقل الحديث إلى دخول تركيا لحلف بغداد، ومواقفها المعادية لمصالح الشعوب المتحررة في الامم المتحدة كمعارضتها لاستقلال الجزائر، وشجبها لقرار تأميم قناة السويس، وتأييدها للعدوان الثلاثي على مصر.

كما يتناول المؤلف علاقة تركيا بسوريا ثم العراق، ثم بلدان الخليج العربي،فمصر التي يقول ان علاقة تركيا بها تحسنت زمن السادات. وبعد عقد اتفاقيات كامب ديفيد، وتصاعدت من التعاون العسكري والاقتصادي إلى التنسيق السياسي في مجمل القضايا. ثم يتحدث عن العلاقة مع ايران ثم مع قبرص فالموقف التركي من الحرب العراقية ـ الايرانية.

وتحت عنوان فرعي هو «التحرك التركي على صعيد الحركة التحررية الكردية» يتناول الكتاب مشكلة الموصل مشيراً إلى جميع الاتفاقيات المعقودة بين الحلفاء اثر الحرب العالمية الاولى وأثناءها، والانتفاضات الكثيرة التي قام بها الشعب الكردي من أجل نيل

حريته واستقلاله، والتي قوبلت بالحديد والنار من قبل الحكام الاتراك.

ولا ينسى الكتاب الاشارة لمحاولات تركيا، بالتعاون مع سلطة بغداد، لاجهاض الحركة الكردية المسلحة في كردستان العراق، من خلال توجيه ضربة عسكرية لقواعدها القريبة من حدود تركيا، واجتياحها لأراضي العراق ربيع ١٩٨٣. وبعد ان يستعرض المؤلف المشكلة الكردية من جميع جوانبها، يتحدث عن مختلف الاطراف التي حاولت استغلالها لمصالحها واهدافها، ثم وجهت لها الضربات وحاكت ضدها مختلف المؤامرات عندما وجدت انها لا تخدم مصالحها.

ثم يؤكد المؤلف ان المشكلة الكردية «هي مشكلة موضوعية تستمد ديمومتها من بقاء واستمرار الاضطهاد القومي، وحرمان الشعب الكردي من حقوقه المشروعة، شأنه في ذلك شأن كل الشعوب في العالم. وطالما بقي الاضطهاد، فالمشكلة قائمة لا محالة» ص ١٢٤.

وينتهي الكتاب بخاتمة يلخص فيها المؤلف أهم اهداف تركيا ونواياها العدوانية باعتبارها رأس رمح الامبريالية - كاسرائيل - في منطقة الشرق الاوسط، فضلاً عن اطماعها الخاصة بولاية الموصل وحقول نفط كركوك.

وأخيراً بودي الاشارة إلى انه وردت في الكتاب العديد من الاخطاء اللغوية، خصوصاً في استخدام المذكر والمؤنث، وهذا أمر طبيعي بالنسبة لكاتب كردي، ولكن الكتاب أفضل كثيراً - من ناحية الصياغة - من مخطوطته التي اطلعت عليها قبل عامين.

انه كتاب مفيد وجدير بالمطالعة.





حركة العمال في العراق

هذا الملف الـوجيـز اقتبسنـاه حرفيـاً، حتى باخـطائه الكثيرة، من (دليل المملكة العراقية لسنة ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦). فهو يتحدث عن بواكير الحركة النقابية، عن قيادتها ونشاطها، ويعطي صورة للاجواء السياسية قبل حوالي ستين سنة، يوم لم يكن لعراقنا من الاستقلال غير الاسم، ومن الصناعة إلا مؤسسات قليلة، ومن العمال سوى بضع عشرات الالاف.. إنها وثيقة تحفز على التأمل، على المقارنة بين الأمس واليوم...

كلمة عن حياة زعيم الطبقة العاملة

هو الميكانيكي محمد صالح بن عبد الجبار القزاز من اسره معروفة في بغداد بهذا اللقب (القزاز) لامتهان أكثر اعضائها في العهد العثماني مهنة القزازة. ولد في بغداد سنة (١٩٠٤) وتلقى دروسه الابتدائية في مدرستي باب الشيخ والمهدية الرسميتين والتحق بعدها (أي بعد سقوط بغداد بيد الانكليز) بمكتب الصنائع فتخرج منه ثم دخل المعامل المختلفة كمعمل العباخانة ومعمل الصنائع المعروف باسم (M. T. Depot) ومعمل الهنيدي لخط قطار بغداد ـ الكوت. ومعامل شركات النفط. ومعمل الشالجية للسكك الحديدية.

وقد أبـرز في المعـامـل المذكورة مهارة فائقة فعين في معمل الهنيدي ملاحظاً لشعبتي الخـراطة وتصليح العجلات. وكان في المعامل المنوه عنها يقود حركات العمال وينظم صفوفهم ويدعوهم للمطالبة بحقوقهم وعدم الايثار إلى اهواء رؤساء المعامل المستبدين. فنـظم عدة اضـرابات فورية أدت إلى فوز العمال باستحصال الغرض الذي اضربوا من اجله. وفي سنة ٩٢٤ قدم هو ولفيف من عمال السكك الحديدية طلباً لفتح أول ناد للعمال وعقـدوا عدة اجتماعات غير ان الحكومة لم تجزهم بتأسيسه وفي ٩٢٥ التحق بمدرسة التجـارة الاهلية المسـائية العـالية (التي فتحها المعهد العلمي في بغداد) واستمر على الدراسة فيها إلى ان تقرر غلقها، ثم اعتكف على دراسة اللغة الانكليزية وتوصل بها إلى درجة مرضية وحاز على جوائز التفوق في الصفوف التي فتحها (نادي الاصلاح) وفي سنة ١٩٢٩ اجيز هو ورفقاؤه بتأسيس أول جمعية للعمال باسم (جمعية اصحاب الصنائع في العراق) فانتخب رئيساً عاماً لها وتجدد انتخابه لرئاستها في سنتي ٩٣٠ و٩٣١ وفي السنة الاخيرة قامت الجمعية المذكورة بالاضراب العام الذي استمر (١٤) يوماً في العاصمة وأهم الالوية العراقية احتجاجاً على الرسوم المستحدثة في قانون رسوم البلديات رقم (١٤) لسنة ٩٣١ على العمـال وارباب الصنـائع المختلفة ولعدم اهتمام الحكومة وتنفيذها مطاليب العمال خاصة ما يتعلق بعمال السكك الحديدية. وانتهى الاضراب بتنفيذ الحكومة قسماً من المطاليب التي اعلن الاضراب من أجلها وتعهدها بتنفيذ القسم الثاني. ونظراً لاشتداد الخلاف بينه وبين وزير الداخلية (مزاحم الباجه جي) حينذاك فقد اغلقت الحكومة جمعية اصحاب الصنائع التي رأسها واقيمت عليه خمسة عشرة دعوى بالتعاقب تبرأ منها جميعاً فلم تكتف الحكومة بذلك انما انذرته بالتبعيد إلى جهة خالية من السكان وفق قانون العشائر حيث عدت وجـوده في المـدن خطراً على سلامة الدولة. وفي ٩٣٢ انتخب رئيساً عاماً لجمعية عمال الميكانيك العراقيه وفي سنة ٩٣٣ عدل نظامها فجعلها (نقابة اتحاد العمال في العراق) وانتخب نقيباً للعمال وفي سنة ٩٣٤ جدد انتخابه لرئاسة النقابة وفي نفس السنة قامت النقابة بتنظيم حركة مقاطعة شركة الكهرباء لمدينة بغداد لعدم نزول الشركة عند رغبة نقـابة العمال وتخفيضها اسعار وحداتها الباهضة. ولما استفحل أمر المقاطعة وتدخلت السفارة الاجنبية فيها خوفاً من سريان روح المقاطعة على كل ما هو اجنبي ولما لم يتفق مع الحكومة والشركة على تخفيض فلسين من سعر كل وحدة كهربائية وجعلها ٢٦ فلساً بعد ان كانت ٢٨ وتخفيض الكميات الكبيرة للمحلات التي يزيد صرفها على الخمسين وحدة شهرياً إلى ١٢ فلساً لكل وحدة واذاعته بياناً للاهلين يدعوهم إلى الاستمرار على المقاطعة وعدم الموافقة على التخفيض الضئيل المار ذكره فقد ابعدته الوزارة المدفعية الاولى على حين غرة إلى لواء السليمانية هو وستة من رفقائه تحت حراسة اربعة سيارات مدرعة وقائد

شرطة السيارات المسلحة وثلة منها فقضى ٥٦ يوماً في السليمانية و٢٢ يوماً في بعقوبة ويومين في كركوك احتفى به اهالي تلك المدن واقاموا له الولائم خلالها وقد اعادته الوزارة إلى العاصمة قبل موعد رجوعه المعين بثلاثة ايام بعد منتصف الليل لانها خشت نتيجة المهرجانات الشعبية التي قرر العمال والاهلون اقامتها لاستقباله. وقد انتخب المفاوض الوحيد لعمال السكك الحديدة في جميع اضرابهم وحصل لهم معظم الحقوق التي اضربوا من اجلها واجمعت كلمة عموم جمعيات العمال والاصناف على ترشيحه لتمثيلها في مؤتمرات مكتب العمل الدولي في جنيف ـ الملحق بعصبة الامم ـ وعدم الاعتراف بمن يوفد سواه. وفي عام ٩٣٤ في ليلة ذكرى عيد التتويج على عهد الوزارة الايوبية عندما نشرت نشرات سرية اوقف من اجلها ٢١ يوماً انجلت عن الافراج عنه وقد بلغت الدعاوى التي اقامتها ضده الوزارات المتعاقبة (٣٢) دعوى تبرأ منها عامة وكلها تختص بحركة العمال وتطوراتها وهو أول عامل عراقي (بل عربي) اتصل بحركة العمال الدولية فقد اتصل بمكتب العمل الدولي بجنيف وباتحاد نقابات العمال والصناع الدولي (ببرلين) المانيا. وبأكثر احزاب العمال الاوربية والعربية ومؤتمراتهم وهو يحسن اللغات العربية والتركية والانكليزية (قراءة وكتابة) ويحسن التكلم باللغة الهندية. وفي المدة الأخيرة وبعد ان أشتد الخلاف بينه وبين الشركات والجهات الحكومية فتح له معملاً ميكانيكياً خاصاً به كيلا يتقيد بانظمة قد تضطره إلى تأخير بعض الاعمال التي تختص بحركة العمال: وهو يعد بحق مؤسس حركة العمال وزعيمها في العراق فقد قاد حركة العمال ونظم جمعياتهم على غرار جمعيات العمال الاوربية كما شهد بذلك مكتب العمل الدولي بجنيف الملحق بعصبة الامم. وكرس اوقاته وراحته لخدمة هذه الطبقة التي هو أحد ابنائها فايدته بدورها في جميع مواقفه ووضعت ثقتها التامة فيه. وقد اشتهر باصالة الرأي وبرودة الدم والصبر على تحمل المشاق مهما عظمت. وقد رفض جميع الوظائف التي اسندت اليه مفضلاً الاشتغال بين صفوف رفاقه العمال والكفاح لاسعادهم واحلالهم المنزلة اللائقة بمنزلتهم الانتاجية، وانه ما يزال يطالب الوزارة الهاشمية بانصاف العمال وفتح نقابتهم وجمعياتهم واعطائهم الحرية لتنظيم شؤونهم وتصديق قوانين العمال وجعلها بالصورة التي يستفيد منها العمال.

جمعيات العمال العراقية

لم تكن للعمال في العراق حركة تذكر قبل سنة ٩٢٤ حيث لم يكن للصناعة في العهد العثماني اثر بارز في الحياة العامة وقد اسس في عهد مدحت باشا معمل العباخانة

للنسيج ومعمل للثلج ومعمل بلوكي للنقل ومدرسة للصنائع كان لها فضل في تخريج عدد من العمال وكانت لها قيمة صناعية كبرى حينذاك وفي زمن ناظم باشا كثر الاحتياج إلى عمال فنيين للاشتغال بمد سكة حديد بغداد ـ برلين اذ كان العمال الميكانيكيون يفقدون في العراق تقريباً وظلت حركة العمال تسير سيراً بطيئاً حتى عهد الاحتلال البريطاني . وبعد ذلك تأسست معامل للقطار وتصليح السيارات وتسيير البواخر وتصليحها جلب أكثر عمالها من الهند وبطبيعة الحال أخذ يزداد عدد العمال العراقيين تدريجياً وفي سنة ٩٢٤ شعر مفكروا العمال في العاصمة بلزوم تأسيس مجتمعات خاصة لهم تسعى لرفاههم فقدم الاستاذ محمد صالح القزاز ورفقاؤه من عمال السكك الحديدية طلباً لفتح أول ناد للعمال وعقدوا عدة اجتماعات لهذا الغرض في حديقة الصالحية واحياناً في دور بعضهم اذ لم يسمح لهم بتأسيس هذا النادي وظل العمال يطالبون بتأسيس نواد وجمعيات لهم فلم يلتفت لطلباتهم وفي سنة ١٩٢٩ اجيز بتأسيس أول جمعية عامة لهم باسم (جمعية الصَنائع في العراق) فقامت هذه الجمعية باعمال هامة جليلة ووحدت كلمة العمال وارباب الصنائع واسست لها فروع في أهم الالوية العراقية وسنأتي على ذكر أهم اعمالها، ثم فتحت في السنة المذكورة جمعية تعاون الحلاقين وجمعية البقالين وتأسس في سنة ٩٣٠ جمعية عمال الميكانيك وجمعية عمال المطابع في بغداد وتألفت عدة جمعيات للاصناف في لواء الموصل كجمعية الخشابين ونقابة البقالين وغيرها وقد انتسب لجمعية اصحاب الصنائع عموم عمال السكك الحديدية وكافة اصحاب الصنائع وحدثت بين الجمعية المذكورة وبين مديرية السكك الحديدية العراقية خلافات هامة حول تحسين وضع العمال ولما لم تنفذ مديرية السكك طلبات جمعية اصحاب الصنائع أعلن عمال السكك اضرابين احدهما في ٣ ـ ١٢ ـ ١٩٣٠ دام يوماً واحداً وانتهى باتفاق الكولونيل تنج مدير السكك الحديدية العام مع رئيس جمعية اصحاب الصنائع وممثل عمال السكك الاستاذ محمد صالح القزاز على تنفيذ بعض النقاط التي أعلن الاضراب من اجلها واهمها ارجاع ساعات العمل والاجور إلى ما كانت عليه قبل الاضراب واعادة الآنة التي قطعتها دائرة السكك من كل ربية من اجور العمال واعطاء العمال اجورهم خلال العطل الطبية الرسمية ومساواة العامل العراقي بالاجنبي في الاجور وسائر المعاملات.

وحدث الاضراب الثاني في ٢٦ ـ ٢ ـ ٩٣١ ودام اسبوعاً كاملاً فتوسطت الحكومة العراقية لانهائه ودعى معالي وزير الاقتصاد والمواصلات مزاحم بك الباجه جي كلاً من الاستاذ القزاز والمستر تنج لمكتبه الخاص وبعد مذاكرات استمرت يومين اتفق الطرفان على نقاط معينة واذاعت الجمعية البيان التالي :

حسم قضية اضراب عمال السكك الحديدية

دعا معالي وزير الاقتصاد والمواصلات بعد ظهر يوم الثلاثاء ٢ ـ ٣ ـ ٩٣١ رئيس جمعية اصحاب الصنائع في العراق إلى مكتب معاليه فذهب وبصحبته محامي الجمعية فتفاوضا مع معاليه وبينا مطاليب العمال التي اضربوا من اجلها فطلب معالي الوزير من رئيس الجمعية ان يبلغ العمـال بالـذهاب إلى اعمالهم وأكد له بانه سيتدخل في حسم قضيتهم بصورة مرضية فاخبره رئيس الجمعية بان العمال لا يذهبون إلى اشغالهم ما لم يتأكدوا من مصدر رسمي ان مطاليبهم ستجاب وهم يطلبون اقصاء الاجانب غير الفنيين واذا كان هنـاك نقص ما فيجب ان يكون شاملاً لجميع موظفي القطار غير مقتصراً على العمـال وحـدهم، وعلى هذا خابـر معـالي الوزير سعادة مدير السكك الحديدية العام الكولونيل تنج ليحضر في مكتب معاليه يوم الاربعاء ٤ الجاري في الساعة العاشرة صباحاً وبلغ رئيس الجمعية الاستـاذ محمد صالح القزاز بالحضور في الوقت المذكور (وهكذا استمر الاضراب في الاربعاء أيضاً) وفي الوقت المذكور اجتمع في مكتب وزارة الاقتصاد والمواصلات معالي الوزير وسعادة مدير السكك العام وحضرة رئيس الجمعية ومحاميها للمفاوضة حول قضية الاضراب فطلب رئيس الجمعية من مدير السكك حل هذه القضية التي طال تذمر العمال منها واجراء ما يأتي :

١ ـ ان يستغنى فوراً عن جميع الاجانب غير الفنيين الذين ليسوا من ذوي العقود.

٢ ـ اذا لم تكف رواتب هؤلاء الاجانب (الذين سيستغنى عن خدماتهم لنهاية الشهر الحالي) لسد العجز الموجود في الميزانية فيجب ان لا يكون باقي العجز مقتصراً على العمال وحدهم بل يكون بنسبة مئوية متساوية بين جميع موظفي القطار وعماله.

٣ ـ ان يحل العمال العراقيون الاكفاء محل الاجانب الفنيين باقرب وقت ممكن.

وقد وافق سعادة مدير السكك العام على هذا الحل وتعهد بأن يجرى معمول هذا الاتفاق ابتداء من الشهر الآتي إلى (يوم ١ نيسان ٩٣١) وعلى هذا اخبر رئيس الجمعية عمال السكك بهذه الكيفية وطلب اليهم ان يواظبوا على اعمالهم التي ستبقى على ما هي عليه لنهاية الشهر الحالي.

ملاحظة: ان لعمال السكك الحديدية حقوقاً مضاعفة كثيرة وهم نظراً للازمة المالية لا يطلبون إلا تنفيذ ما يمكن وهذه الطريقة التي طلبنا اجراءها هي اضمن الطرق (لمصلحة

ادارة السكك واصحاب الصنائع) واننا نتأمل من الحكومة ومن ادارة السكك ان لا يضطروا العمال لتجديد الاضراب وان يلاحظوا تنفيذ ما ذكر اعلاه بالتاريخ المعين.

محمد صالح القزاز

رئيس جمعية أصحاب الصنائع في العراق

وقد طلب عميد الجمعية المذكورة من الحكومة سن قانون يحمي العمال من استبداد الشركات بهم فلبت الحكومة هذا الطلب بعد ان ايده عدد من النواب ضمنهم طبيب الجمعية الخاص في المجلس النيابي وطلبت الوزارة إلى عميد جمعية الصنايع ان يقدم مقترحات العمال بصدد قانون حمايتهم فقدمها في ٩٣١/٣/٣١ وقدم تعديلاتها في ٩٣٣/٢/٢٢ باسم جمعية عمال الميكانيك التي كان يرأسها في ذلك الحين، وهذا نص:

مقترحات العمال
بشأن قانون حمايتهم

١ ـ اعترفت الحكومة بجمعيات ونقابات العمال (حسب صناعتهم وحرفهم) كهيئات تمثل العمال مجموعاً ولزوم مفاوضة هذه النقابات بجميع الشؤون التي تخص العمال سواء من قبل الحكومة أو من قبل مؤسسات الاستخدام.

٢ ـ يجب ان تعين الاجور بين المستخدمين والنقابة التي ينتمي اليها العمال ويجب اعطاء هذه الاجور لجميع العمال المنتمين إلى النقابات أي ان لا يكون عقد بين المستخدم وكل فرد من العمال أو بين المستخدم والنقابة مباشرة.

٣ ـ يجب ألا تزيد مدة العمل على ثماني ساعات في اليوم بما فيها مدة الاستراحة وتناول الطعام.

٤ ـ يجب ان يمنح العمال اجورهم خلال العطلة الرسمية.

٥ ـ يجب ان يمنح العمال اجورهم خلال العطلة الطبية.

٦ ـ اجبار اصحاب المعامل والشركات على توفير الشروط الصحية في معاملهم ويجب عليهم ان يضمنوا كذلك سلامة العامل بالوسائل المختلفة في الاعمال الخطرة.

٧ ـ اعطاء العامل تعويضاً مالياً اذا اصيب بعطل حين اشتغاله واعطاء عائلته اكرامية اذا توفى أو اصيب بحادث أو مرض لا يرجى شفاؤه بسبب العمل.

٨ ـ اعطاء تقاعد للعمال الدائمين الذين يبلغون السن المعين من القانون بنسبة

استخدامهم.

٩ ـ تأسيس صندوق تعاوني يضع فيها العامل ١ بالمائة من اجرته وتدفع الشركة أو صاحب المعمل الذي يشتغل فيه مثل ذلك وتدفع الحكومة كذلك وذلك لاسعاف المعوزين من العمال.

١٠ ـ وضع انظمة كافلة لتأمين العمال ضد البطالة.

١١ ـ ان تقوم البلديات بتأسيس دور للعجزة والمصابين بعاهات من العمال وذويهم.

١٢ ـ منع تشغيل الاطفال الذين يقل سنهم عن ١٤ سنة في الاعمال الشاقة و١٠ سنوات في الاعمال الأخرى.

١٣ ـ منع تشغيل الاجانب في الاعمال التي لا تحتاج إلى اختصاص فني بصورة قطعية.

١٤ ـ تأمين السكنى الصحية للعمال الذين يشتغلون خارج البلد وتجهيزه بكل ما يتمتع به العمال في المدن والقيام بمشاريع منزلية في المدن لتجهيز العمال بمنازل صحية بأجرة تتناسب مع كسبهم.

١٥ ـ منح العمال الدائميين عطلة سنوية (اسبوعين).

١٦ ـ منع تشغيل النساء في الاعمال الشاقة واعطاء الحامل أربعة اسابيع اجازة قبل الولادة ومثلها بعدها بأجرة كاملة.

١٧ ـ تأسيس لجان من العمال في كل مؤسسة لمحافظة حقوق العمال المستخدمين فيها ويجب ان تستشار هذه اللجان في الشئون المهمة التي لها مساس بالعمال ومستقبلهم.

١٨ ـ تعيين مدة لاخطار العامل قبل فصله من عمله واعطائه أجراً معيناً بالنظر إلى الخدمة فيما اذا كانت دائمية أو مؤقتة عندما لم يخطر قبل المدة التي تعين في القانون.

١٩ ـ وضع حد أدنى لاجور كل صناعة على ان يكون كافلاً للعامل مستوى يؤمن له مقتضيات الحياة.

٢٠ ـ اعطاء جمعيات ونقابات العمال حق تنظيم الاضراب عليه فيما اذا فشلت المفاوضات بينهما وبين المستخدمين حول تنظيم شؤون العمل وتأمين حقوق العمال واعتبار المضربين غير خارجين على واجباتهم.

٢١ ـ لتأمين التعليم الصناعي والفني للعمال وتأسيس معاهد صناعية في مراكز الالوية لهذا الغرض.

٢٢ ـ تأسيس مكتب للعمال يتكون من ممثلين عن العمال والشركات للنظر في

حسم المشاكل التي تحدث بين العمال واصحاب العمل وتقديم التقارير اللازمة عنها إلى الحكومة.

٢٣ ـ سن قانون لنقابات العمال وكيفية تشكيلها وحقوقها.

٢٤ ـ تعيين كيفية الاستغناء عن العمال الدائميين واعطائهم مساعدات بنسبة استخدامهم على ان يرجحوا بالاعادة في اشغالهم عندما يكون احتياج في المحلات التي كانوا مستخدمين فيها.

٢٥ ـ على الشركات واصحاب العمل ان يقوموا بفتح مدارس لتعليم ابناء العمال والاميين المستخدمين لديهم فيما اذا كانت منازلهم تبعد عن المدارس العامة بأكثر من ثلاثة أميال.

٢٦ ـ تعطيل جميع المعامل يوماً واحداً في كل اسبوع لاستراحة العمال واعطائهم اجرهم خلاله.

ولما أعلن قانون رسوم البلديات رقم ٨٤ لسنة ٩٣١ طلبت جمعية اصحاب الصنائع الغاء الرسوم التي استحدثت والتي يراد استيفاؤها من العمال واصحاب الصنائع وتخفيض الرسوم السابقة وايجاد حل لقضية العمال البطالين المسجلين لديها ولما لم يلب طلبها اعلنت بمؤازرة بقية الجمعيات والاصناف الاضراب العام في ٦ تموز ٩٣١ الذي استمر اربعة عشر يوماً في العاصمة وبقية الالوية المهمة وانتهى بعودة فخامة رئيس الوزراء نوري باشا السعيد من اوربا بتنفيذ قسم من الطلبات التي اعلن الاضراب من اجلها وقد اغلقت الحكومة جمعية اصحاب الصنائع في اليوم الثالث من الاضراب العام وأعيد فتحها بعد انتهاء الاضراب العام ثم اغلقتها الحكومة للمرة الثانية بعد ذلك بمدة وجيزة. وقد إحتجت كل جمعيات العمال والاصناف وعمال السكك وشركات النفط ومعامل الاشغال والمعامل الاهلية على غلق جمعية اصحاب الصنائع وأيدوا عميدها في جميع الاعمال التي قام بها.

حركة مقاطعة الكهرباء

وفي ٢٨ أيار ٩٣٣ عدل نظام جمعية عمال الميكانيك وغير اسمها فاصبحت (نقابة اتحاد العمال في العراق) وتأسس لها مجلس أعلى انضم اليه جميع رؤوساء جمعيات العمال وكذلك رؤوساء الاصناف الذين لم تشكل لاصنافهم جمعيات حتى ذلك الوقت وأول عمل بدأ به هذا المجلس هو القيام بتنظيم حركة مقاطعة شركة الكهرباء الاجنبية ببغداد بعد ان طالبتها النقابة بتخفيض اسعار وحداتها الباهضة التي هي أعلى بكثير من

اسعار بقية شركات الكهرباء في الالوية إلى حد يزيل الغبن اللاحق بالاهلين. فلم تنزل عند رغبتها وباقي جمعيات العمال والاصناف وكذلك طلبت من المجلس تنزيل اجور الماء الشهرية فانزلت ١٠٪. وقبل البدء بالمقاطعة طلب عميد النقابة إلى عموم النوادي والغرف التجارية والجمعيات الخيرية وادارات الطوائف والاحزاب والاطباء والمحامين والرجال الروحانيين وطبقات الشعب المختلفة تأييد النقابة في قيامها باعلان المقاطعة وبعد ان وردته تأييدات منهم وبعد انتهاء المدة التي عينها للحكومة للتوسط في انهاء القضية بصورة ترضي الاهلين أو اعلان المقاطعة أعلن مجلس النقابة الأعلى الممثل لجمعيات العمال والاصناف والمهن المقاطعة اعتباراً من مساء **١٩٣٤/١٢/٥** واذاع بياناً بهذا المضمون للاهلين وهذه صورته:

إلى الشعب العراقي الابي
إلى كل ذي وجدان حي
إلى الغيارى على مصالح البلاد

لقد جرب الشعـ ـ ـقي الكريم في مواقف عديدة الفائدة التي تحصل بالتضامن والاتحاد وها نحن أمام تجربة أخرى مصيبتها عمت الجميع وضررها تناول عموم افراد الشعب ذلك هو الطمع الذي نراه في شركة الكهرباء الاجنبية في العاصمة التي لم يكفها ربح اربعين الف دينار سنوياً من ثروة هذه البلاد ولم يسد جشعها الاشعبي زيادة هذا الربح إلى خمسين الف دينار في السنة ولم يكفها الربح الهائل من فوائض التأمينات ولم يكفها انها تخلصت من امتياز الترامواي يكبدها خسائر كبيرة حتى وجدناها تستمر في استيفاء ما كانت تتقاضاه أيام الاحتلال حينما كانت البلاد مملوءة بالذهب والرخاء الاقتصادي العام (والادارة العسكرية تحكم البلاد ولا رأي لاهلها حينذاك) فبقاء الشركة الاجنبية على وضعها الحالي وسكوت الشعب على هذه الحالة المزرية مما يزيد في طمع الشركة الاجنبية فينا وأحسن درس نمليه على طمعها هو المقاطعة العامة وبذلك وحده نفهم هذه الشركة وغيرها اننا (شعب ابي) لا يرتضي لنفسه ان يكون لقمة سائغة بافواه الاجانب الطامعين فيكفينا ان تكون مشاريعنا نهباً بيد الاجنبي ويكفي ان يتنعم الاجانب الذين لا يشعرون بشعورنا القومي والوطني بخيرات اراضي الآباء والاجداد.

ايها الشعب النبيل: لقد مضت مدة تقارب الاربعة اشهر على اليوم الذي ابتدأت فيه جمعيات العمال والاصناف والغرفة التجارية والنوادي والشركات الوطنية و و و... الخ

تطالب شركة الكهرباء الاجنبية بتخفيض اثمان الوحدة الكهربائية الباهضة التي تتقاضاها فلم تسفر مطاليات الجميع عن نتيجة ما بالنظر لمماطلة الشركة ومراوغتها وهكذا بقيت الشركة مخدوعة بدعوى سماسرتها الذين افتضح امرهم وقد فاتها ان الشعب استيقظ ولم يعد يصبر على احتمال تصرفاتها وان قضية الكهرباء لم تعد قضية اقتصادية فحسب بل قضية كرامة. والشعب باجمعه سيستمر على المقاطعة إلى ان تذعن الشركة لطلبه مهما طال الامد.

ياهالي بغداد الكرام:

ان اثمان الوحدة الكهربائية في الهنيدي باربعة عشر فلساً وفي معمل الشالجية بعشرة فلوس وفي السكك الحديدية غربي بغداد بثمانية فلوس وطراز المعيشة في المحلات التي مر ذكرها والعاصمة واحد. اذاً أفليس من الحيف ان تتقاضى الشركة الاجنبية ثمانية وعشرين فلساً ثمن الوحدة الكهربائية من الاهلين. وهل في الشعب فرد يقر لهذه الشركة عملها هذا غير المشروع؟ لذلك فاعتماداً على مؤازرة الصحافة والمخلصين ورجال الدين والمحامين والنوادي والهيئات الوطنية والشباب وسكان المحلات الذين اجمعوا على وجوب مقاطعة شركة الكهرباء الجائرة قرر مجلس نقابة اتحاد العمال الأعلى الممثل لجمعيات العمال والاصناف وارباب المهن: اعلان المقاطعة العامة اعتباراً من مساء الثلاثاء ٥ الجاري.

ايها الاهلون الكرام لقد قمتم منذ البدء بالدعوة إلى المقاطعة بما يسجل لكم بمداد الفخر والاعجاب. والآن نؤمل منكم ان تكونوا كالبنيان المرصوص في القضايا العامة فقاطعوا جميعاً هذه الشركة حيث الأمة لا تستطيع ان تسترجع حقاً اغتصبه الاجنبي إلا بالتآزر والتضامن وهؤلاء اخواننا السوريون لما وجدوا انفسهم مغبونين من هذه الشركة الكهربائية نفسها (التي تقوم بالتنوير في سوريا أيضاً) لم يروا سلاحاً أقوى وأمضى من المقاطعة التي اعلنوها وثابروا عليها إلى ان نزلت الشركة عند مطالبهم وهكذا كتب لهم الفوز فالاجنبي المستثمر لا ينزل عند مطاليب الشعوب إلا اذا تضامنوا واتحدوا اتحاداً قوياً وما عملنا هذا تجاه شركة الكهرباء الاجنبية إلا التجربة التي تتجلى فيها هيبة الأمة وكرامتها فحافظ ايها الشعب الابي على عزتك بمقاطعتك مقاطعة تامة وان مجلس النقابة الأعلى واثق من ان المقاطعة ستعم انحاء بغداد باسرها وان الشركة ستنزل عند رغبة الأمة فتجيب طلبها العادل فإلى المقاطعة ياهالي بغداد الكرام.

مجلس نقابة اتحاد العمال الأعلى

فلبى الاهلون طلبه وقاطعوا الكهرباء ولما رأت الشركة ذلك الاتحاد اتفقت مع الحكومة على تخفيض فلسين عن كل وحدة فجعلتها ٢٦ بعد ان كانت ٢٨ واجرت تخفيضاً آخر للمحلات الكبيرة بان تتقاضى عن الوحدات التي تزيد على الخمسين كيلواط الاولى ١٢ فلساً وان تضع مقياساً خاصاً لهذا الغرض ودعت الحكومة رئيس نقابة العمال وأعضاء المجلس الأعلى للنقابة وبينت لهم ما تم بينها وبين الشركة من الاتفاق على هذا التخفيض فلم يكتفوا بها لضآلتها لذلك أعلنت النقابة استمرار المقاطعة واذاعت بياناً هذا نصه.

جواب نقابة اتحاد العمال
لوزارتي الاقتصاد والمواصلات والداخلية

ياصاحبي المعالي

لقد قرر مجلس نقابة اتحاد العمال الأعلى الممثل لجمعيات العمال والاصناف وارباب المهن ما يلي:

١ ـ عدم الموافقة على التخفيضات التي جرت (بين شركة الكهرباء الاجنبية والحكومة) على أسعار الوحدات الكهربائية لأن هذا التخفيض من الوحدات الكهربائية ضئيل جداً لا يتناسب مع طلبات الاهلين ولا يزيل الغبن الذي كان ولا يزال يلحقهم من هذه الشركة التي استنزفت ثروة البلاد بغلاء الاسعار التي تتقاضاها وتذهب بها إلى الخارج.

٢ ـ ان تكون المراجعات حول القضية الكهربائية بين مجلس النقابة والحكومة تحريرية وان لا يذهب أي عضو من اعضاء المجلس للمفاوضة بهذا الشأن نظراً لما لاقاه بعض الاعضاء من سعادة متصرف اللواء.

٣ ـ تبليغ اعضاء عموم الجمعيات والاصناف ومساعدي المجلس وانصاره عدم استعمال العنف في بث الدعوة للاستمرار على المقاطعة مع الاجانب الذين لا يشعرون شعور ابناء البلد والذين سينشر المجلس قائمة باسمائهم ليطلع عليها الشعب، ولقاء ذلك يطلب المجلس إلى الحكومة الموقرة ان تلتزم جانب الحياد وان لا تنتصر لشركة الكهرباء ان لم تكن في جانب الاهلين وتجبر الشركة على اجابة طلبهم المشروع.

٤ ـ ان تعاد القوة إلى جميع المحلات التي قطعها أو سيقطعها اصحابها منذ ابتداء بث الدعاية للمقاطعة إلى ان تنتهي المقاطعة بموجب اتفاق يكون في صالح الشعب ـ ويذاع على الاهلين من قبل المجلس ـ مجاناً، وان تعاد نفس القوة التي كانت مستعملة

قبل قطع المجرى سواءاً كانت للمراوح أو المصابيح.

٥ ـ يشكر المجلس الاهلين الكرام على اختلاف طبقاتهم ومللهم لمعاضدتهم اياه واتحادهم على المقاطعة إلى ان تخضع الشركة وتنزل عند ارادتهم وتخفض الاسعار بالصورة التي يرضونها.

وفي الختام يؤكد المجلس للاهلين النبلاء ان الفوز حليفهم والكلمة العليا لهم والشركة ستنزل عند ارادتهم حتماً مهما انتهجت من الاساليب والدعايات المنكرة التي لا تلبث ان تمزق أمام تضامن الشعب الابي وتراص صفوفه.

مجلس نقابة اتحاد العمال الأعلى

واستمرت المقاطعة رغم بيانات الشركة والحكومة بانهائها.

كتاب متصرف لواء بغداد
إلى محمد صالح القزاز

لقد لوحظ انكم نسبتم إلى انفسكم صفة معتمد لشخصية معنوية جديدة اسميتموها بنقابة اتحاد العمال في العراق ولما لم يسبق لهذه المتصرفية علم رسمي بوجود شخصية قانونية كهذه، فعليكم ان تبرزوا فوراً الوثائق الرسمية التي تثبت تأليف النقابة المذكورة.

بغداد في ١١/ ١٢/ ٩٣٣

التوقيع عبد الرزاق حلمي
متصرف لواء بغداد

الجواب

سعادة متصرف لواء بغداد

اشارة لكتابكم المرقم ١٩٣١٨ والمؤرخ ٢٣/٨/٣٥٢ و١١/١٢/٩٣٣.

ان نقابة اتحاد العمال ليست مؤسسة جديدة بل هي عين مؤسسة جمعية عمال الميكانيك العراقية التي اجتمعت هيأتها الادارية وقررت بحسب صلاحيتها المخولة لها في المادة (٥٨) من نظامها الداخلي المصدق وفيما يلي نصها: «للهيئة الادارية حق التبديل والتزييد في النظام عند الاقتضاء» تغيير اسمها وتبديل نظامها وبلغت وزارة الداخلية بذلك

في الكتاب المرقم (٧٢٨) والمؤرخ في ٣ صفر ٣٥٢ الموافق ٢٨ أيار ٩٣٣ الذي ربط بطيه النظام المعدل وفق المادة (٩) من قانون تأليف الجمعيات لسنة ٩٢٢ التي نصها فيما يلي:

«كل ما يحدث في نظام الجمعية أو مركزها من التغيرات يجب ان يبلغ فوراً وزير الداخلية» وباستطاعتكم ان تتأكدوا ذلك من وزارة الداخلية وقانون تأليف الجمعيات لسنة ٩٢٢ المرعي في العراق ينص كما جاء في المادة المدرجة اعلاه عند تعديل نظام مؤسسة ما واخبار وزارة الداخلية بذلك وليس فيه ما يتطلب موافقتها، وهذا ما عملناه لدى تغييرنا النظام.

بغداد في ١٧/ ١/ ٩٣٥ — التوقيع: محمد صالح القزاز

المعتمد العام لنقابة اتحاد العمال في العراق

وفي ذلك الاثناء اعلنت الحكومة عزمها على تأليف لجنة من ممثلي وزارات الداخلية والمالية والاقتصاد والمواصلات لفحص سجلات الشركة والاطلاع على ارباحها وتعهدت بتنفيذ ما تقرره هذه اللجنة وطلب إلى عميد النقابة الاشتراك بهذه اللجنة فطلب ان يكون عدد من يشترك في النقابة مساوياً لعدد ممثلي الحكومة ولما لم تلب الحكومة طلبه رفض الاشتراك فيها وبعدها ابلغت الحكومة رئيس النقابة والصحفيين بعدم مشروعية النقابة وعند ذلك اتحدت كلمة عموم جمعيات العمال والاصناف الاخرى على تنفيذ كلما تقرره وأذاعوا البيان التالي:

جميع جمعيات العمال
والاصناف وارباب المهن
يؤيدون نقابة اتحاد العمال في جميع أعمالها

لفخامة وزير الداخلية الافخم

بعد التحية: نحن الموقعين ادناه ممثلي عموم جمعيات العمال وارباب المهن لما كنا قد اجتمعنا في ١٠ ـ ١٠ ـ ٩٣٣ في مركز نقابة اتحاد العمال بدعوة من معتمدها العام وبتفويض من جمعياتنا واصنافنا وتألف من مجموعنا المجلس الأعلى لنقابة اتحاد العمال الممثلة لعموم جمعيات العمال والاصناف وارباب المهن وبالنظر للتطورات التي حدثت

بصدد مقاطعة شركة الكهرباء الجائرة تجاه النقابة نعلن بهذا تضامن واتحاد عموم جمعياتنا واصنافنا للعمل على تحقيق كلما تقرره نقابة العمال (مهما تحاول الحكومة ان تفعل تجاهها لأن المصلحة العامة هي التي جمعت وتجمع بيننا) وسنستمر في الدعوة إلى المقاطعة التي قررها مجلس النقابة الأعلى إلا ان تخضع الشركة لارادة الأمة وتخفض اسعارها الباهضة التي استنزفت بها ثروة البلاد. ونرجو من فخامتكم ان تصونوا النقابة من ان تتدخل بشؤونها بعض الجهات أو تحظر عليها الاجتماعات التي خولها اياها نظامها ولفخامتكم مزيد الاحترام.

صورة منه، لحضرة المعتمد العام للنقابة

التواقيع

رئيس جمعيه عمال المطابع وأحد اعضائها (ممثلي الجمعية)، رئيس جمعية البقالين وسكرتيره (ممثلي الجمعية)، رئيس جمعية تعاون الحلاقين ونائبه (ممثلي الجمعية)، رئيس جمعية اتحاد المقاهي والمطاعم والفنادق (السكرتير وأحد الاعضاء، رئيس صنف عمال السكريات، رئيس صنف الحدادين، رئيس صنف الصفارين، رئيس صنف البزازين، رئيس صنف الكوازين، رئيس صنف العلافين، رئيس صنف الخياطين، رئيس صنف عمال الاحذية، رئيس صنف الأطرقجية، رئيس صنف البياضين، رئيس صنف القصابين، رئيس صنف النساجين، رئيس صنف سواق السيارات، رئيس صنف مصلحي وبائعي الدراجات.

وفي ٢٥ ـ ١٢ ـ ٩٣٥ دعت الحكومة رئيس النقابة وعدداً من رؤساء الجمعيات الاخر للمفاوضة بشأن اجراء تخفيض ثان لاسعار الكهرباء غير انها ابعدت فجأة رئيس النقابة وستة من رؤساء الجمعيات والاصناف إلى كركوك (ومنها إلى السليمانية) وبعد بضعة ايام اغلقت مركز النقابة والجمعيات واوقفت عدداً من اعضائها البارزين وربطت قسماً آخر بكفالات متنوعة وحكم على قسم ثالث بتهمة نشر مناشير لحض الاهلين على الاضراب بعد نفي رئيس النقابة ورفقائه وقد جرت مناقشة حادة في المجلس النيابي حمل فيها المعارضون على الوزارة المدفعية الأولى القائمة بالحكم اذ ذاك حملة شديدة وعدوا الغاء نقابة العمال ونفي عميدها ورفقائه أمراً غير مشروع. وبعد ان قضى المبعدون ٦٣ يوماً في السليمانية ويومين في كركوك و٢٢ يوماً في بعقوبة اعادتهم الحكومة قبل موعد عودتهم بثلاثة أيام بعد منتصف الليل خشية حدوث ما لا يحمد عقباه في المهرجانات التي قرر الاهلون واصحاب الحرف والصنائع اقامتها لاستقبالهم.

وقد اعدت الوزارة الحاضرة لائحة قانونية لتنظيم شؤون العمال وتأسيس النقابات اللازمة لهم وعرضها على البرلمان لمصادقتها وينتظر ان يصادق عليها عن قريب.

ترشيح ممثل لعمال العراق في مؤتمر العمل الدولي
حضرة صاحب الفخامة رئيس مجلس الوزراء الموقر

بعد تقديم الاحترام

لما كان مكتب العمل الدولي في جنيف الملحق بعصبة الامم قد وجه الدعوة إلى حكومتكم الموقرة لترسل مندوبين عنها إلى مؤتمر العمل الدولي المنوي انعقاده في ٨ حزيران ٩٣٣ وان نظام المكتب المذكور يقضي بان يمثل كل مملكة داخلة في العصبة ثلاثة مندوبين (١) مندوب الحكومة (٢) مندوب العمال (٣) مندوب اصحاب المعامل ـ الشركات ـ وان يستصحب كل من المندوبين بمستشارين واعضاء بالنظر إلى الحاجة. وحيث ان غرض العصبة من عقد مثل هذه المؤتمرات هو الوقوف على شكاوي العمال واجوبة الشركات ورأي الحكومة في ذلك فقد استاءت اوساط العمال هنا للنبأ الذي اذاعته احدى الصحف المتضمن عزم الحكومة على ابقاء الحاكم البريطاني المستر «لويد» لتمثيل عمال العراق في المؤتمر الموضوع البحث وذهبت في تفسير ذلك إلى مذاهب شتى. ولكن تصريح فخامتكم في المجلس وتصريح معالي وزير الداخلية لمندوب احدى الصحف قد هدأ روعهم وازال ما كان عالقاً بالاذهان. والآن والمؤتمر على ابواب الانعقاد فجمعيات العمال المجازة ترى من واجبها ان ترشح لتمثيل عمال العراق في المؤتمر المذكور المعتمد العام لجمعية عمال الميكانيك العراقية (محمد صالح القزاز) لأن المومى اليه قد سبق له ان مثل العمال العراقيين في جميع المواقف التي تخصهم وهو ذو خبرة بمطاليب العمال وشؤونهم تؤهله لأن ينتدب لهذه المهمة وفضلاً عن ذلك فانه يحسن اللغة الانجليزية ومطلع على انظمة ومقررات المكتب المذكور بالنظر للمكاتبات التي كانت ولم تزل دائرة بينه وبين المكتب المومى اليه وهيآت العمال الدولية الأخرى. كما انه فوضته ان يختار من بين العمال مستشارين واعضاء من يجد فيهم الاخلاص والقدرة اذا اقتضت الحاجة لذلك.

ياصاحب الفخامة ان جمعيات العمال التي تعتقد بعطف وزارتكم على قضايا العمال تأمل ان تجيبوا طلبها هذا وتود ان تعرض لمجلسكم الموقر بان الطبقة العراقية العاملة لا ترضى ان يوفد عنها غير مرشحها لانها ترى ذلك امتهاناً لكرامتها لا تستطيع

احتمالها. وعلى كل فاننا نأمل ان يقدر مجلسكم موقف العمال واحقية طلبهم فيقرر ما تقتضيه المصلحة العامة ويرتاح له العمال وانا لذلك لمنتظرون.

صورة منه:

لسماحة رئيس مجلس الاعيان الموقر.

لمعالي رئيس مجلس النواب الموقر.

لمعالي رئيس الديوان الملكي الموقر.

لمعالي وزير الداخلية الافخم.

نائب المعتمد العام لجمعية عمال الميكانيك

رئيس جمعية عمال المطابع العراقية

رئيس جمعية تعاون الحلاقين

رئيس جمعية البقالين

العمال لا يعترفون بمن اوفدتهم الحكومة لتمثيلهم في مؤتمر العمل الدولي

مقتبسة عن جريدة الاهالي عدد ١٩٠ صباح الخميس ١٤ صفر ٣٥٢ الموافق ٨ حزيران ٩٣٣ الكتاب الذي ارسله أمس لفخامة رئيس مجلس الوزراء الموقر ولمعالي وزير الداخلية ممثل العمال العراقيين المتضمن موقف العمال تجاه من اوفدوا لتمثيلهم في مؤتمر العمل الدولي الذي سينعقد اليوم (٨ حزيران) في جنيف.

ياصاحب الفخامة. كانت جمعيات العمال وأرباب المهن المجازة قد بلغت مجلسكم الموقر في ٢٩ محرم سنة ٣٥٢ الموافق ٢٤ مايس سنة ٩٣٣ بقرارها المتضمن موقفها تجاه مؤتمر العمل الدولي الذي سينعقد في جنيف في ٨ الجاري وكان أمل العمال ألا تكتفي وزارتكم بتحويل الايفاد من البريطاني المستر لويد إلى العسكري باشا وموسى جلبي الشابندر اللذان سيشتركان بطبيعة الحال بتمثيل جهة الحكومة من الوفد الذي يجب ان يؤلف من ممثلي ثلاث جهات (الحكومة والعمال والشركات) انما ترسل وفداً كاملاً سيما

والبلاد قد نفضت عنها غبار الانتداب رسميا واصبح في مقدور رجالها ان يقوموا بمهام الدولة دون ان يأخذوا الاستشارة في نظر الاعتبار. أما وقد قضت ارادة بعض الجهات ان لا تقيم وزارتكم للرأي العام ولطلبات جمعيات العمال والاصناف وزناً ـ برغم ما كان معلقاً عليها من الآمال الكبيرة ـ فلا يسعنا إلا ان نبلغ فخامتكم بأسف العمال الشديد واستيائهم من هذا العمل ونزيدكم ايضاحاً بان العمال لا يعترفون بالوفد المرسل إلا كممثل لجهة الحكومة فقط من الوفد الكامل وهم يطلبون إلى الحكومة ان لا تميز بين طبقات الشعب الواحد فتجعل العمال والفلاحين كطبقة العبيد في نظر الاسياد يمثلهم حتى في مؤتمراتهم الخاصة اناس لا يمتون لطبقتهم بصلة ولا يتحسسون بما يحس ويشعر به العمال وكان الاولى بالحكومة ان لا تشترك في المؤتمر اذا كانت عازمةعلى ارسال من لا يرغب العمال في ايفادهم هذا والأمل ان تغير الحكومة موقفها تجاه طبقة العمال وتعمل لتحقيق ما كانت تستحسنه قبل أخذ المسؤولية وان لا تضطر العمال بأن يتسرب إلى نفوسهم الاعتقاد ان الحكومة تعمل لرفاه فئة خاصة بضغط وسحق عواطف وشعور الطبقة العاملة التي منها تجبى الضرائب وهي المكلفة بالدفاع عن كيان المملكة عند وقوع الخطر اذ ان ذلك يؤدي إلى نتائج ليست في صالح الحكومة والشعب هذا وبطيها تجدون البرقية التي طيرناها لرئيس مكتب العمل الدولي بهذا الشأن وتفضلوا بقبول فائق الاحترام.

محمد صالح القزاز
عن العمال العراقيين
المعتمد العام لنقابة اتحاد العمال

برقية عمال العراق لمؤتمر العمل الدولي بجنيف

البرقية التي طيرها في ٦ ـ ٦ ـ ٩٣٣ ممثل العمال العراقيين الذي اجمعت عموم جمعيات العمال وأرباب المهن والاصناف على ترشيحه لتمثيل العمال في المؤتمر المتضمنة عدم الاعتراف بمن اوفدتهم الحكومة.

جنيف، مدير مكتب العمل الدولي

الموفدين لمؤتمر العمل الدولي الذي سينعقد في ٨ الجاري يمثلون وجهة نظر الحكومة فقط مطاليب العمال اهملت ولم تنفذ.

القزاز
ممثل العمال العراقيين

صورة الكتاب المرسل من مكتب العمل الدولي بجنيف

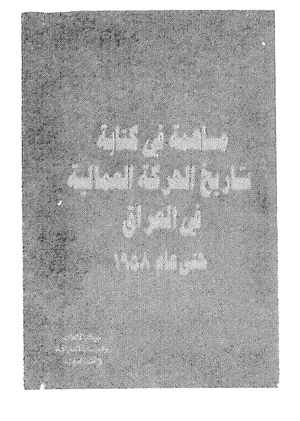
رفيقي العزيز محمد صالح القزاز رئيس جمعية العمال الميكانيك في العراق

وصلتني برقيتكم المؤرخة ٦ حزيران بخصوص تأليف الوفد العراقي للجلسة السابعة عشرة من مؤتمر العمل واؤكد لكم بان اعضاء المؤتمر علموا ان المندوبين (العراقيين) الموجودين هناك هم يمثلون وجهة نظر الحكومة. ان الوفد الكامل كما تعلمون يتألف من مندوبين عن الحكومة اثنين وواحد عن المستخدمين وواحد عن العمال ولكن يحدث عادة في الممالك التي يكون فيها مؤسسات اصحاب المعامل ومؤسسات العمال في بدء تطورها أو لا وجود لها ان ترسل الحكومة مندوبين عنها فقط للمؤتمر وهذه القضية جرت في هذا العام مع ١٢ مملكة في ضمنها العراق... وهذه المسألة وان لم يعلق عليها في مؤتمر هذا العام تعليقاً خاصاً، غير ان المؤتمر يعلق أهمية وجوب جعل أكثر الوفود كاملة بقدر الامكان. وقد اصدر في ٩٢٤ قراراً يبين فيه أهمية وجوب التوازن في تمثيل المندوبين كما جاء في القسم الثالث عشر منه.

وعلى كل فالقرار في امكان أو عدم امكان تعيين وفد من مندوبي العمال والمستخدمين يتوقف على الحكومات فاذا كان لهؤلاء المندوين مؤسسات منظمة تنظيماً جيداً تمكنت من التأثير على الحكومات ويحتمل نجاحها.

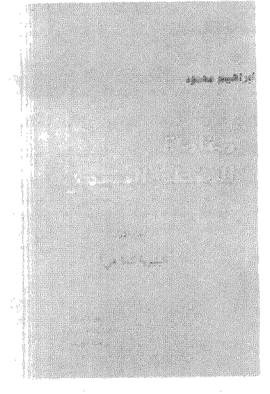
لذلك فمن المهم من وجهة نظر ضمان ممثلين عن العمال المنظمين في مؤسسات لأية مملكة ما في مؤتمر العمل الدولي ان يكون هناك نقابات عمال منظمة تنظيماً جيداً وموحدة بمؤسسة مركزية. ففي الممالك كاليابان والهند كانت قضية تعين وفد العمال لحضور المؤتمر كنواة جمعت ووحدت حولها حركة النقابات. وتطور مثل هذه الحركة في العراق التي يرقبها مكتب العمل الدولي بعطف، ستعمل على تقريب اجابة طلبكم بتمثيل العمال في المؤتمر.

التوقيع
المخلص ادستال
رئيس مصلحة مؤسسات العمال
في مكتب العمل الدولي بجنيف



يسكن في هذا الكتاب تاريخان: تاريخ العراق وتاريخ الطبقة العاملة العراقية. واذا كان حظ الأول كبيراً من حيث الاهتمام، فان هذا المؤلف يحاول ان يعوض الشحة في دراسة تاريخ الطبقة العاملة العراقية.

وفي منهجه يتتبع الكتاب تاريخ بدايات التشكل الطبقي في سياق التطور التاريخي العام للدولة والمجتمع العراقيين، دون اغفال الجانب السياسي في نشاط حزب الطبقة العاملة، والتجربة الهامة التي اكتنزتها الحركة الوطنية والعمالية العراقية خلال تطورها التاريخي



هذا الكتاب

إنها مقولات لا تكل المناهج والمذاهب والتيارات الفكرية، التي سبقتها وظهرت في عصرها، وهي ترفض ان تضع نفسها في اطار منهج، أو مذهب، أو تيار فكري محدد، لأنها تتكلم بمنطق العلم كما تدعي (تقدم لنا ماركسية جديدة، بقراءتها «علمياً» عند (التوسير)، وتضع السحر مقابل العلم عند (شتراوس)، وتفضل الانفصال على الاتصال في التاريخ، والباطن على الظاهر في الخطاب النقدي الفكري، عند (فوكو)، واللامدون على المكتوب، واللامحكي على المحكي، والغياب الفلسفي، على الحضور الفلسفي، عند (دريدا).

وتعتبر التاريخ علماً «منفصلاً»، عند (برودبل)

وتمسح خطاب اللاشعور، الحضور الأول لفهم الذات، عند (جاك لاكان)... الخ). هذه هي الخطوط العامة، الظاهرة والسرية، التي بدأت في ستينات هذا القرن، ومازال لها حضورها الفكري والاجتماعي..

انها مغامرة المنطق البنيوي.

وما يقدمه هذا الكتاب، هو معايشة لهذا المنطق، واحضاره في ضوء الواقع، وربط هذه المغامرة بجذورها الاجتماعية والتاريخية!

هذا هو موضوع الكتاب، الذي يشكل حقيقة، لها تاريخها المحدد.

حقيقة نرى في نسبية حضورها، والمناقشة معها، حضورها الانساني!


أدب وفن



بارقة اليوميات الأسيرة

خلدون جاويد

بعد التي واللتيا . . ظلت الكراسي أكثر من عدد الجالسين، وقبل انتهاء ساعات الدوام المتعارف عليها، خلا البيت. خلت الحجرات إلاّ من دندنات آلة طابعة، وامرأة صفراء تلفظ السين شيناً.

رحت إلى جرائد قديمة في الرفوف. . هناك اعتصرت روحي مجلّداتٌ مغلفة بجلاد أسود ثخين كأنها قواميس، خفت من مسها أو فتحها بل وحتى من النظر اليها. . انها تذ شرني ببشر مات مرتين. . باقلام، باتعاب، بليالي سهاد، بحيوات مثقفين، بعوائل حملت الراية أو الصليب أو. . . . . .

جلست إلى الطاولة، أمام نافذة تطل على جدار كونكريتي. . كانت هناك امرأة فاتنة تقابلنا نافذة بنافذة. . اليوم لا وجود لها. . لا أملود عطير يقرص الملابس على الحبل ويرفع بزنديه الجميلين إلى الأعالي. . اليوم لا أحد هناك سوى هاجس من أسى شفيف.

ظلت تطقطق الآلة. . بملل تطلعت إلى كل ما يكتب، الاخبار هي هي، الرؤساء هم المتصدرون لواجهة كل جريدة، نساء انصاف عاريات، كرة قدم، ممالاة، كتاب نفطيون، مرتزقة تقدميون يستنسخون ما تريده حكومة أو حزب أو دكان أو جمعية رفق أو أقبية أخرى. . .

قلبت بسرعة الجرائد أجمع. . . ركنتها جانباً. . . لذت بالمكان، شعرت باختناق من وطأة الحجرة الصفراء، والدواليب الجامدة، والمناضد التي يتكدس عليها العدد

الجديد من المجلة. نهضت وأنا أتطلع إلى بوسترات سياسية لشهداء، ونضالات عنيفة ربما سيمزقونها قريباً! هكذا فرز عقلي لحظتها.. هناك احتمال باننا سنعود القهقرى إلى سياسة القس غابون، ونحمل صورة القيصر والايقونات.. ربما.. ربما.. ومن ثم يكون الأحد الدامي.

ويومها سنكفكف صورنا الخاصة، ونؤرشف تاريخنا الجامح، ونعتذر عن خصائصنا النشاز غير الممسطرة مع واقع لم نفهمه بوقتها: ألم تشر هذه الوثيقة أو تلك إلى هذه الخاصة.

رحت أمشغل نفسي... اجتزت الصالة الصغيرة إلى المطبخ لن أمر تحت الطاق وانحني، وأعود كالأسير.. أبداً.. لماذا أعود؟ لبقايا هم أهلي؟.. لموتى واجساد شبه منقرضة... هل أعود لأخذل افكاري هذه المرة... قالت زوجتي ـ سيبصقون بوجوهنا اذا عدنا!

صببت لي شاياً.. بارداً كان!.. مراً في فمي.. آلة الطابعة تتناهى إلى سمعي بطقطقاتها.. فتحت باب (الثلاجة) عليّ احصل على كعكة صغيرة، فمن المعتاد ان يضعوه بداخلها في كيس نايلون أو أحيانا فوقها.. تطلعت إلى الأعلى.. لا شيء من ذلك.. وليس سوى قناني ماء بارد نصفها فارغ.. أو مملوء كما يراد ان نقول تفاؤلاً.

ـ (صُفَتْ حُكَّهْ ياصاحب مَنّهْ بيهه!)..

اغلقت بابها.. وعدت لأجلس.. لم أدرِ بما أبدأ.. كيف أعمل؟.. فالكلمات ما عادت تدخلني.. روحي اسفنجة ممتلئة بماء مطر غزير.. لا امكانية لأمتصاص أية قطرة أخرى.. التفت رأيت مجلة ما.. وضعتها أمامي تصفحتها شارد الذهن.. عدت تصفحتها فهمت سطحياً بعض ما فيها.

شربت الشاي إلى النصف.. ذهبت لاسكبه في المغسلة.. بألم عدت إلى حقيبتي اليدوية الصغيرة... شاهدت كيساً مكتوب عليه (للتصحيح رجاءً).. الفتاة ما زالت تعزف لحناً حزيناً على الآلة الكاتبة، النافذة المقابلة مغلقة.. ملفات الارشفة تخنق الانفاس، ثقافة السلطة، المعارضة، الحركة الكردية، الحركة الشيوعية، صفر «البريسترويكا»، شبيبة، طلبة، مرأة، طلائع. أرفف أرفف. صور الشهداء... دندنات طابعة... تصحيح رجاء.. طاولات فارغة.. مسافرون سافروا وآخرون على لائحة الانتظار...

سأغطي انسحابكم يارفاق! ولكن كيف لي ان أعمل بغيابكم، ان اضع رأسي في قدر الماء الحار هذا، تأكلني الجدران، التناقض ما بين رغبتي للموت، وما بين طربوش السلام الذي يضعونه على رأس الكوكب.

سم كيمياوي آخر. هنا في الأعماق. . .
الموت وحده أهون من انسان تفترشه وحشة الطاولات هذه
ـ مع السّلامة

اجابت الفتاة شبه الصفراء على تحيّتي، سددت الباب، الذي كان مفتوحاً بحضوري، خوفاً عليها. لقد بقيت وحدها. . تأكدت من غلق الباب تماماً.

ـ نظرت إلى اليمين رأيت بابين مفتوحين وطاولات. . طاولات عديدة تكاد تبكي! احداهن غادرها صاحبها إلى السويد، الأخرى لصديقي الذي اغلقت مجلته المتهمة بالاقلية! وخلال أيام سيلتحق هو الآخر بزوجته واطفاله. . و (سليم) سوف يعالج عينيه في الاتحاد السوفييتي ليلتحق من هناك بلندن. . و (راضي) ينتظر تخرج زوجته ليمضي معها إلى شمال افريقيا. . وابو (أفراح) يتململ و (عمر) إلى دول الخليج فلديه علاقات مع أهل (العُكل) فلربما عيّنوه. . ولا يهم، من أجل (العيشة) ان يكتب بعد ان يرتدي دشداشة بيضاء و (يشماغ وعقال رفيع).

زميلي القديم باع حاجياته. . امس زرناه. . ودعناه والعائلة. . انقبضت صدورنا. . ان الطريق إلى كندا موحش وطويل!

ظلت اذن الكراسي أكثر عدداً من الجالسين عليها. . دخلت المطبخ. . كان هو الآخر باقداح قليلة. . قليلة جداً

تطلعت إلى الارفف وربما كنت أبالغ بما يعتلج في عمق حواسي وكآبة رصدي. . تذكرت (ابا نامق) الذي غادرنا. . والذي كان مسؤولاً عن التموين. . كان (طيب الله ثراه مسبقاً) يعوض ما يكسر من اقداح بشراء أُخر جديدة. . واليوم (يسهر المصباح والاقداح والذكرى معي)! واليوم تتناقص اقداحنا. . ولا من يشتري. . ولمَ يشتري؟

المقالات هي الأخرى ميتة. . لا روح فيها. . نعم. . نشتم هذا الملك وذلك السلطان. . والرئيس. . ولكن إلى أين؟ لقد ماتت أو تماوتت حركة التحرر! نعلم بذلك!. لكنهم يريدونها، هذه المرة، حركة للديمقراطية والتقدم الاجتماعي بمعنى التأكيد على الوحدة أكثر من الصراع.

ـ اقبض من دبش.

اليد التي لاويناهـا، يريدون ان نقبلها. . . بعد فوات العمر لن يحدث ذلك. . ليحفر كل منا قبره أفضل. . . ليتجنس كذباً أو صدقاً أنبل، ليترسم شرفاً جديداً في بقعة من بقاع الارض الام، ومستقبلاً لاطفاله و (يكرّك) عليهم حتى يكبروا وليمت جريح القلب. . السويد، كندا، لندن، الدانيمارك. . ولا العصابجي.

ذهبت متورم القلب. . انزل على السلم بخيبة. . كأني أودع انفاسي. . أو كأني

أحمل شخصاً بديناً على اكتافي . .

ظلت عقدتي طيلة النهار، لا استطيع ان أرى أولادي لكنني دللتهم اعتيادياً . . لم أشأ ان آكل لكني أكلت على الماشي، كل شيء كان مسالماً غير ان الحرب كانت في دواخلنا . . وجه زوجتي كان اصفر هو الآخر.

في الليل لم استطع ان أنام . . كانت الثالثة صباحاً . . اصرار قوي على عدم شرب بقايا عرق على الرف في المطبخ . . كنت أنام بعض الليالي بالمشروب، زوجتي بأي سم كانت تنام؟ بعد حين انتبهت هي إلى قلقي . . كان ظهري على الوسادة ورأسي معوّجاً على خشب السرير.

- مالك . . ماذا بك؟

- لا استطيع النوم . . ولا يعجبني ان اذهب إلى الحجرة الأخرى . . .

- هوّن عليك . . حاول.

- (. . . . .) لم اجبها . . تذكرت يحيى السوريث وقصيدة السرطان . . . و . . .

«هوّنْ عليك فما التفجع مانع   قدرا ولا أجل بموت يسبق» . .

- لماذا لا تذهب إلى الحجرة الأخرى لتقرأ . . .

- اقرأ ماذا؟ . . الخراب . . . . نامي . . . نامي رجاءً . . سأدبر أمري .

أخيراً نمت بالقاضية .

قبل يومين اشتريت نظارة لمعالجة (قصر النظر) . . لكني لم استعملها ظللت أدور في حجرات الدار . . . أخيراً عدت إلى التدخين بعد انقطاع دام عامين . .

ظلت تناكدني هي الأخرى . . اذ ربما تنفجر القرحة ثانيةً . . . لا يجب عليّ ان أدخن . .

الطاولة والكتب . . . والجدار الذي عملت منه سبورة من عناوين، وملاحظات وأرقام، وأسماء، وقومسة . . كلها، كلها بدأت تنأى عني . . أو تتراخى . . أو تصفر أوراقها.

مجلات مهملة هنا وهناك . . ندمت اني اشتريتها أو تقبلت أخذها من (ابو فلان) ندمت اني فتحت جرح هذه القضية أيضاً قالت:

- يعجبني أحياناً الملف الأدبي فقط . . وعدا ذلك لا أحس إلّا بالاعادة أو التكرار . . .

- أنا أيضاً لم أعد اهتم ٩٩.٪ من كل ما يطبع خرط!

- إلى أين اذن؟

- إلى هوة . . وشتات المصير . . . أنا افهم الأمور بشكل آخر . . افهم ان ما بين ١٩٠٣ و١٩١٧، ١٤ عاماً من عمل ثقافي وسياسي أفضى إلى فعل . . فإلى أين تؤدي خربشاتنا اليوم؟ . . . ومع ذلك أقول لابد . . . لابد من كتابة . . ولكن كيف هي؟ . . ان أجمع ٥ - ٦ مقالات وأبدي رأياً فيها لأقول هذه ثقافة! أنا أمجد الشهداء فحسب؟ ان اؤرخ الهـزيمة ، ان ارثي لوركا ، واعيد اعتبار يسينين وليرمنتوف وتشايكوفسكي ، ماذا افعل . . لابد . . لابد من زلزال . . ولكن زلزال في الفراغ أم على الأرض؟ . . . أي اسلوب يقتضينا لشيء اسمه ثقافة؟

- الاسلوب هو الشتيمة . . هذا زمن حرق الجلود!

- والنتيجة . . ؟

وقفت على البالكون ، أشعلت سيجارة أخرى ، الليل يطبق على الازقة ، ومن بعيد ، تتوامض مصابيح الضواحي ، ونسمة الليل الموحشة ، . . .

اتلفت إلى نوافذ الدور ، كلها مغلقة ، الجميع يسكنون إلى احلام وآمال ، لا أحد اتطلع اليه سوى درب تبانة بعيدة . . . خلفه الأهل والطفولة ، وآخر أخبار الموت ، والأم التي تسكن وحدها بعد ان تزوج أخي الصغير (. . . .) وغادر البيت . . ماذا حدث هناك كي تظل العجوز وحيدة؟ . .

تطلعت إلى اطفالي ، يرتعون بنوم طفولي بريء ، وهي أيضاً نامت . . . فغداً كما قالت نهار جديد ، وعلينا ان نحمل صخرة النهار إلى قمة أخرى ، من أجل الاطفال على الأقل . . اصمد . . اصمد بين الطاولات والكراسي الفارغة والحجرات الخالية . . قف إلى جانب مقبـرة الأرشيف . . ضع حزمة الاوراق أمامك وأكتب . . . مزّق . . وأكتب . . من أجل ورقة واحدة تؤكد فيها أنك حي وفاعل . . وجدير بالاحترام . .

مرة أخرى . . وسطي على الوسادة ورأسي على حافة السرير ، معوج كرأس أسير . . منتظر بارقة الغد . . .

صباحاً توجهت إلى الطاولات . . تذكرت الفتاة كاتبة الطابعة ساءلت نفسي وأنا في الطريق : هل كانت تقول مع الشلامة لتخص بها ذلك اليوم فقط أم كل الايام والسنوات والحياة جميعها أي مع الشلامة في طريق الـ (صد ما رد) . . .

درت على نفسي . . هلْوَسْت . . شعـرت بثقـل جمجمتي وأنا أحاول رفعها على قامتي . . كأني أجهد نفسي بثقل كرة حديدية ، أخيراً . . صعدت السلم .

خذلت مرة أخرى لعدم وجود أحد في هذه الساعة المبكرة من الصباح . . وضعت حقيبتي جانباً ، كان لديّ صداع حاد ونعاس أحد . . لم يُجدِ اني تراخيت على الكرسي بل دفعت بصـدري إلى حافـة الـطاولة لأرخي بثقل جمجمتي عليها . . تمنيت وأنا أتأوه لو ان هناك

قوة تعبئني واندفاعاً يحرق روحي ويعيدني نشطا كايامي الاولى . . لا شيء يستطيع ارجاعي إلى لهيبي الأول: فجأة وفوق رأسي - من جهة الباب - رأيت أحداً تخيلته، لوهلةٍ، انه عفريت نطّ لي من تحت الارض وقد ارتدى حذاءً رياضياً! وهو يقول لي بقوة ومعافاة:

- شباح الخير.

. . . اجبت على الصباح الموحش بالسرور واستويت بمقعدي لاطماً على طاولتي بعض الاوراق والجرائد، ونشرة المتابعة، وبيان العفو السلطوي الكاذب الأخير. . .

- ذئاب يريدون نهش عظامنا. . . عبيد يريدون استذلالنا. . شباح الخير ولا صباحاتكم. . .

رحت. . على طقطقات الآلة الكاتبة. . اقطر بسعير جمل جزلة وأخرى مرتبكة وراح جيش الكتابة الصغير يتقاطر. . صباح الخير. . - صباح الخير- صباح الخير. . .

١٩٩٠/٨/١



بائع الخضروات*

جيان

بغداد في سنوات ١٩٧٥ ـ ١٩٧٩ :

الاشخاص:

البائع،

العجوز،

شاب،

بضعة انفار من رجال الشرطة والأمن.

المكان : دكان لبيع الخضروات في زقاق في بغداد يطل على شارع عام. وتسمع من الشارع موسيقى مارشات عسكرية وتراتيل دينية. وتتخلل الموسيقى والتراتيل اصوات صفارات الانذار لسيارات الشرطة أو الاسعاف ويستغرق ذلك حيناً، فترة طويلة. انه يوم تشييع ابن رئيس البلاد، وتتجه نحو الدكان عجوز متعبة.

العجوز : «تقف وتتنفس متعبة»

تُزيد خوفي الاذاعة منذ الأمس وحتى الآن.

البائع : ماذا تقولين؟

العجوز : صحتي أسوأ من يوم أمس!

* هذه المسرحية واحدة من ثلاث مسرحيات والآخريان هما، «المقهى» و «الدكتور».

البائع : عليك بورد البابو نـج . هذا يوم استثنائي وسوف تعود بعده الحياة إلى سابق عهدها.
ماذا تريدين الآن؟
(وقفة)
العجوز : لا أدري! (وقفة . مستعيدة انفاسها الهادئة وبلهجة فضولية)
ازداد خوفي بعد ان اعلنوا في الاذاعة بأن موكب التشييع سوف يمر من شارعنا. !
البائع : (بحزم)
لا ادري!
العجوز : (كابحة فضولها)
تقول أم رجب بانهم لم يعالجوه بعد انقلاب سيارته؟!
البائع : (مقاطعاً)
هش!!. سوف تفقد رأسها اذا كانت تعرف مثل هذه الامور.
(بلهجة آمرة)
لا أريد ان افقد رأسي أو رأسك، لا تتحدثي عن الأمر.
العجوز : (بلا اكتراث)
إنس ذلك. وتذكرُ النسوان بأنه عاشق للنساء وللسرعة وسيارته جديدة وطار بها.
البائع : (بغضب)
كيف عرفت ذلك، هل كنتِ معه في السيارة؟
العجوز : (متابعة بهدوء)
الرؤوساء لا يموتون وحدهم، وجرّ معه إلى الموت ركاب سيارات أخرى. (وقفة)
البائع : هش ياعجوز الخير (مقترباً منها)
تصيب اخبارك السامع لها بالجنون.
العجوز : (ببرود)
لا تقلق! زاد خوفي مثلك عنـدمـا كنت وحدي في البيت. وعندما رأيتك تدخن وابواب دكانك مفتوحة إطمأنت روحي. (لنفسها)
تريدني ان اسكت سوف اغلق فمي. (وقفة)،
وفي البيت يشيرون عليّ ان اسكت اذا ما نطقت بكلمة. واصيح بهم بانهم لن يُسكتوا صوتي إلا بعد ان يضعوني في حفرتي. كل منا سوف يسكت يوماً ما، كل منا سوف يسكت في حفرته أليس كذلك؟!
البائع : (ضجراً)

ماذا تقولين؟

العجوز : اسكتوا الميت قبل موته أليس كذلك؟ (فجأة) ماذا سمعت انتَ؟

البائع : (يعد لها قفصاً لنقل الخضروات فتجلس عليه)، سوف يمرون من شارعنا.

العجوز : ويطلقون الرصاص؟

البائع : لا ادري (وقفة).

البائع : (متابعاً)

لماذا تركوك في البيت؟!

العجوز : خرجوا!! (وقفة)

خرجوا جميعاً وتركوني وحدي في مثل هذا اليوم. (وقفة طويلة)

أنا خائفة على البنت! وأخاف على الأم وأخاف عليهم جميعاً ومع ذلك انظر!! (وقفة)

خرجوا جميعاً وتركوني وحدي. (بعد برهة)

اسمع لأقول لك شيئاً!

البائع : (بلا اكتراث)

ماذا؟!

العجوز : (فرحة)

بدأت تسمع!!

يقولون انه هو واتباعه ينتزعون البنات والنساء من بيوت اهليهم!!

البائع : (غاضباً)

اسمعي ياعجوز مثل هذا الكلام يقطع الرأس.

العجوز : اعرف

ولكنهم أخذوا زوجة مراقب بلدية في المأمون!

اخذوها منه عينك بعينك!

البائع : (غفلة)

اذا مروا من هنا فسوف يطلقون الرصاص!

العجوز : (ضاحكة)

تريد ان تخيفني، فلم أعد بنت الستة عشر عاماً.

البائع : كنتِ ولكن من زمان!

العجوز : أعرف. وكنتَ أنت ايضاً ولكن من زمان أبعد من زماني.

(وقفة).

كنت وحدي في البيت. عندما اسمع صوت الشؤم من هذه الصفارات يضيق تنفسي وأكاد

اموت .

البائع : (بلا اكتراث)،

لأنك فضولية!

العجوز : (محتدة)،

كيف؟!

البائع : لا أدري.

العجوز : أيضاً لا تدري! . عندما تقول آ . . . يجب ان تقول ب . . . ولو كانت نورية بيتها فلا حاجة اليك، وهي تعرف أكثر مما تعرف انت لكنها ركبت رجليها وخر-

(وقفة)،

انها مثلي ولا أحد يجبرها على الخروج فلماذا خرجت؟؟

البائع : لأنها فضولية مثلك.

العجوز : ماذا تقول؟

البائع : لا شيء.

العجوز : تعرف سامية؟!

البائع : (ضجراً)

وماذا بها؟!

العجوز : زيّنت وجهها وركبت رجليها وخرجت. بدت جميلة بنت الحرام.

البائع : لا تشتري ذمّتي بمثل هذه الأخبار.

العجوز : (غاضبة)

لا أشتري ذمة أحدٍ. جئتك لأني خفت وأنا وحدي في البيت.

(فترة صمت طويلة)

: انت مثلي غير مرتاح اليوم!

البائع : ماذا تريدين الآن؟

العجوز : هل لديك باذنجان؟

البائع : لديّ ما ترينه أمامك فقط!

العجوز : (ساخرة)

هذه الطماطمة المعصورة! (تبتسم)

البائع : هذا أفضل ما عندي.

العجوز : اعطني كيلو، (وقفة)

أريد الذهاب إلى البيت لكني أشعر بالتعب في ظهري وتخونني رجلاي وأخاف ان أكون

وحدي في البيت. (فجأة)
كم ميت مات لهم حتى الآن؟؟
البائع : (بلا اهتمام)
لا أدري.
العجوز : (بغضب)
عدت إلى عادتك القديمة. (بالحاح)
كيف لا تدري. أنت مثل أهل بيتي فالجواب الوحيد الذي اتلقاه منهم منذ الصباح وحتى المساء وفي كل يوم هو، لا ادري، لا ندري!. والآن انت ايضاً لا تدري، فمن يدري! ها؟! أنا؟!
البائع : (مشيراً لها بالصمت)
الكلام اليوم هو خطر!
(بعد برهة من الصمت وبلا مبالاة يشير باربع اصابع من كفه)
العجوز : (مندهشة وبصوت مرتفع)
أربعة!!! (وقفة)
الآن بدأت تدري ومثل هذا التشييع لا يتكرر كل يوم أليس كذلك؟! (وقفة)
هل مسكوا القاتل؟!
البائع : (بغضب)
هش لا تصرخي!!
«تسمع مرة أخرى صفارات سيارات البوليس أو الاسعاف».
ا' جوز : صوتي منخفض.
البائع : ماذا تقولين!
العجوز : قلت لنفسي ما عاد الناس كما عرفناهم. الاغنياء يموتون بسياراتهم أو بالانقلابات. وتتاجر زهرة الدلاّلة بكل شيء وتقول انها متضايقة من الاوضاع وتبيع لك ما تشتهيه: الطيارة والسيارة والبحر والبيوت والنسوان. لكنها تأخذ حصتها منك. (تضحك لنفسها). وسمعت من النساء انها أخذت معها سامية في رمضان العام الماضي إلى بيت في الكرادة. وصارت سامية منذ ذاك اليوم تستيقظ متأخرة في الصباح. وتبقى في الحمام ساعتين ثم تتغذى وتتزين وتركب رجليها وتخرج. (وقفة)
هي حلوة بنت الحرام!
البائع : (مقاطعاً)
يامرة.. قلت لكِ لا تشتري ذمتي بمثل هذه الأخبار!

العجوز : كنت تعرف ذلك أم لا؟!

البائع : المحلة تعرف ذلك!

العجوز : هل يطلقون الرصاص اذا بدأ التشييع؟

البائع : هم يريدون، أثناء التشييع وبعده، ان يسود الصمت على المدينة وبدلاً من ان يدقوا طبل السحور يطلقون الرصاص. فالصمت يعطي هيبة أكبر للميت!

العجوز : لا يحتاج الميت إلى الطبل ولا إلى الرصاص ولا الحكومة، يحتاج إلى حفرة فقط.

«اصوات ضجيج بشري يختلط بصفارات الأنذار لسيارات البوليس أو الاسعاف».

البائع : إسمعي يافاهمة، منذ البارحة وهم يفتشون الغرف والشرفات وسطوح المباني والفنادق في الشوارع التي يمر بها موكب التشييع. وسمعت ان دوريات عسكرية تجوب محطة القطار ومحطات سيارات الركاب والاسواق. ورحّلوا جميع السيارات الواقفة في تلك الشوارع.

العجوز : (باستغراب)

من أين عرفت كل ذلك؟! تقول لا أدري ومن باب أخرى تعرف كل ما يجري في المدينة؟!

البائع : (مقترباً من العجوز، وبلهجة متشكية)

طلبوا مني إغلاق الدكان لأنه قريب من الشارع. قلت لهم دكاني هو بيتي وأنام فيه. فبحثوا في أطرافه وقلبوا ونثروا جميع السلال وفتشوا وانصرفوا.

(وقفة)

: ماذا تقولين؟!

«يسمع لغط أصوات بشرية ممزوجاً حيناً بصراخات، وأصوات صفارات الانذار وبضع اطلاقات للنيران.»

العجوز : (لنفسها)

بدأوا يطلقون النار. (نحو البائع وبسرعة)

نصحتك ألف مرة بأن تبني أو تشتري غرفة لك. من لا بيت له لا وطن له.

البائع : ماذا تقولين؟

العجوز : أنت متعكر المزاج مثلي.

(صيحات وصراخات مصحوبة بصفارات الانذار.

شاب يركض لاهثاً يكاد يسقط، يدخل الدكان).

«البائع والعجوز يفزعان)

البائع : (بخوف)

دكاني مسدود!!

الشاب : (مذعوراً)

أمن!! أمن!! (مشيراً إلى الشارع)

العجوز : (بحزم)

اركض باب ذاك البيت مفتوحة!

«يقفز الشاب ويدخل مسرعاً بيت العجوز».

العجوز : (متهالكة)

رجلاي لا تحملاني.

البائع : ارتاحي! لا تقومي الآن!

«ضجة اقدام واصوات حادة، صارخة. مجموعة من رجال الأمن والشرطة أمام الدكان».

رئيسهم : (بغضب)

هيه أنتَ وأنتِ أيضاً، هل مرّ أحد يركض أو يمشي!؟

البائع : (واقفاً متعلثماً)

مرّ.. مرّ..

أحدهم : أين؟!

البائع : (مردداً لنفسه)

مرّ.. مرّ..

«يركض رجال الأمن باتجاه نهاية الزقاق من الطرف الآخر.

(وقفة طويلة يصمت فيها الاثنان)

العجوز : عليّ أن أذهب!

البائع : (مسرعاً)

إلى أين؟! أنا وحدي أيضاً! (وقفة طويلة).

العجوز : سوف أجلب لك الشاي. (تخرج).

(يخفت الضوء وتعلو موسيقى المارشات العسكرية مصحوبة حيناً بالتراتيل الدينية وبصفارات الانذار لسيارات البوليس أو الاسعاف ترافقها حيناً أصوات اطلاقات نارية».

«انتهت»



تل اللذة

عبد الله طاهر

الموضع الأكثر اثارة

في لحظة ما، من تلك الفترة الواقعة بين ظهر وعصر صيفيين، جلست الفتاة، من تلقاء نفسها، على اصيص فخارى مقلوب، متكئة على الحائط. أمامها، وسط الدار: تل يغطيه الصبير ونباتات عصاريّة، وخلفها، فوق الرأس، بميل ضئيل عن شمالها: نافذة مفتوحة للداخل، ذات قضبان حديدية محشورة بخشب النافذة العلوي والسلفي، ومخترقة الوسطي، وذات فسحات تسمح بدخول اليد، أو بخروج الصوت مهشماً... وفي باحة الدار، كانت الشمس تنسكب على بعد ياردة من أمام موقع قدمي الفتاة الطريتين، ثم تنكسر انكساراً عصبياً، لتغطي مساحة قدمين من الجهة اليمنى للتل، وثلاثة ارباع من أطوال النباتات، التي يتراوح طولها ياردة أو بعض منها. فيما كان المسار الذي اختطته أشعة الشمس، هو بمثابة صورة، ملقية على الارض، لهندسة الجزء الغربي والشمالي من الدار. وما تبقى منه، والذي لابد من انغماره بنور الشمس، لم يكن خاضعاً لتبصر الفتاة... فالتل «أقيم» في الموضع الأكثر اثارة من الدار.

الفتاة الآن متأججة، ومسكونة بضجر صيفي مألوف. كانت تنتظر مضيفتها في حجرتها، وراء قضبان النافذة، وهي تستعد لمباهجها، حيث ستصطحبها إلى «مجلس قراءة الرجال».

السبل الوعرة

وفي تلك الـ «لحظة ما»، بدا كل شيء أمام الفتاة، في البداية، محتقناً: أحجار المرمر المتآكلة والمنقرة، الصخور المحروقة والقريبة للصخور المترمدة، المساحات المقفرة بين النباتات الواجمة.

ففي الزاوية اليسرى للتل: ثلاث صخرات كبيرات، أسندت إلى جذع نبات استوائي أملس، مخطط بالبني والاسود الفاتح. تطفلت عليه نبتة ذات ساق حبيبي بثخن الاصبع، حيث تنتهي قمتها بشوكة جافة ومنحرفة، وبعد ان تبلغ، الشوكة، اليارِدة علواً، تلقي بآخر خرطوم لها على فرع من النبتة الاستوائية، حيث يستهل جزؤها الأخير بالتغضن، ثم الايراق بوريقات مروحية مركبة، خضراء، فاتحة الخضرة.

كان الجمود والتقشف والابادة الطبيعية المتناثرة، في أكثر من موضع، يسيل من الاحجار فجأة أمام الفتاة، مستحوذاً على المسارات الغابية، المتعرجة، ثم تتوقف فجأة أيضاً، حينئذ يغور البعض منها في تربة التل، فتعيده الخليقة: كائنات خضراء قاسية، تمتص من الهواء ثقلها، ومن الارض استكانتها.

وخلف النبتة ذاتها، صخرة مصابة بجدري الصخور. أو صخرتان ملتحمتان، يطمئن بينهما صبير بطيخي برأس مخمس كالفرّارة. وكلما كان القاحل من تربة التل يرتفع ارتفاعاً صخرياً غير منتظم، كانت الفتاة تشعر بأن التل نُظم بهذا الترتيب التناسقي الدقيق، لغاية شفافة ما، ليست مسرة وابهاجاً للجالس! بل لروحٍ غرقت في دنيويتها، وغزت آنيات الحياة مساربها. فاختارت «مالِكتُها» تلك السبل الوعرة واللامنتهية، اشفاقاً واذلالاً.

اللعبات الماكرات

في ظل الصخرتين، نما صبير ذو أوراق مصفّحة، خضراء، ضاربة للزرقة، ومبيّضة بمسحوق ناعم. تبدأ الاوراق ضيقة عند القاعدة «كنواياها الكثيرات والمحبطات»، ثم تعرض طفيفاً عند منتصفها، ثم بسرعة عند منتهاها، محاولةً جمعَ اطرافها، صانعةً بذلك ثلث اسطوانة ابرية. أما المتكاسل، من وريقات هذا الصبير، فقد انطرح على الصخور «كذاتها المتقاعدة»، فيما الوسط، ثم النهايات الشوكية، انتصبت نضرة، متحملة ثقل سمكها، (وثقل ضميرها)، لكن احدى الوريقات المتجهات نحو مرتفع الصخور، ناءت بثقلها على صبير ذي وريقات تتصارع في نموها، مرتدية احداهن الأخرى، متحاشيات التشتت والوحدة، ملتفات، ونهاياتهن صفراء شوكية. . كانت الوريقات أوجهَ عجائزٍ

منحوتة.

سمعت الفتاة المضيفة تقول، وصوتها يأتي متسللاً بين الصبيرات، متعرجاً، متجنباً نطحات الصخور، بينما هي تقف خلف قضبان النافذة:

ـ اني اتخيل العرق وهو ينزل على ساقيك. تعالي اجلسي في الحجرة، تحت المروحة!

قالت الفتاة وكأنها تغصّ بماء:

ـ اني لست متضايقة.

قالت المضيفة:

ـ لا تنظري كثيراً لهذه اللعبات الماكرة! وإلاّ وقعتِ في سحرها..

وقالت أيضاً:

ـ لا تستخفي بكلامي! فلست أنتِ من ذريّة الجن. ولا ممن لا تمسهن مساوىء الزمن.

ثم قالت برضى تام:

ـ هل يضايقك صوتي.. قولي الصدق!

أجابت الفتاة:

ـ كلا.

فقالت المضيفة:

ـ ان المساء يهبط بسرعة فائقة. الآن جئتِ أليس هذا صحيحاً؟ متى نزل الفيء! انه شيء يجنّن.

وقالت كذلك:

ـ اذن سوف لن اتأخر. لقد انهيت الجهة اليمنى من شعري. ولكني أسألك: هل يسقط شعر كثير من رأسك حين تنسليه؟

قالت الفتاة وكأنها تعلك:

ـ لا أبداً.

فأكملت المضيفة وهي تنسى انها تبث كلماتها لمن يصغي لها خارج الغرفة:

ـ انما يمتلىء المشط بالشعر، رغم اني استعمل مشطاً خشبياً فتحاته واسعة. ومثل ريشتين عالقتين في الفضاء، شُفطت الكلمتان الاخيرتان للداخل بسرعة هائلة، دون ان تحدثا أدنى صوت لاصطدامهما بجزيئات الهواء الساخنة.

نظام البيئة

حين استعادت الفتاة انصياع رغائبها المنتفخة، وشبقها المستنفر عنوة، كان الصبير يمتلك لون عصفٍ منـدى وهو يتسلق الصخور التي لم يبدُ منها سوى رؤوسها المشبعة بالرطوبة، أما الباقي، فقد اندثر بالرمل والحصى الناعم، فيما صعد منها ـ متشبثاً ـ صبير ذو اطراف حبليّة حرة، مائجة، احيط بورق مخروطي أخضر، أواسطه فاتحة. فيما استدار حولها، إلى النصف، لون أحمر قرميدي (هو ذات اللون الذي يجر أعنة احلامها واطيافها المتقدة). . كان ثقل الورق وكثافته وضعف حواملها، يمنعها من الانتصاب. . . فاستلقت على الحصى المرمل في نومة سياحية عابرة.

بين هذا الصبير، ونهاية محيط التل، نما مكعب حجري بارتفاع قدم واحد. وبينه وبين الحدود الحديقية، غرست ورقة ذات اشواك متجهة للاسفل. الورقة سميكة وبحجم صحن الشاي. وخلفها، توارى نصف كرة خضراء مخددة، تنتهي نهايات اخاديدها باشواك نجمية، متشعبـة، طويلة ودقيقـة. وخلف المكعب الحجـري صبير ككـرة سلة وشيت محاورها بنتوءات كروية حليبية، انجبت أخرى ضئيلة، انيقة ومرتبكة.

كانت، في المسـافـة بين الصبير المصفّـح والصبير الجبلي، تقف ثلاثـة سيقان ممتلئة، بيضاء، قطنية وشائكة. . . غائبة المنبت، تتفرع من اقطابها أوراق لها اخضرار المـاء: ورقة تمد ورقة أخرى أضأل منها، ضاربة للبياض. البعض منها لا يزال غضاً، ويحمل على قمته بقايا تيجان زهر وردية تطير بالنفخ.

لم يدر في خلد الفتاة، ولا ما يحيط بكينونتها من قوام حي / ميت، أنها كانت ساهية وغائبة، مثقّبة كقرص النحل، غير دارية بالتفكك الذي ألمّ بردفيها، ولا بالنظام «الملفّق» لهـذه النبـاتات، والطبقات «المفتعلة» لتضاريس التل. أما الهدوء المشع والمنتشر في الدار، فهو فيض من روح «أية روح»، وشجب لشيء خفي ومتضاد، تستمد هذه الصبيرات الامينة، القاسية، منه، سر وجودها وديمومتها، بهاء الوانها وتشكيلاتها.

كانت الفتاة، والتي طفق التفكك الآن يتسرب لقدميها، منحلّة، ممزّعة الخلايا، متلاشية في المنى. . نزيهة في تنفسها واتكائها. واذا كانت تشعر بشيء ينقر بشرة وجهها كقبلة العصافير، فهو لأنها: كانت يوماً «صبيرة»، تفتنها مواقع النباتات المراوغة، والبيئات الحقيقية، والتي كانت تكمن فيها كنبتة ربانية نادرة.

سطوة النفس

وخرجت المضيفة من حجرتها، وكانت تعلق في يدها قفصاً اسطوانياً مصنوعاً من السلك، وفي داخله يسكن قنفذ.

وقالت الفتاة، وهي تنظر لقنفذها المحترس:

ـ لا زلتِ دائخة بهذه اللعينات. . ها! لقد قلت لك، لا تنظري اليها. لم يبق لك إلا ان تزرعي نفسك بينها.

ووضعت القفص على المكعب الحجري، وقالت:

ـ تعالي وانظري لوجهك في المرآة. انك تذبلين مثل جوريّة. من الذي حطمني أنا، وامتص ماء عيوني؟

وخفضت من صوتها:

ـ سأحيطها بسياج. ولو ان فعلي هذا متأخرًا! لكني سأسيجها مضطرة.

وقالت وهي تعود لحجرتها مثل دجاجة:

ـ أبعدي عنك الكرب. وحتى تتخلصي من الوسواس الذي في صدرك، سأطلق لك هذا القنفذ حينما نرجع، اطلبي منه. . وسيعطيك مرادك.

واذ تتحرر الفتاة من سطوة وتمويهات نفسها، تعود فتبصر صبيراً ذا ساق متين ومحرشف كساق تيس. يحمل عند قمته، فرعين سعفيين، ينتشران انتشاراً ليس غير عادي. بينما تمكنت من اكتشاف سعفة ثالثة، كان الفرعان قد اخفياها.

وبحذاء الصبير ذي الاعمدة القطنية، وخلف كرة السلة، يقف صبير: تمثال متحضر من ثلاثة اجزاء. خلف الكرة مباشرة: اثنان مسدسا الحواف. القريب بطول قدم ومائل. والثاني، إلى يساره، ضخم ومبتور. كان قد تضخم برعم من نهايته بضخامة المكسور. أما الثالث، فقد نبت متوازياً خلف الثاني. بيد ان انحناءة عبثية أبدته ـ تجاوزاً ـ مرتفعاً للأعلى. بعدها ينكسر، ثم ينمو معوقاً. كانت المسافة، منه وحتى نهاية التل: رملية، محصّاة، ومنتهية بحجرتين وضعتا بشكل منحرف ومتواز. يتلو ذلك ارتفاع ضخري غير منسق، ويتضح هذا من الثغرة التي صنعها التمثال. من التمثال ـ انحداراً للاسفل ـ حيث حافة الحديقة، وحتى قبل الدوران للخلف، اشتبكت أوراق صبير واستطالت كقرون الايائل. وازاءه تماماً، صبير ذو اوراق خضراء، رصاصية، ذات حبات بيضاء مخملية. . خلف هذا، تبدأ قمة التل الصخرية، الخالصة: اجزاء من ثلاث صخرات لليسار. الاولى والثانية، بلون بني مشرق. أما الثالثة، فقد ظللها ما ينبت على القمة: صبير غرست ورقته اسفلها في حضن نظيرتها. . أوراق سميكة ومنحنية كخناجر، خضراء داكنة ومرقطة. نهاياتها مدببة. كل ورقة بمثابة شوكة سالبة. وفي المنتصف، نما صبيران اثنان: كتلة خضراء طويلة، ذات أوراق مثلثة، سكينية وشائكة. اشواكها متقاربة ومرعبة. الاولى بارتفاع ثلاثة اقدام. الثانية خمسة. . بدت كورقة واحدة، ذات تخصرات تفشي: نمو ورقة في نهاية كل ورقة. وبين تخصر وآخر، مسافة شبر. وفي كل حد، نمت وريقات اصغر،

بشوكات بنية مائلة للسواد.. بهذا تكون نهاية النبتة دبوسيّة.. فهي الورقة الاطول، والأخيرة.

رتل البطريق

قالت المضيفة من الداخل:

ـ حتى انتهي، ادخلي أنت المرحاض قبل ان نخرج. ثم ادخل أنا من بعدك.

قالت الفتاة:

ـ أنا لست محصورة.

فقالت المضيفة:

ـ اعلمي انك لن تجدي مرحاضاً للنساء هناك، سوى ذلك المرحاض ذي الباب المثقب والجدران المتآكلة.. لا يعلم القاعد في أية لحظة ينهار عليه.. قومي أدخلي!

ولم تسمع المضيفة رداً. فعادت تقول:

ـ ستتذكرين كلماتي هذه، وستندمين.

كانت الفتاة لا تميز، ان كانت الصبيرات أمامها ترتعش مصروعة، أم انها هي التي شرعت تمر في شبه اغفاءة، فاقدة الهيمنة على حواسها (أهي أقصى لذة للدفء.. حيث تنمو الهواجس، وتنعدم الرؤية؟)، فتستغلها النباتات الصغيرة، وتنحدر من التل كرتل من البطريق. تتوزع نابتة، مستقرة بانتظام في صف من الاصص، بادية من اليمين بمحاذات الحائط، أسفل النافذة: صبير قنفذي، أزهرت قمته زهرات وردية دقيقة/ صبير كالحصى المنفلقة، ذو ألوان صحراوية/ صبير عصاري كمعي الاسماك. ذو زهرات صفراء، صاحبة أعناق طويلة. نما نمواً مطلقاً، فافترش بذلك كامل الاصيص/ صبير عصاري كذيول قطط ملتفة. ذو شوك دقيق.. رخو وناعم/ صبير كراس خس مفلطح، ولحافات أوراقه، الوان تبدأ بالوردي وتنتهي بالبني/ صبير كالبرق الاخضر/ أربع صبيرات كأناناسات تختبىء الواحدة تحت الأخرى، ولونها اخضر مسود/ صبير اصبعي، ذو زهرتين كنجمي بحر، وبلون الصوف/ صبير ككبة نيئة/ صبير كحزمة من أعشاب بردي متهدلة، له زهر عنبي أبيض/ صبيرات عصارية بحجم انج مربع، ولكل صبير كلاّبات السراطين المنذرة/ صبير كحالوب ذائب/ صبير كقلبها/ صبير كقبة من خشب ومقطنة/ صبير عصارى مثل رؤوس ثوم مكدسة: أكياس منتخفة، جوفاء، تبدو مليئة بالهواء، ذات سطح اخضر شفاف/ صبير كتلافيف الدماغ/ صبير عصبي، كهيكل عظمي لسمكة/ صبير كطرطور شائك، مقلّم بالازرق والابيض والاخضر/ صبير كيقطينة مقبّبة بالفرو، ومخطط بشوك نجمي مفزع/

صبير بني، له زهر كجرار حمر، أفواهها ارجوانية.

كلمات كسقطات الحجر على الاسفنج

سمعت الفتاة: «لقد تأخرنا» كما لو انها تنبعث من مغارات موت سحيقة. ثم سمعتها ثانية كما لو انها كانت تغطس تحت الماء. وقالت المضيفة من حجرتها كما لو انها ما زالت تنفض لؤلؤات الماء العالقة عن شعرها:

ـ لقد تأخرنا. سنذهب الآن، وسنرى الجادة المؤدية للجامع تغصّ بالجالسات، عدا ذلك الممر في الوسط، الضيق والمتعرج كطريق الآخرة. وسندوس على أذيال العباءات. ولكن رغم هذا، فاني أعرف مكاناً لن تقرب منه أية امرأة.. مكان يتطير منه الجميع. انها الفسحة التي بجانب حائط «المغسل». فالنساء يخشين الاقتراب من مغاسل الموتى. هناك سنقعد، أنا وأنت، وحيدتين، منعزلتين، ووجهانا للحائط. يمكننا ان نبكي، ونحن هكذا، طويلاً دون ان يرانا أحد، ودون ان نثير شكوك النساء. هكذا كنت أفعل في حضوري النادر هناك. وأرجع للبيت: خفيفة الجسم، هادئة، ندية العيون والقلب. امكث بعدها في الدار، اسبوعاً أو اسبوعين، لا أصنع شيئاً، سوى الحديث مع هذه التي دمرت شبابي، وحرمتني من زينة دنياي.. وتقودني شيئاً فشيئاً إلى حتفي. اني دائماً أقول، بعد عودتي من هناك: اني سأقضي عليها، سأسوي باحة داري مثل بقية بيوت الناس. وأنعم بالمساءات والفيء.. لكني اكذب على نفسي. فأنا عاجزة حتى عن وضع سور يقيني رؤيتها ومنظرها. انظري بعينيك! انظري، انك لا تصدقين، لقد بدأت تخضر وتضيق.

ما فتئت الفتاة تجلس على الاصيص مثل بالونة مرتخية. مدانة أمام نبات البراري المدارية، الذي يقف خلف التل متفرعاً كشمعة ملابس عظيمة، ولا تفقه عمّ تتحدث مضيفتها. كانت تسمع الكلمات كسقطات الحجر على الاسفنج.

ودنت المضيفة من باب حجرتها، فقفلته. ثم جرت القفل بيدها. وحين همّت الفتاة بالقيام عن الاصيص، وجدت في ذلك مشقة بالغة.. كان ثمة شيء يجرها للاسفل، يثبط عزيمتها، ويفسد ارادتها، ويبيح تحطيم جسدها.



خمسة هواجس وقصيدة

عبد القادر البصري

(١)

أزهارُ الأرضِ كثيرةٌ
غير أنك اخترت نرجسةً
كانت لكَ
غابهْ!

(٢)

كما يدبُ على الأرض
المساءُ
تهبطينَ في
قلبي!

(٣)

تهمسُ في اذني:
أين نلتقي؟

أهرّبُ في ذاكرتي
ـ المكان ـ

(٤)

أدورُ في أسواقِ بابلَ القديمهْ
أشتري بخوراً لهندْ
وشمعةً . .
للقتيل!

(٥)

هكذا المنفى،
متحفٌ لحزن الغرباءْ
تأريخهم المنقرضِ
كطائر الـ (زو)
هكذا . .
هكذا المنفى!

(القصيدة)

جذلى
بالضحك والجنون
تدخلين قميصي
وحين تغادرين . .
تبقى
رائحةُ بودابستَ
عالقةً
بالقميصْ!

*

حبلى
بالحزن والبكاءْ
تدخلين دمي
وحين تغادرين . .
تبقى
رائحةُ بغدادَ
عالقةً
بالروحْ!

* *



قصائد... تغادر الحديقة

مصطفى كندش

كم هو صعب ان يكون الحزن صديقك الوحيد. . تنبذك المدن،
والطرق تلتف عليك. .
كم هو محزن ان تغادر حديقة!؟

«ساعي القبلات»

ثلاث قبلات. . .
الاولى
لفتاة تنثر عطرها
في أزقة جسدي. .
كلما خذلتني الورود.
لفتى يضحك في الصباح
وفي المساء
ينام على فاجعة!
الثانية
لطفل بقميص بال
ووجه من برتقال
لرجل يحلم دوماً

بعصافير تعشعش في حنجرته . .
لشيخ يغرز اسنانه الخضراء
في مؤخرة الحياة .
أما الثالثة
سأبقيها . .
فثمة قتلى كثيرون
على الارصفة المدلاة
من جسد
مدينتنا العارية
آه أيتها الثالثة
كم ستكونين طويلة ! ؟

«هزيمة»

عشية الهزيمة
أدميت ذاكرتي
باحثاً عن امرأة تشبهك
شوهت أصابعي
لارسم قامة على الهواء
تناهز قامتك
جمعت كل السواد الذي يجتاحني
من أجل ضفيرة مسدتها بيدي
حسناً ياسيدة الماء والحجر
«لن أبدد احزاني الجليلة بالبكاء»
سأرتلها . . .
أغنية . . . أغنية
لاودع آخر ابتسامة بللتني
وأول اشتعال يدأ .

حسناً ياامرأة من غبار
سأجتر هزيمتي وحيداً
واحمل كل سوادي كجعبة
ثم أخرج
أخرج من قلب
لا يتسع إلا لجثة!

«كرنفال»

هذه المرأة الغامضة
تأتي كل ليلة لاهثة
تحفر الارض بأظافر قلبها
تفتش عن عمرها المهدور في رصاصة
وأمانيها المدفونة في كفن
تخرج من رحم الارض قمراً مستطيلاً
تضمه . . .
تشعل اصابعها،
وتدندن . .
ساعة ، ساعتان
ترحل المرأة،
فيتبعها قنديل، وبندقية
وهكذا . .
وفي كل ليلة،
تستيقظ المدينة . .
ويبدأ الكرنفال.



السفرة الثانية

غريب صالح

- ١ -

أشباه البدو الرحلْ
يأتونْ
من رمل الصحراء
فيهم تاريخ القتل وسلب الالبابْ
نبشوا رايات دمٍ
نازحةً
من كرسي الأرباب
يمْشونْ . .
أشباه البدو على أطراف اصابعهمْ
لكنْ اصوات حناجرهمْ
تزنُ . .
كزناجير الدباباتْ

وعلى افخاذ عجائزهم أشرعة «البترول»
كلماتٍ مشلولهْ
من حكمٍ باليةٍ وسباتْ
مرميهْ . .
في الطرقاتْ

- ٢ -

أشباهُ البدو الموشومونْ
يرعَونْ . .
ملءُ نواجذهم
نفّاخات النار
يضعون الاشلاء على الموقد
ويصّبون القهوه
ويدسون انوفاً في «السردينْ»
يشتمون روائح اجسادٍ تمرْيهْ
مثل ذئابٍ يغسلهمْ
ذهب الصحراءْ
أشباه البدو الهجائون
المرسومون على جدران بواخر قادمةٍ من بحر الظلماتْ
يضعون ذئاباً في أبوابِ المدن المحجوزةِ بالاسلاك
أشباه البدو الموقوتون
لبسوا صرعات «المودهْ»
جاءوا . .
يمشون على أطراف اناملهمْ
لكن اصوات أظافرِهمْ
كهديرٍ
وضعوا تمثال المنبوذ

في وجه القواد
أشباه البدو اللقطاءْ
عبروا الاطراف. .

- ٣ -

أشباه البدو الموشومون
في اذرعهمْ
برزت آثار اليود
جلسوا رقباء
أنغلقت فيهم
أصوات الملح وأنباء المهجورين
وعلى الضرع المكشوف
راحوا يمتصون شراب الدفلى
من أفواه اناثٍ مسبياتْ
كانتْ. .
تبتلع السكين
والمخْيط والخنجرْ. والناب الملعون
بقلوبٍ متجلطةٍ
أشباه البدو الموجات المحمومون.
أشباه البدو السواقون
كانوا موشومينْ
بجماجم اطفال الكردِ
يرمون حبال الموت
ويغنون صواري اللوحات
يمشون بأظلافٍ قصديرية
والتمر على أطراف شواربهم
يغري أفواه النخاسين

«والبترول» الاخضر يهبط دبساً
كدمٍ مسفوكٍ
من افخاذ عذارى حورياتْ
أشباه البدو الموقوتون
يختالون..
بعباءات الاطراف الذهبيةْ
يخفون بصيص النور
أشباه البدو الممقوتون
يرمون ضمائرهم في الطينْ

* * *

١٩٩٠/١٠/١



عصفور الخريف

محمد عبيدو

إلى عبد المجيد حيدر

الجدران ضاقت بالأحلام
والايام تمضي
والطفل الساكن في دمي
المتروك
المهمل . .
يعد التفاصيل
يحاور البكاء
يحاول الفراغ
يبتكر ذكريات
دهشة الموت الزمنيه . .
الطفل الساكن في دمي
- في الزمن الغامض، يحمل
بين أصابعه ضوءاً -
مفتون بالجنون

يشرب من نبع الحلم . .
وبدهشة
النشيد
يبتكر المعاني
جنونه منطلق
كعصفور الخريف
نحو فضاء آخر . .
صمته حبر سماوي
يرتل
لغة عصّية القراءة، بغياب
ألم الأنبياء
الممزوج بقسوة الدمع
ونهايات النداء . .
آه، أيها الجنون
ياعربة الليل الغامضة
ياطعم البحر، فضاء الثلج، رغبة المطر
نزق العشب، وعصافير القلب القلقة . .
أيها الجنون، أيها الحب، يامن يحمل
قوس السماء
اسمك الجميل :
ليعش فينا زمن
لا يذل أحلامنا
وشمس لا ترتب حزم أشعتها
على موعد موتنا . .



ثلاث قصائد للنخيل

كامل الركابي

● نخلة الساعي

شتتْ ابروحي السنين
ولا صحَتْ،
كل ليله . . غيمه،
تمطر الوحشه . . سواجي،
وتمسح امن العين
صورة نخله شبَّتّ
ويْ بيوت اهلي . . القديمه .
ياسعفها،
خيوط من ضويات خضره
يزرع الفيْ والخجل،
للعاشگين ـ اطفال ـ
سحرتهم (نديمه)*
ضحكه حلوه،
خَدْ يگَطّر ضيْ،

ضفاير من ذهب،
واعيون نرجس،
طول . .
ثوب اسود طوى المهره بحزن،
چانت . . يتيمهْ.
يارطبها (الساير)
اتكَول العسل مربوط
من صرًتها حَدْ حبل المشيمه
ياحزنها . .
بعد ما فلشّوا «بأمر امن الحكومه»
كل صرايفنه، وشملها (الكَص)
بجّتْ، وانزرعت ابصدر اليحبوها
هظيمه .
ومن نزف دمها، ويبس جمّارها
الطيّه، الجنوبيه، الكريمه
انتَ مدري . . اشخيمّتْ،
غربه اعله روحك مدري خيمه!؟

● نخلة أهلنه

سعفه . . من نخله غريبه
اتهزها ريح الليل من غفوة سهرها
روحي . .
تهتز من جذرها
موجة تلعب ويْ سفينه
بلا صواري.

ويبتدي المَدْ (حزن روحي)
يصعد ابدمي،
ويحنّيْ ابغربة الدم. . التراب،
ويسهر ابليل انتظاري.
والقميص اسود
تبلل وجهه من ريحة المَدْ
والقميص الثاني. . أبرَدْ.
والكَلب هش
ذاوي
شاحب،
لا زهور الياس حدر امخدته
ولا الياسمين.
والسنّين اتفوت
وتروح السنين.
والعمر ناحل، نزع لونه الخريف
ترصف الوحشه على اعيونه رصيف
منطوي، ومكسور
من يوم انكساري،
وغربتي،
وصفنة الريح
الفحًمت جمرات ناري
يامحبة نخله
مرجح كل طفولتنه سعفها،
وعفنه ـ حُب ـ لفيايْها
نوم الظهاري
باوسينه من البعيد، وسامرينه

محنه متغربين، يانخلة اهلنه
وللحزن مفتوح،
من غيبة وطنّه، الهذا يومج
باب داري!

● نخلة بصراوية

نخله وحدانيّه
برحي
ابها النخيل
ضي شمس تموز
سرها،
ومن زُغر
تكره الليل
يغار منها الحابسي
ويغزها شوكه
وهي وحدانيه
تسكت!
ايسِد عليها الهوه
الزهدي، اسنين
وتنود ابنفسها
وهي وحدانيه
تكبت!
يگطع المي عنها
جذر الديري
وتلوب ابعطشها

وهي وحدانيه
تذبَلْ!
يضحك الطليع
للخستاوي والكَنطار
وينهِّد كَبلها
وهي وحدانيه
تخجل،
من ترفها.

* * *

وبتوالي الطوش
كل نخلة تمر
تستر حَشَفها
وهي زهيانه
بحلاوتها
ونداوتها
وسعفها
وضي رطبها
بكل عثك
دمعه يسيل
نخله بصراويه
تبحر فوك روحي
هيَّ وَحْدَها
النخيل!

آذار ١٩٩٠

* نديمة: حبيبة طفولتنا في محلة الساعي (البصرة).



المرأة والاخراج

د. جواد بشارة

منذ اختراع السينما في اواخر القرن الماضي (١٨٩٥)برزت اسماء كبيرة في خدمة هذا الفن . . . الالاف من الاسماء اللامعة من المخرجين الرجال اشتهرت على صفحات الكتب والمجلات المتخصصة والمنوعة . ولم يشهد تاريخ السينما إلا عدداً محدوداً جداً من النساء المخرجات لماذا؟ . . هل لأن المرأة غير جديرة بهذا التخصص؟ . . وغير قادرة على ممارسة هذه المهنة ، مهنة الاخراج؟ . .

هذا هو الشعور الذي كان سائداً لأكثر من نصف قرن ، بينما نجد ان المرأة بلغت أعلى المستويات الفنية في مجال التمثيل ـ لو تمعنا قليلاً في سيرة حياة رواد السينما منذ ولادتها حتى اليوم لوجدنا المئات من النساء كن يقفن خلف من اطلقتهن الاضواء والقت بهن إلى مقدمة المشهد الاعلامي ـ فالمرأة موجودة في كل مجالات واختصاصات العمل السينمائي . فإلى جانب التمثيل شغلت المرأة أكثر المناصب أهمية وحساسية في ماكنة الانتاج . مثل كتابة السيناريو وملاحظة السيناريو أثناء التصوير والمونتاج والماكياج والادارة الفنية والادارية لعملية الانتاج السينمائي .

فمهمة سكرتيرة/ البلاتو أي مُلاحظة السيناريو هي من أهم المهن والاختصاصات بعد المخرج ومدير التصوير في عملية صنع الفيلم فهي تتطلب توفر مزايا كثيرة كالقدرة على مراقبة كافة التفاصيل وامتلاك ذاكرة نشطة وحية وقوية خصوصاً عندما يتم تصوير أكثر من

لقـطة واحـدة على أيام متباعدة ويكون المطلوب من فتاة السيناريو ان تسجل كل شيء الحركة والماكياج والالوان والملابس والديكور والانارة والصوت ونبره الصوت والاكسسوار والكومبارس. . . الخ.

قصة أول مخرجة:

عند مرور لوى لوميير في باريس عام ١٨٦٥ لزيارة صديقه الشاب ليون غومو الذي كان يصنع ويبيع آلات التصوير الفوتوغرافي ليدعوه إلى حضور أول عرض خاص للاختراع الذي ابتكره مع أخيه اوغست لوميير قبل تقديمه للعرض الجماهيري في ٢٢ آذار من العام نفسة . وكان العرض في شارع رين في باريس وقبل مغادرته لمكتب السيد غومو توجه السيد لوى لوميير إلى فتاة شابة في الثالثة والعشرين من عمرها تعمل سكرتيرة لليـون غومو بالدعوة لحضور العرض الخاص وقال لها:

ـ آنسة آليـس اذا كان يهمك الأمر ويعجبك فيمكنك مرافقة السيد غومو لمشاهدة عرضنا السينمائي. .

كانت آليس قد ولدت في بيت محترم ومتوسط الحال، وكان والدها صاحب مكتبة إلا ان ظروف العيش اجبرتها على العمل لمساعدة العائلة، وجاءت للعمل في محل السيد غومـو كسكـرتيرة خاصـة ذكية وشجاعة، وسرعان ما اصبحت أحد أقرب مساعدي هذا الصناعي الشاب.

وقد ذهبت الآنسة غي،كما يسمونها،برفقة السيد غومو لمشاهدة العرض الخاص في شارع رين وبعد ذلك ذهبت لمشاهدة العرض الجماهيري في المقهى الكبير في ٢٢ آذار فعشقت ما رأته وصارت تحلم به. حتى في اوقات العمل كانت مأخوذة بما شاهدته على الشـاشـة وفـريسـة لنفس المشاعر التي تملكتها عند أول مشاهدة لافلام الاخوين لوميير. . ولم يتجـاوز العرض المذكور بعض المشاهد الوثائقية كدخول القطار للمحطة وساحة عامة هي ساحة بيلليكور في مدينة ليون ولعبة ورق واستعراض عسكري.

وفي يوم، جمعت شجاعتها ودخلت على معلمها السيد ليون غومو وقالت له: «ألا تعتقـد ياسيد غومـو ان كل هذه العلب الصغيرة التي عرضوها علينا (المشاهد الصغيرة) ستصبح قريباً مملة ومكررة، وهل تسمح لي بالاهتمام بها»؟. .

أما السيد ليون غومو الرجل الجاد والصارم الذي لا يحب المزاح الفارغ فقد اعتقد لأول وهلة ان هذه الفتاة تمزح معه، لكنه بعد ان فهم جدية كلامها اجابها:

ـ ولمـــاذا لا. . . اهتمي بهـذه القصص الصغيرة. . ولكن ليكن في علمـك ان

المراسلات والرسائل هي الأهم وفي المرتبة الاولى وقبل أي شيء آخر يجب ألا يؤثر ذلك على عملك الاساسي . . . يمكنك ان تصنعي افلامك الصغيرة أيام الاحد . .

ووضع الصناعي الشهير ما تحتاجه مساعدته الشابة من ادوات وافلام خام تحت تصرفها لتحقق حلمها . . وهكذا ولدت أول مخرجة سينمائية في تاريخ السينما العالمية . . ويفضل جرأتها وعزمها وقوة شخصيتها اصبح رئيسها فيما بعد واحداً من أشهر وأكبر المنتجين السينمائيين في العالم . .

كان أول فيلم روائي قصير (لانه ذو حكاية) بعرض قصة شابين عاشقين يتجولان في احد حقول الريف الجميلة، وبعد ان يستلقيا على العشب إلى جانب مزرعة تظهر لهم في الحلم ساحرة وبضربة عصا سحرية تخرج لهما من احدى الخضار طفلاً يمص ابهامه، وصورت الفيلم في حديقة قريبة من مقر عملها وخلفية مرسومةوفيلماً خاماً كان طوله ٣٠ متراً وخلال ساعات معدودة ومع صديقين لها وقامت هي بالذات بالدور التالث وتمكنت من صنع أول فيلم من اخراج امرأة .

امرأة تقود حركة الطليعة في السينما :

بعد ان لاقت آليس غي نجاحاً كبيراً في مشروعها السينمائي واخرجت عدداً كبيراً من الافلام وشيدت على اكتافها امبراطورية غومو للانتاج السينمائي انسحبت بهدوء من عالم السينما لتكرس نفسها لحياتها العائلية . . . وفي تلك الفترة بالذات، أي خلال الاعوام التي اعقبت الحرب العالمية الثانية، برز اسم نسائي آخر في هذا المجال وهو اسم المخرجة والمنظرة المعروفة جيرمين دولاك رائدة حركة الطليعة في السينما وكانت أكثر تسلحاً من الناحية الثقافية من آليس وأكثر استعداداً لخوض مغامرة الاخراج، ولقد تركت بصماتها واضحة على مسيرة وتاريخ وتطور الفن السينمائي ابان السنوات العشرين الاولى من هذا القرن الذي ولد فيه فن الصور المتحركة . . وقد وضعت جيرمين دولاك كل قدرتها وايمانها في العمل من أجل ايجاد وتكريس فن سينمائي صاف وحر وذكي واحتلت مكاناً متميزاً في تاريخ الفن السينمائي العالمي، وكان نشاطها التنظيري يضاهي نشاطها وابداعها العملي في هذا الميدان . . وحول اعمالها يتبلور الجزء الأكبر من المبادىء التي اعتمد عليها الذكاء السينمائي لينمو ويكبر وينضج كما قال شيخ السينمائيين آنذاك مارسيل ليربييه .

جيرمين دولاك أديبة أحبت المسرح والموسيقى ومن ثم سحرت بالسينما منذ أول ظهورها واعتبرتها «الاداة التعبيرية الأكمل للقرن العشرين» . . وهي ذات ميول اشتراكية

ومن المدافعين المتحمسين عن حقوق المرأة . .

ولـدت عام ١٨٨٢ في آمبين في عائلة برجـوازية من العسكريين ورجال الاعمال والصناعة واسمها الحقيقي جيرمين سيسة شنيدر وعرفت فيما بعد بجيرمين دولاك حيث تلقبت باسم زوجهـا، كانت تميل إلى المطالعة الكثيرة ودرست الموسيقى والغناء وعلى الاخص اوبرا ريتشارد فاغنر ومن ثم هوت التصوير الفتوغرافي وتزوجت في عام ١٩٠٥ بالمهندس الزراعي البير دولاك وتطلقت منه بعد خمسة عشر عاماً من الحياة الزوجية.

رفضت بأن تكتفي بلعب دور الزوجة واقتحمت ميدان الصحافة وعينت عام ١٩٠٩ كمحـررة في مجلة فرنسية وهي مجلة نسائية تصدرها جمعية الحركة النسوية الفرنسية، عملت فيهـا أربعـة أعـوام وكتبت عن شخصيات نسـائية شهيرة في العالم وأجرت معها مقابلات، وفي نفس الوقت كانت تتعاون مع مجلة لافروند ومن ثم تخصصت بكتابة النقد الفني والمسرحي في مجلة «المرأة الفرنسية».

ومع الوقت كرست نفسها نهائيا للسينما وقالت آنذاك «السينما فن مدهش وهو يعجبني ويأخذني كلياً وأتابع بشغف واهتمام تطوره . . وقد بدا لي ان لي القدرة على دراسته وتحليل وتطبيق الامكانيات التي يمتلكها هذا الفن الجديد وعن طريقه سأصل إلى عرض واخراج مثالي ونموذجي الفني الذي أرنو اليه وأتخيله» . .

في عام ١٩١٤ دعتهـا صديقتهـا الراقصة العالمية الشهيرة في تلك الفترة ستاسيا نابيركـوفسكـا لترافقها إلى روما حيث ستقوم بتصوير فيلم تاريخي هناك ولتحضر تصوير الفيلم لتكتب عنها. وكانت أول مرة تجتاز فيها جيرمين دولاك ابواب الاستديو السينمائي، وعنـد عودتهـا اسست شركـة سينمـائية وتعـاونت مع ايرين هيلل ايرالانيجيه الشاعرة والـروائية المعـروفـة لتصبـح كاتبة سيناريوهاتها بينما اهتم زوجها بادارة الشركة الحديثة العهد . لقد رحب بها زملاؤها المخرجون الرجال لقوة شخصيتها وموهبتها الفذة وصدقها وعزمها الذي لا يلين على مواصلة الطريق الذي اختارته. وبدأت في اخراج اربعة افلام كتبت نصـوصهـا وسينـاريوهـاتهـا مساعدتها الاديبة ايرين ايرلانجيه وهي الاخوات الاعداء جيو الغريبة الاقدار أو اللغز وفينوس فيكتريس، وفي صخب الحياة . . وفي عام ١٩١٧ بدأت فيلماً طويلاً على حلقات هو ارواح المجانين قامت ببطولته ممثلة ذكية وموهوبة جداً هي ايف فرانسيس بطلة مسرحيات كلوديل وزوجة أول ناقد ومنظر سينمائي في فرنسا وهو لوى ديللوك . . .

وكـان لقـاء جيرمين دولاك بـلوى ديللوك بداية سعيدة لميلاد حركة سينما الطليعة الذي كان هو محركها وكانت هي قلبها النابض . . وفي عام ١٩١٨ قدم ديللوك الناقد والمنظر سيناريو فيلم بعنوان «الحفل الاسباني» للمخرجة الموهوبة الذي اخرجته

بذكاء وبطريقة معبرة وتجديدية جداً بالنسبة لتلك الفترة . .

كانت جيرمين دولاك تحلم بسينما صافية ونقية بما يشبه الاحلام بلا مواضيع وعلى شكل سيمفونيات بصرية كما كانت تسميها مقدمة لخلق سينما مطلقة . وتقدمت عملياً في هذا المفهوم باخراج فيلم «دعوة للرحيل» وهو عبارة عن ترجمة سينمائية لاشعار بودلير ، وبعد ذلك ورغم الصعوبات المالية قامت بتجربة اخرى جمعت بين السينما والموسيقى حبها الاول وهوايتها الاصلية ، واخرجت فيلم «ديسك أو اسطوانة رقم ٩٢٧» وهو ترجمة سينمائية لبعض صفحات موسيقية من شوبان ومن ثم اخرجت فيلم «مواضيع ومنوعات» من بعض المقطوعات الموسيقية والكلاسيكية وفيلم دراسة سيوغرافية عن موسيقى آربيسك لديبوسي .

في كل بلد مخرجة :

عندما عرض على الشاشات الفرنسية الفيلم السوفييتي «قرية الخطيئة» للمخرجة السوفييتية اولغا بريوبريجوتسكايا صاح النقاد «انها جيرمين دولاك» الروسية . .

لقد ترك فيلمها انطباعاً مدهشاً لدى النقاد والجمهور الفرنسيين ، ويُعد اليوم من أهم الانتاجات والآثار السينمائية الراقية في فترة الفيلم الصامت . . .

لم تلعب المخرجة اولغا بريوبريجوتسكايا أي دور في عملية الابداع النظري أو التنظري في مجال جمالية الفيلم كما كانت جيرمين دولاك لكنها مع ذلك قدمت ، احدى التحف السينمائية السوفييتية الصامتة . . .

من هي اولغا بريوبريجوتسكايا ؟ . . يقال انها كانت راقصة باليه . . ولدت عام ١٨٨٥ ودرست منـذ حداثة عمرها الفن الدرامي واصبحت ممثلة مسرحية قديرة . بدأت العمل في السينما عام ١٩١٣ كممثلة في عدد من الافلام المتفاوتة المستويات وقبل ثورة اكتوبر بقليل اصبحت نجمة سينمائية مشهورة . وفي عام ١٩٢٥ احتكت بالاستديوهات السينمائية ولكن ليس بصفة ممثلة ، بل صارت تهتم بالاخراج كمساعدة مخرج مع رفيق قديم هو المخرج غاردين كما عملت كمساعدة مع مخرجين آخرين ، ثم شاركت آخرين عملية الاخراج بصفة مخرج ثاني . وقد اتاحت لها هذه التجارب تعميق خبرتها ومعارفها التقنية والعملية وسنحت لها فرصة ان تكون مساعدة للمخرج السوفييتي الكبير دوفجينكو . . .

وفي عام ١٩٢٧ وبتوجيه من هذا المخرج وافقت مؤسسة «سوفينكو» على انتاج فيلم من اخراج اولغا بريوبريجوتسكايا فكان فيلم «قرية الخطيئة» وكانت المرة الاولى في

تاريخ الفن السينمائي السوفييتي تقوم امرأة باخراج فيلم روائي طويل. . ولقد سبق لها وان اخرجت عدة افلام قصيرة للاطفال.في المانيا الغربية برزت امرأة أخرى في مجال الاخراج السينمائي هي ليني ريتغونشهال التي أثارت حول شخصها الكثير من الاقاويل والاشاعات والانتقادات التي يعود معظمها لاسباب سياسية وايديولوجية أو لاسباب الغيرة الشخصية ـ ولكن مما لا شك فيه ان هذه المرأة تتمتع بموهبة كبيرة وارادة حديدية لتحقيق مشاريعها.

ولدت في برلين سنة ١٩٠٢ في عائلة ميسورة الحال مكونة من أب موظف كان في شبابه ممثل ويهوى الفنون الجميلة وكذلك زوجته والدة ليني المنحدرة من أصل روسي وكانت الطفلة موهوبة بالرسم وتحفظ الكثير من القصائد الشعرية حتى قبل دخولها للمدرسة.

وكانت تعشق المسرح في بداية شبابها، لكن والديها عارضا اختيارها المبكر هذا لطريق الفن، عندها اختارت ليني الرسم ودخلت الفنون الجميلة. وقد قرأت في أحد الايام اعلاناً في الصحف يبحث فيه أحد السينمائيين عن عشرين وجهاً نسائياً شاباً للظهور في فيلم عن اوساط الرقص. . وبعد اختيارها اثر عبور امتحان الاختبار قررت ان تصبح راقصة أيضاً. . وبعد تردد وافق والداها على اعطائها دروساً في رقص الباليه على يد راقصة الباليه الروسية اد واردوفا ومن ثم على يد الراقصة الشهيرة ماري ويغمان التي ادخلتها في فرقتها وبعد ذلك اشتهرت في المانيا كراقصة موهوبة لكن حادثاً وقع لها وسبب لها جرحاً في الركبتين في حزيران عام ١٩٢٤ منعها من مواصلة مهنتها. بدأت عملها السينمائي كمساعدة للمخرج ارنولد فانك عام ١٩٢٦ الذي كان يدير شركة انتاج وفريق متجانس من الفنانين والتقنيين. كانت ليني رفينستهال المرأة الوحيدة بينهم. وكانت قد ظهرت كذلك في افلام متفرقة مثل«الجبل المقدس»،و«القفزة الكبرى»،و«سجينة الجبل»و«عاصفة على الجبل الأبيض». وتعرضت للانتقاد الحاد والقاسي من قبل بعض النقاد على طريقتها في التمثيل وافتقادها الموهبة في هذا المجال. كما مثلت البطولة المطلقة في فيلم (مسألة ما يرلنغ) عام ١٩٣٣ . . وحين قررت ولوج مجال الاخراج لم تستطع اقناع المنتجين بتمويل افلامها فقررت انتاجها بنفسها واعدت موضوعاً اثيراً وقريباً لنفسها عنوانه «الزهرة الزرقاء» لكنها عدلته إلى «النور الازرق» وكتب لها السيناريو الناقد والمنظر السينمائي الكبير بيلا بالاز الهنغاري الاصل. بطلة الفيلم تدعى يجونتا وهي فتاة شابة غريبة الاطوار ايطالية الاصل لا تنام وتتخيل نفسها في ليالي القمر المكتمل وهي تتجه نحو ضوء ازرق تراه يتلألأ على قمة جبل ويصدر عن احجار الكرستال السحرية وهي الصخور المكونة للجبل، وتمنح السعادة النموذجية والمثالية الابدية لمن يمتلك حجرة الكرستال المشعة بالضوء

الازرق والايجونتامي الوحيدة التي امكنها بلوغ الضوء الازرق لذلك اعتبرها سكان القرية ساحرة لكن عشيقها كشف سر الطريق المؤدي للنور الازرق فاصابها ذلك بصدمة جراء خيانة حبيبها لها مما دفعها للانتحار حيث رمت نفسها إلى الوادي من أعلى قمة الجبل وكان موتها قد جلب السعـادة لكل الذين لم يفهموا ان الواقعية تقتل الحلم. . . كان الفيلم رومانتيكياً حالماً وذا مسحـة شاعـرية وحاولت المخرجة بامكانياتها وتجربتها المحدودة تحقيق وتنفيذ اثـر سينمائي مكتمل وناضج ونجحت في خلق مناخ الاسطورة من خلال اسلوبها الاخراجي وجسدت بدقة لعبة التناوب بين الظلال والاضواء بين الابيض والاسود والتدرجات الرمادية وكشف هذا الاسلوب عن عمق شاعري لدى هذه المؤلفة السينمائية الذكية والجريئة التي نافست في عملها كبار المخرجين الرجال في تلك الفترة بل وتفوقت على البعض منهم في هذا الاختصاص المحتكر من قبلهم. . وكانت المخرجة هي التي مثلت الدور الاول والرئيسي في فيلمها ايضاً وكان ايذاناً بميلاد مخرجة امرأة الاولى في تاريخ السينما الالمانية. . .

عنـدمـا لجأ كاتب السينـاريو اليساري والاشتراكي النزعة والعقيدة بيلا بالاز إلى الاتحاد السوفييتي بعث لها بعروض للعمـل في موسكو لكنها رفضت لانها شعرت انها لا تستطيع ان تمثل وتبدع خارج المناخ الجرماني في إطار انتعاش السينما التعبيرية. وبعد وصول هتلر للسلطة وسيطرته على الحكم اخرجت ليثي ريفنستهال فيلم «انتصار الارادة» عام ١٩٣٤ وفيلم «الهة الملعب» وهما فيلمان دعائيان للنظام النازي الجديد في السلطة لكنهما مع ذلك كانا فيلمين ذكيين وممتعين من الناحية الشكلية البحتة وليس من ناحية المضـمـون. ومنـذ ذلـك التاريخ اصبحت هذه المرأة مخرجة النظام الرسمية واصبحت كلمتهـا هي النافذة. وانتشرت حولها الاقاويل والشائعات والانتقادات العنيفة والجارحة والمسيئة لسمعتها وفنها بسبب علاقتها بقادة الرايخ الثالث حيث قال عنها هتلر انها فنانة موهـوبـة جداً. . لكن هذا الموقف تجاه النظام النازي كلفها الكثير بعد اندحار النازية وسقوط هتلر. . .

وفي هوليود كانت هنـاك ممثـلات شهيرات في مصاف النجوم يشاركن في بعض جوانب اخراج افلامهن إلى جانب المخرجين الرجال المكلفين بالمهمات الرئيسية لعملية الاخـــراج السينمـــائي وهي ادارة الممثلين والتنسيق مع مدير التصـــوير لاختيار الانـارة المطلوبة. ومن الامثلة المشهورة ماري بيكفورد وماي مواري والأختان يموفا وماريون دافيز خصوصاً عندما يكون المخرج زوجاً للنجمة والبطلة الرئيسية لفيلمه.

أول مخرجة هوليودية هي بلا جدال لـويز فيبر وكانت بدايتها عام ١٩١٥ في الفترة نفسهـا التي اخرجت فيها جيرمين دولاك الفرنسية أول افلامها الطليعية في فرنسا كانت لويز

فيير ممثلة وعضواً في فريق المنتج ادولف زكور مؤسس شركة بارامونت. وظلت لعهد طويل المرأة المخرجة الوحيدة في هوليود لأن اليس غي كانت تعمل آنذاك في نيويورك. . .

الشخصية النسائية الثانية التي اقتحمت ميدان الاخراج السينمائي في هوليود هي دوروتي ازنر التي لم تكن ممثلة أو مؤلفة أو أديبة بل كانت وببساطة خبيرة ومتعمقة بتقنية السينما وهي من مواليد سان فرانسيسكو عام ١٩٠٠. درست في جامعة كاليفورنيا الجنوبية في قسم الاخراج السينمائي ودخلت للعمل في شركة بارامونت عام ١٩١٩ كسكرتيرة ومن ثم مارست الاختصاصات السينمائية كافة قبل ان تصل إلى مستوى تحمل مسؤولية الاخراج كاملة وتمرنت فترة طويلة كخبيرة مونتاج.

وهناك امرأة اخرى هي جاكلين اودري التي منذ ان دخلت استوديوهات هوليود عام ١٩٣٣ وهي تعرف ما تريد بالضبط. فبرغم انوثتها المغرية وجمالها الجذاب لم تفكر لحظة واحدة في ان تصبح ممثلة وان تكون نجمة مشهورة بل أرادت ان تكون مخرجة. . . وعملت سكرتيرة ثم مساعدة مخرج واخيراً مخرجة سينمائية لها كلمتها وشخصيتها المتميزة ونفوذها واسلوبها وهذا هو الطريق التقليدي في التدرج في المسؤوليات الذي يتبعه الرجال للوصول إلى مهنة الاخراج.

وفي فرنسا برز اسم انيس فاردا ذات الشخصية القوية التي ظهرت بوضوح وانعكست على آثارها السينمائية. وهي من أصل يوناني ولدت في بروكسيل من ابوين يونانيين عام ١٩٢٨ وتربت في فرنسا وتابعت دروس مدرسة فنون الديكور في باريس واصبحت مصورة فوتوغرافية وتوظفت في المسرح الوطني الشعبي الذي كان يديره المسرحي القدير جون فيلار. فكرت فاردا ان الكاميرا السينمائية افضل وأكثر فائدة من آلة التصوير الفوتوغرافي لتسجيل الحياة الواقعية. وفي عام ١٩٥٤ اسست جمعية سينمائية مع الان رينيه وكارلوس فيلار ديبو لانتاج فيلم كتبت هي له السيناريو واسمه «النقطة القصيرة». وكان أثراً سينمائياً فريداً ومتميزاً في تاريخ الانتاج السينمائي الفرنسي في ذلك الوقت. وكان فيلمها الطويل الثاني قد اخرجته بعد عدد من الافلام القصيرة لما لاقته من صعوبات وعراقيل وعوائق مادية منعتها من مواصلة اخراج الافلام الطويلة وبعد ظهور الموجة الفرنسية الجديدة في السينما التي كانت هي من روادها عام ١٩٥٧. تمكنت انيس فاردا من اخراج فيلمها الروائي الثاني الذي اعطته عنوان (كليو من ٥ إلى ٧) وكان فيلماً جميلاً ومجدداً في كل شيء في موضوعه وتصويره واخراجه. ثم الحقته بتحفتها السينمائية الثالثة «السعادة» الذي كثيراً ما قورن بافلام المخرج السويدي الكبير انغمار بيرغمان. وما زالت هذه المخرجة المبدعة تعمل وتبدع في السينما الفرنسية التي اصبحت أحد اعمدتها الرئيسية اليوم بعد ان رسخت اسمها عالمياً ومن آخر افلامها الطويلة الفيلم الجريء «بلا مأوى ولا قانون» الذي اخرجته عام

١٩٨٧ . وهناك مخرجات كثيرات اليوم في فرنسا وايطاليا والمانيا وفي الدول الاشتراكية خصوصاً وكذلك في بلجيكا وسويسرا حيث بلغ عدد النساء المخرجات اليوم أكثر من مئتي مخـرجـة سينمائية في جميع انحاء العالم وهو عدد ضئيل اذا ما قورن بعدد المخرجين الرجال في العالم. لكن المرأة اثبتت انها قادرة بل وكثير من الاحيان متفوقة على الرجل في هذا المجـال من العمل الفني الابداعي الذي بدأ وما زال حكراً على الرجال. والقائمة طويلة لا يمكن ذكرها بالتفصيل تبرز منها بضعة اسماء كأمثلة على ما ذكرنا مازلن يعملن وينتجن افلاماً سينمائية راقية في الوقت الحاضر سنعود اليها بالتحليل في دراسة قادمة. هناك نيبلي كابلان مساعدة عميد السينمائيين الفرنسيين الراحل ابل جانس وهناك الروائية الكبيرة مارغـريت دوراس التي اخـرجت العديد من الافلام السينمائية الطليعية الحديثة وهناك المخرجة البلجيكية الموهوبة شتال اكرمان والممثلة الشابة التي مارست الاخراج في فرنسـا كريستين باسكـال وزميلتهـا الممثلة الفـرنسية والمخرجة السينمائية جولييت بيرتو واليزابيت هوبير ويانيك بيلون صاحبة الفيلم الجميل والمؤثر «الحب المغتصب» وهناك كولين سيرو مخـرجـة الفيلم الـذائـع الصيت «ثلاثة رجال ومهد» وجان مورو والالمانية مارغريت فون تروتا ومونيك رونو وليلان دي كريماديك. . . الخ.

وفي السينمـا العربية لدينا مخرجات موهوبات مثل رندة الشهال وجوسلين صعب وهيني سرور وغيرهن من مصر وتونس والجزائر والمغرب لكن مهمتهن اصعب من زميلاتهن الغربيات نأمل ان يزداد عددهن وابداعهن في إطار السينما العربية الجادة. . .



الدور الريادي لابداع جواد سليم واثره على الفن العراقي المعاصر

نافع الخطيب

يقترن تاريخ الفن العراقي المعاصر باسماء لامعة من الفنانين في الاربعينات والخمسينات وبداية الستينات لما امتلكت من أهمية في دفع عجلة تطوره إلى أمام. منهم فائق حسن وجواد سليم وعطا صبري وحافظ الدروبي ومحمود صبري وشاكر حسن آل سعيد وخالد الجادر وفرج عبو وآخرون. إلا ان أهمية وثقل فائق حسن وجواد سليم ومحمود صبري اتخذا مكاناً متفرداً وخاصاً في هذه الحركة لما اضطلعوا به من دور ريادي بارز ومتميز. ففائق حسن باعتباره مؤسس أول جماعة فنية عام ١٩٥٠ عرفت (بجماعة الرواد) التي وظفت جل ابداعاتها وطروحاتها إلى تحقيق تحول في موقف الفنان والجمهور العراقيين من محاكاة الطبيعة في الطرح الفني وفهم العمل على أساس المتعة الذاتية كما نراها عند الرواد الكلاسيكيين الاوائل، أي عبد القادر رسام ومعاصريه، ونقله إلى موقع يتخذ به العمل الفني كوسيلة للتعبير عن الطبيعة والانسان وعلاقاتهما المتجذرة. أما محمود صبري فقد عُرف بما قدمه في مجال النتاج الفني والنقدي كيما يتوصل إلى نماذج فنية متطورة وعبر موقف مبدئي ناضج.

لم يعرف الفن العراقي فناناً نال حظوةً ومكانةً مثل جواد سليم، واذا حاولنا الولوج والبحث في جذور هذه الشهرة المهيمنة على أغلبية فنانينا وجمهورنا سواء أكان جيله أم جيل الشباب اللاحقين، لوجدنا ان السبب الاول يكمن في جواد الانسان المفكر الفنان فقط، والسبب الثاني باعتباره أول من استلهم التراث العراقي القديم (خاصة الفن

الاشـوري والسومري) والاسلوب الزخرفي لمدرسة بغداد في القرون الوسطى وأول من تناول الوحدات الشعبيـة المحلية واستعار الرموز الكلاسيكية والتأكيد على أهميتها مجدداً في احياء الحـاضـر وإثـرائـه، اضافة إلى تناول البيئة المحلية وما يجول فيها واستلهام النضـالات الشعبية. والسبب الثالث باعتباره مؤسس (جماعة بغداد للفن الحديث) عام ١٩٥١ والتي اضطلعت بدور بارز في ارساء الجانب الفكري والجمالي في العمل كموقف معبر عن الوعي الحضاري من خلال رؤية فنية حددت ببيانات الجماعة المذكورة آنذاك، نقتطف منها على سبيل المثال: (فهم يريدون تصوير حياة الناس في شكل جديد يحدد ادراكهم وملاحظاتهم لحياة هذا البلد الذي ازدهرت فيه حضارات كثيرة واندثرت ثم ازدهرت).

ان دور جواد سليم ريادي في حركـة التشكيل العراقي، واضح الأثر في الجانب الثقـافي في الـوطن. ينسحب اثـره على كثير من الفنانين ليس فقط المعاصرين له في الاربعينـات والخمسينـات كفائق حسن وفرج عبو ونزيهة سليم وعيسى حنا ورشاد حاتم وشاكر حسن آل سعيد واسماعيل الشيخلي، بل وفي الجيل الثاني ما بعد ثورة تموز ١٩٥٨ امثال كاظم حيدر وسعد الطائي ونوري الراوي وخالد الرحال وميران السعدي وفتاح الترك ومحمد غني حكمت وعبد الجبار البناء ونداء كاظم وخليل الورد وآخرين. كذلك الأمر ينسحب على جميع الاجيال الآتية إلى وقتنا الحاضر، لما قدمه الفنان من نظرة جديدة في تذوق العمل الفني وإلى ايجاد صيغ جديدة في روحية منمنمية قديمة في حدود العمل يجلب فيها الفنـان نغمـة فريدة مشخصـة وملحمية للمـوضـوع، وابتكاراً تكوينياً مشوقاً وتعبيرية في ايقاعات زخرفية وتلوينية. وكذلك تتمثل نتاجات جواد في كونها قد قدمت اتجاها تقنيا وجهـداً فنياً يركز على مفردات اللغة الفنية ويستند إلى رؤية معاصرة بعيدة عن الضبابية تتوخى الحس التاريخي والجمالي والحضاري والشعبي كما يستند إلى تفهم جيد للقضايا المعاصرة المطروحة أمام الانسان مؤكداً على اظهار مشاكله النفسية والاجتماعية لاغناء مضمون العمل الفني، يكون الانسان فيه حاضرا ومقررا في حالات مختلفة دون الاستغناء عن جماليات الابداع نفسه.

تمتلك شخـوص جواد فعـلا وحركة، وغالباً ما يجسدها بايماءات حركات اليدين والاصابع والجسد والسيقان. فهو يكشف العوالم الداخلية ومزاجيات وطباع واحساسات وتفكيرات هذه الشخوص. تتوضح هذه العملية في لوحة «كيد النساء» ١٩٥٧ و«نصب الحرية» ١٩٦١، وتلك مقدرة التفت اليها جواد سليم لأن الفن بمستطاعه كما يقول هيغل (ان يعبر عن السيكولوجية الاجتماعية للبشر ورد فعلهم النفساني أزاء الطبيعة والمجتمع). إن التفات جواد إلى هذا الجانب الايقاعي والانسجامي لهو تجسيد درامي متميز قادر على

ادراك أهمية دور الاعضاء كقيمة ثرية ذات دلالات عديدة ليس في اللوحة والنحت والفنون التشكيلية الاخرى وحسب، بل وكقيمة حركية بلاستيكية وايمائية وأدائية ذات أهمية فائقة في التمثيل المسرحي والفنون السينمية.

كان موقف جواد سليم من التراث الفني العراقي القديم، موقفاً سليماً ومتفهماً بلا شك، فتحويره الاشكال السومرية المنفذة على القطع الطينية الدقيقة، وتأثره بتفاصيل الوجوه وفورم العيون وجماليات الجسد ووضعيات الاطراف والاوضاع الاشورية، وهذا الأثر غالباً ما نراه عند الفنانين كطارق مظلوم وضياء العزاوي وفيصل لعيبي وخالد الرحال وشمس الدين فارس.

كما ولع جواد سليم بالمدرسة البغدادية للتصوير في القرون الوسطى وخاصة بمتمنمات يحيى الواسطي واستفادته من التكوينات الديكورية والروح الزخرفية وتقشف الالوان وشفافيتها. نلمس هذا الاثر في نتاجات نزيهة سليم وشاكر حسن آل سعيد وفؤاد جهاد وحسن عبد علوان وفيصل لعيبي.

اهتم جواد سليم بالزخارف والخطوط الاسلامية مستلهماً اشكالاً ووحدات فلكلورية ورموزاً وتعابير محلية. فاستخدم الهلال والاقواس والموتيغات الزخرفية الشعبية ترك أثره على بصمات بعض الفنانين العراقيين نذكر منهم على سبيل المثال محمد غني حكمت وميران السعدي وخالد الرحال وشاكر حسن آل سعيد وكاظم حيدر وضياء العزاوي وسعد شاكر.

كما ان استلهام الموضوعات المحلية ذات الحس الشعبي واستلهام الحكايات اليوميّة للناس البسطاء من خلال فاعليتها كيما يبحث عن ملامحها واحاسيسها وهيئتها، هذا الأثر نلقاه في نتاجات اغلب الفنانين العراقيين منهم فرج عبو وشاكر حسن آل سعيد واسماعيل الشيخلي ونزار سليم ونزيهة سليم وعلي الشعلان وضياء العزاوي ومحمد عارف وخالد الرحال وفيصل لعيبي ومحمد غني حكمت.

إن موضوعات البغداديات لدى جواد سليم اصبحت مهيمنة على نتاجات كثير من رسّامي جيل ما بعد الثورة. وهذا الجانب يلقي أهمية عند الناقد الفني السوفييتي ب. بكدانوف بقوله (موضوعات البغداديات اصبحت مشهورة في نتاجات رسامي الاسرة الفنية بفضل الفنطازيات المقتضبة الحية ذات الالوان المتوهجة لجواد سليم).

كان جواد سليم، في موقفه من التراث واستخدام الوحدات الفلكلورية المحلية قد استحدث اثراً ليس فقط على الجيل المعاصر له والجيل الذي أتى بعده، بل قد استحدث كذلك نبضاً واندفاعاً آخرين لدى الشعراء والقصاصين والنقاد الشباب العراقيين آنذاك كدعوى لصنع تراث ثقافي معاصر. وهذا ما تجلى فعلاً على ما كان يدور في تلك

الحوارات والمجادلات الفنية والادبية والفكرية والجمالية والتقنية بين شلة واعية من الادباء التي كانت تربطه واياها علاقة وطيدة، أمثال بدر شاكر السياب وبلند الحيدري وحسين مردان وجبرا ابراهيم جبرا وغائب طعمة فرمان وفؤاد التكرلي وعبد المجيد الونداوي وكاظم جواد وعبد الوهاب البياني وسعدي يوسف وآخرين، متخذين من مقهى ياسين في بغداد مقراً لمناقشاتهم. يذكر شاكر حسن بهذا الصدد بقوله: «اعتدنا ارتياد المقهى حيث يتنقل الحديث بيننا من كونه سرداً مقتضباً للوضع السياسي واليومي إلى كونه تحليلاً ونقداً أو استعراضاً لمسيرة العمل الفني».

يورد الناقد الفني جبرا ابراهيم جبرا لنا مثلاً بهذا الصدد ضمن اشارته إلى احدى لوحات جواد سليم «رحلة السندباد الثامنة» التي تضمنتها معروضاته «جماعة اصدقاء الفن» عام ١٩٤٢ انه «قد أكثر الشعراء في الآونة الاخيرة من استعمال رمز السندباد ورحلته، وهذا أثر وحافز جوادي واضح».

بقي لفكر جواد وفنه لايجاد خصوصية عراقية واستلهام التراث والوحدات الشعبية بصيغ معاصرة لا في الرسم والنحت وباقي الفنون التشكيلية الأخرى وحسب، بل وفي بعض مجالات الفنون الاخرى كالموسيقى نذكر على سبيل المثال سلمان داوود ومنير الله ويردي ومنير بشير وجميل بشير. كذلك أثر جواد بهذا المضمار ينسحب على المعمار العراقي والذي كشف عن اثره المباشر أو غير المباشر خصوصاً بعد ان تبلور شيء من الاسلوب المعماري الخاص بالعراق في الخمسينات. فمما لا ريب فيه ان معماريين بارزين كرفعت الجادرجي وقحطان عوني الذي كان اصلاً عضواً في «جماعة بغداد للفن الحديث» ومدحت علي مظلوم وسعيد علي مظلوم قد تأثروا بطروحات جواد سليم، وظهر فيما بعد أثره الجمالي في اسلوبهم المعماري. ورفعت الجادرجي يذكر بصدد هذا انه (نشأ في منتصف الاربعينات في فن الرسم والنحت واخص بالذكر اعمال وفلسفة جواد سليم، وقد انتقل في اوائل الخمسنات إلى العمارة».

ان هذه الدعوة الخلاقة لاستلهام التراث العراقي من لدن جواد سليم تحتم عليه فهم معنى التراث وطريقة صنعه من جديد لا اقتباسه ميكانيكياً، فالتعامل مع التراث يستوجب نظرة علمية تتطابق ومعطيات هذه المرحلة أو بتعبير أدق يجب ان نختار من التراث آخذين في الحسبان الصيغ الوطنية والعالمية في مرحلتنا التاريخية مرحلة التحول الثوري التي يمر بها الانسان كيما نصنع في مجال عملنا الفني ما يساعدنا في عملية التحول هذه. كما ان نتاجات جواد خلال تلك الحقبة المنصرمة والحاضرة تمثل جهداً مهماً في البحث عن صيغ فنية لبناء كيان فني عراقي متجدد يسعى لربط هذا التراث المتنور والواقع ومعطيات الفن

الانسـاني لارسـاء نتـاج فني محلي جديد ذي معـانٍ ودلالات تلاحق الفكـر والوجدان وموضوعات العصر والتغيير وتدعو إلى البناء والحرية والنضال والتقدم وتعمق الاحساس بالواقع عن طريق المشاركة في تغييره وتجديده واعادة صياغته . هذه المسألة الصعبة باتت حتمية ومقلقة بالنسبة للفنانين العراقيين التقدميين الذين يعيشون في أسوأ حالات وظروف قاهرة في المنفى أو في الداخل فيما يتعلق بصيانة كرامتهم كناس وكفنانين وصيانة الحركة الفنية العراقية عموماً بعد تعرضهم للخطر الهمجي اللاانساني من زمر سوداء معروفة . وليس عبثاً تنبؤ جواد سليم وجماعته في البيان الاول (لجماعة بغداد للفن الحديث) عام ١٩٥١ الذي جاء فيه : «ولسوف يجد الجيل الجديد ان بداية ابتدأها اسلافهم تتلمس طريقها رغم الظلم والخطورة وتثقل كاهل الفنان العراقي الحديث» .





بيكاسو في ملفات الـ «C I A»

عادل حبه

أعلن مؤتمر باريس الأخير عملياً ورسمياً اسدال الستار على فترة عصيبة ومشينة في التاريخ المعاصر، ويعد هذا المؤتمر خطوة عملاقة نحو دمقرطة العلاقات الدولية وارسائها على أسس حضارية وانسانية، رغم ما سيجابهها من عقبات وصعوبات خاصة على نطاق البلدان النامية. لقد بدأ العديد من المختصين البحث في آثار تلك الحقبة على مختلف شؤون الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والاخلاقية والثقافية، وتفتح الارشيفات السرية وتتوالى الصورة القاتمة لها والفضائح المتعلقة بها.

ولا يسعنا هنا إلا ان نستذكر آثار الحرب الباردة على الثقافة العالمية ومحنة المثقفين ومعاناتهم في تلك الاجواء الهستيرية التي هيمنت على هذا البلد أو ذاك وامتدت إلى بلدان هي بعيدة جغرافياً عن خط المواجهة ولابد لنا ان نستذكر ذلك المناخ الهستيري الذي عم الولايات المتحدة الامريكية في بداية الخمسينات وامتدت آثاره إلى بلدان عديدة ومنها العالم العربي. وما زالت في الذاكرة لجنة مكافحة النشاط «الهدام» السيئة الصيت وحملاتها التي عرفت «بالمكارثية» وامتدت فروعها إلى بلدنا العراق بحيث سميت لجان مماثلة لهذا الغرض ومنها لجنة مكافحة النشاط الهدام المرتبطة بحلف بغداد. كم من المآسي ارتكبتها المكارثية ازاء حملة الثقافة الانسانية في الولايات المتحدة حيث وجهت الاتهامات المشينة إلى المئات من المثقفين وبعضهم من أودع السجون أو حرموا من

الابداع أو طردوا أو منعوا من دخول الولايات المتحدة، لنتذكر ارثر ميللر وشارلي شابلن وبرتولد بريخت وغيرهم. وأخذت هذه الهستيريا مكانها أيضاً في الاتحاد السوفييتي وطالت العديد من رواد الفكر والثقافة والفن بدءاً من بوريس باسترناك الروائي الكبير إلى تاركوفسكي السينمائي السوفييتي العملاق وآخرين. وستتوفر للعديد من المعنيين في الثقافة فرصة ذهبية للبحث في محنة الثقافة في فترة الحرب الباردة بالارتباط مع اجواء الانفراج الحالية، وبالتأكيد سيتسنى لهم الكشف عن مآسي وانحطاط لا مثيل له مورس في ذلك العهد وفي العديد من البلدان.

ومن بين المبادرات الجديدة في هذا المجال مقالة نشرتها جريدة «هيرالد تربيون» في عددها الصادر في ١٢ تشرين الثاني ١٩٩٠ تحت عنوان «بيكاسو في لغة الاستخبارات الامريكية». هذه المقالة تعتبر شحّة من فيض الانتهاكات التي ارتكبت بحق المثقفين آنذاك. فالمقالة تشير إلى ان الاستخبارات الفدرالية الامريكية ووزارة الخارجية الامريكية تحتفظان بملف سري ضخم عن بابلو بيكاسو رغم ان هذا الفنان الكبير ولد في اسبانيا وعاش معظم حياته في فرنسا ولم يزر الولايات المتحدة مطلقاً. ويكشف ملف الاستخبارات الامريكية الفدرالية ان مسؤولين كباراً صرفوا الوقت والجهد الكبيرين خوفاً من التأثير الذي يمكن ان يحدثه بيكاسو (الذي انضم إلى الحزب الشيوعي الفرنسي عام ١٩٤٤) على الرأي العام الامريكي. وزرع بيكاسو كفنان الخوف والحيرة في الدوائر الرسمية الامريكية!! ويحتفظ ارشيف الاستخبارات الفدرالية الامريكية حتى الآن بمعلومات عن مواطنين اوربيين، وليس امريكان فحسب، يعملون في حقول فنية متنوعة وجرى تعقبهم في منازلهم وتنقلاتهم. ويحتفظ هذا الارشيف بمعلومات عن كتّاب وفنانين مشهورين من الذين حازوا على جائزة نوبل من أمثال توماس مان، سان كلير لوسي، جون شتاينبك وبيرل باك، الكسندر كالدر وهنري مور...

وتشير الملفات السرية التي استطاع أحد المخبرين الصحفيين الاطلاع عليها أخيراً ان وكالة الاستخبارات الفدرالية ظلت تتعقب بيكاسو لمدة خمس وعشرين سنة ودونت ما قاله كله وجميع علاقته مع الشخصيات الفنية الأخرى مثل فرنارد لوجيه، لوي اراغون، لوكور بيريه وشارلي شابلن. ووصفت ملفات بيكاسو بالعبارة التالية: «شأن امني - ش (شيوعي) وانه «مخرب» محتمل ويشكل تهديداً!! لأمن وخير ورفاهية الولايات المتحدة».

وتشير الملفات ان السيد هوفر رئيس الاستخبارات الفدرالية قد أمر عميلاً له في السفارة الامريكية في باريس عام ١٩٤٥ بتعقب ومراقبة بيكاسو، ويورد هذا العميل اشارات عن نشاطات بيكاسو لجمع المال لضحايا الفرانكوية في اسبانيا. وكتب هوفر في أحد الملفات «يجب تزويد المكتب بأية معلومة تتعلق ببيكاسو وتثير انتباهكم نظراً لامكانية

سعي هذا الفنان للانتقال إلى الولايات المتحدة». وتشير الملفات إلى تصريحات للفنان بيكاسو تقول «ان انضمامي إلى الحزب الشيوعي هو خطوة منطقية في حياتي وعملي ويمنحهما معنى. لقد حاولت عبر الرسم والالوان ان اتغلغل عميقاً جداً في معرفة العالم والبشر، فلربما تحررنا هذه المعرفة، وكنت دائماً أقول وبوسيلتي الخاصة، ما اعتبره الأكثر حقيقة والأكثر عدالة والأفضل والاجمل بالتالي، لكن في مرحلة الظلم والتمرد شعرت بأن كل ذلك لم يكن كافياً وان عليّ ان أناضل ليس فقط عبر الرسم واللوحات بل بكائني ككل وبأكمله».

وفي عام ١٩٥٠ اعتزم بيكاسو السفر إلى الولايات المتحدة، ويتضمن ملفه تقريراً في صحيفة «واشنطن بوست» يحمل تاريخ ٤ آذار من العام نفسه، يشير إلى ان وزارة الخارجية الامريكية رفضت السماح لاثني عشر عضواً من وفد اوربي للسلام برئاسة بيكاسو بزيارة الولايات المتحدة.

ويحتوي الملف معلومات عن سيرة بيكاسو الشخصية ومنها ان «الفنان يعيش بهدوء مع امرأة اصغر منه سناً، فنانة وشيوعية مثله، وله منها ولدان». وهناك صفحة صادرة عن مكتب وكالة الاستخبارات الفدرالية تحدد الاتهام الأكثر جدية وخطورة ضد الفنان أو تتهمه «بالتجسس لصالح روسيا»، إلا ان الملف لا يشمل أية وثائق اضافية من شأنها ان تبرر تصنيف هذا الفنان في هذه الخانة.

نعم ان عهد الحرب الباردة المقيت بدأ يتداعى وسيتداعى كلياً، ولكن تبقى لدى البعض، وفي بلداننا خاصة، نفس العقلية: عقلية «شرطي» الثقافة، خاصة في ظل الانظمة الاستبدادية التي بلغت ذروتها في النمط الذي يحكم في عراقنا.

أتين دي لابويسيه: درس في الحرية *

اختيار وتقديم عواد ناصر

«من دفتر التراث» باب جديد نستحدثه في «الثقافة الجديدة» علّه يكون واحداً من الجسور التي تصلنا بتراث البشرية، من العرب وغير العرب، لما في ذلك من فائدة وضرورة معرفيتين.

أما ما نختاره هنا فيعتمد أولاً على قيمته المعرفية والانسانية، نصاً علمياً، أدبياً، فنياً، أو ما يحمله من صور تضع أمامنا أحوال من سبقونا وتركوا أثرهم في زمنهم ومن ثم في زمننا بما هم عليه من خلود.

وتـأسيساً على ذلك، وانطلاقاً منه، ندعو اصدقاءنا وكتابنا الاعزاء إلى اغناء هذه الباب مما يبعثون به إلى «أدب وفن ـ الثقافة الجديدة».

«أدب وفن»

الحرية.. هذه الكلمة الحلوة. الحرية كفرح لا يعرفها من أدمن الاستبداد إلا بحدود وَهمِ الحرية..

الحرية كنقيض لم نر، نحن العراقيين، بل العرب أيضاً، غير نقيضها: الاستبداد.

الحرية لم نلامسها إلا كمفهوم ذهني. «أنا حر».. ولكنني مثقل بكوابح من فولاذ لا تبدأ العمل عند قناعاتي وتجسيدها كسلوك.. ولا ينتهي عملها عند أول حاجز مسلّح يقيمه لي أقرب الاصدقاء.. ليس هذا مفارقة بل مأساة.

كم وَعَيْنا من ضرورات وكم تخلينا عنها ولم يكن التعريف العلمي للحرية كوعي للضـرورة إلا نصاً!! الحرية كفرحٍ مدعاة للبكاء!

نحن العراقيين نعلن صراحةً ونكتب ترميزاً ونبوح همساً: اننا نعشق الحرية، نعم، ونستشهد من أجلها... لكننا لا نعرفها.. نعرف، فقط، أن الحرية كلمة حلوة!!!

* تتمة هذا الجزء ستنشر في العدد القادم

أتين لابويسيه* نشر مقاله قبل أكثر من ثلاثة قرون (!) يتناول مسألة الحرية بمفهومها الآخر/ وجهها الآخر باعتبارها مقولة ناقصة بالنسبة لمن إعتاد الاستبداد. لكنه من ناحية أخرى، كمفكر حر ـ سبق فلاسفة الثورة الفرنسية بحوالي نصف قرن! ـ يحرّض من أجل الحرية عبر استفزاز الناس المستعبدين، الخانعين ضارباً أمثلة عدة من بينها: «الحيوانات لا تستسلم للصيد (الأسر) إلاّ بعد ان تُظهر أشدَّ المقاومة بالأظافر والقرون والمناقير والأقدام معلنةً بذلك مدى اعتزازها بما تفقد. . . .».

حسب وقائع ووعي وتطلبات تلك الفترة (قبل أكثر من ثلاثة قرون) ثمة حقائق وأفكار ونشدانات هي غير ما عليه اليوم. . . لكن مقالة هذا المفكر/ الشاعر الحر تتمتع بأهمية قصوى. . فبقدر ما تحمله من تمسك بالحرية كضرورة. . بل كبديهة حيوانية ـ فكيف اذا كانت انسانية ـ فهي تحمل بين ثناياها وتحتمل، أيضاً، ما يمكن أن نختلف معه رغم أنه شريكنا، بل صديقنا، رغم فارق التاريخ والجغرافيا، فيما نحلم ونكافح ونكتب: الحرية.

الحرية حاجة. . والحرية ـ بعد هذا وذاك ـ مفهومٌ وممارسة قيد البحث والسجال. . قيد الكفاح. . . والرصاص أيضاً في زمن دكتاتوريات أواخر القرن العشرين. . قرن الحضارة وادعاء الحرية. . . قرن القمع!!!

الحرية، برأيي، لم تزل مفهوماً وفكرة حلوة في أحلام وعقول قاطني هذا الكوكب قاطبة!!.

هل طغاتنا مؤهلون لأن يفكروا بسؤال مثل: «ماذا لو أنقذتم مواطناً واحداً قبل أن تدحروا ألف عدو؟»، كما جاء في مقالة لابويسيه؟

هل عرف طغاتنا معنى أن لم يتفوه أحد بكلمة ليس دليل الرضا بل علامة الاستبداد؟

واذا تفوّه هذا «الأحد» فهو دليل رفض الاستبداد لا تقديم صك العمالة للاجنبي؟

قبل ان يفهم الطاغية معنى ووسائل مكافحة الحرية وربما ضرورتها. . .

على الناس، نحن، أن نفهم معنى الحرية ووسائلها ومكافحة الاستبداد.

سيتولى هذا المفكر الغربي، الفرنسي، نيابة عنا، التعبير عن الحرية. . أو «العبودية المختارة» ليكفينا عناء التنظير والكف عن إدعاء الحرية التي لم نجربها، أبداً!!

ولكن ما هذا ياربي؟ كيف نسمي ذلك؟ أي تعس هذا؟ أي رذيلة، أو بالاصدق أي رذيلة تعسة؟ أن نرى عدداً لا حصر له من الناس لا أقول يطيعون بل يخدمون ولا أقول يُحكمون بل يُستبد بهم، لا ملْك لهم ولا أهل ولا نساء ولا أطفال بل حياتهم نفسها ليست لهم! أن نراهم يحتملون السلب والنهب وضروب القسوة لا من جيش ولا من عسكر أجنبي

* «مقالة في العبودية المختارة» ـ مجلة «الكرمل» ١٩٨٩/٣٤ ترجمة الاستاذ مصطفى صفوان.

ينبغي عليهم الذود عن حياضهم ضده، بل من واحد لا هو بهرقل ولا شمشون بل خنث[1]، هو في معظم الاحيان أجبن من في الأمة وأكثرهم تأنثاً، لا ألفة له بغبار المعارك وانما بالرمل المنثور على الحلبات (إن وطأها) ولا هو يحظى بقوة يأمر بها الناس، بل يعجز عن أن يخدم ذليلاً أقل أنثى[2]! أنسمي ذلك جبناً؟ أنقول ان خدامه حثالة من الجبناء؟ لو أن رجلين، لو أن ثلاثة أو اربعة لم يدافعوا عن أنفسهم ضد واحد لبدا ذلك شيئاً غريباً، لكنه بعد ممكن، ولوسعنا القول عن حق إن الهمة تنقصهم. ولكن لو أن مائة، لو أن ألفاً احتملوا واحداً ألا نقول: إنهم لا يريدون صده ليس لأنهم لا يجرأون على الاستدارة له، لا عن جبن بل احتقاراً له في الارجح واستهانة بشأنه؟ فأما ان نرى لا مائة ولا ألف رجل بل مائة بلد، ألف مدينة، مليون رجل، أن نراهم لا يقاتلون واحداً أقصى ما يناله من حسن معاملته أي منهم هو القنانة والرقّ فأنّى لنا باسم نسمي به ذلك؟ أهذا جبن؟ إن لكل رذيلة حداً تأبى طبيعتها تجاوزه. فلقد يخشى اثنان واحداً ولقد يخشاه عشرة. فأما ألف، فأما مليون، فأما ألف مدينة إن هي لم تنهض دفاعاً عن نفسها في وجه واحد فما هذا بجبن لأن الجبن لا يذهب إلى هذا المدى، كما أن الشجاعة لا تعني أن يتسلق أمرؤ وحده حصناً أو أن يهاجم جيشاً أو يغزو مملكة. فأي مسخ من مسوخ الرذيلة هذا الذي لا يستحق حتى اسم الجبن ولا يجد كلمة تكفي قبحه، والذي تنكر الطبيعة صنعه وتأبى اللغة تسميته؟

ضع بجانب خمسين ألف رجل مدججين بالسلاح. وضع مثلهم بالجانب الآخر. دعهم يصطفون للمعركة ثم يلتحمون. بعضهم أحرار يقاتلون دفاعاً عن حريتهم والبعض الآخر بغية سلبهم إياها. ترى من تظنك تُعد بالنصر؟ من تظن أنهم ذاهبون إلى ساحة القتال بخطى مقدامة؟ من يأملون الاحتفاظ بحريتهم جزاءً على عنائهم أم أولئك الذين سواء كالوا الضربات أو تلقوها لم ينتظروا أجراً عليهم سوى استعباد الغير؟ الأولون يضعون دائماً نصب أعينهم سعادة الحياة الماضية وتوقع نعيم يماثلها في المستقبل، ولا يفكرون في القليل الذي تلزم مكابدته زمن المعركة، بقدر ما يفكرون فيما سيُفرض عليهم أبد الدهر، هم وأولادهم وجميع ذريتهم. فأما الآخرون فلا حافز لهم إلا وخز من الطمع لا يلبث أن يسكن أمام الخطر، ولا يمكن أن يبلغ التهابه حداً لا تطفئه أول قطرة من الدم تنض بها جروحهم. خذ المعارك المشهودة التي خاضها ميلسيادس وليونيداس وثميستوكل منذ الفي عام[3]، والتي مازالت تحيا في صفحات الكتب وذاكرة البشر حتى اليوم كأن رحاها لم تدر إلا بالأمس على أرض الأغريق، من أجل الاغريق ومن أجل أن تكون مثلاً للدنيا قاطبة: ما الذي في زعمك أعطى فئة قليلة قلة الاغريق اذ ذاك لا أقول القوة بل الجرأة على الصمود في وجه أساطيل بلغ من حشدها أن ناء بثقلها البحر، وعلى أن يدحروا أمماً بلغ من كثرتها ان كتيبة الاغريق بأسرها ما كان يكفي جنودها تزويد اعدائها ولو بالقواد ليس غير؟ ماذا سوى

ان المعركة لم تكن في هذه الايام المجيدة معركة الاغريق ضد الفرس، بقدر ما كانت تعني انتصار الحرية على السيادة، وانتصار العتق على جشع الاسترقاق؟

إنّا ندهش اذ نسمع قصص الشجاعة التي تملأ بها الحرية قلوب المدافعين عنها. أما ما يقع في كل بلد لكل الناس كل يوم: أن يقهر واحد الألوف المؤلفة ويحرمها حريتها، فمن ذا الذي كان يسعه تصديقه لو وقف عند سماعه دون معاينته؟ ولو أن هذا القهر لم يكن يحدث إلا في بلد اجنبي وأرض قاصية ثم تردد نبأُهُ أكان أحد يتردد في ظنه كذباً وافتراء لا حقيقة واقعة؟ ومع هذا فهذا الطاغية لا يحتاج الأمر إلى محاربته وهزيمته، فهو مهزوم خلقة، بل يكفي ألا يستكين البلد لاستعباده. ولا الأمر يحتاج إلى انتزاع شيء منه بل يكفي الامتناع عن عطائه.

* * *

يا لذل شعوب فقدت العقل ويا لبؤسها؛ يا لأمم أمعنت في أذاها وعميت عن منفعتها، تُسلَبون أجمل مواردكم وأنتم على السلب عيان، تتركون حقولكم تُنهب ومنازلكم تُسرق وتُجرَّد من متاعها القديم الموروث عن آبائكم! تحيون نوعاً من الحياة لا تملكون فيه الفخر بمِلْكٍ ما، حتى لكأنها نعمة كبرى في ناظركم لو بقى لكم ولو النصف من املاككم وأسركم وأعماركم؛ وكل هذا الخراب، هذا البؤس وهذا الدمار يأتيكم لا على يد اعدائكم بل يأتيكم يقيناً على يد العدو الذي صنعتم أنتم كبره، والذي تمشون إلى الحرب بلا وجل من أجله ولا تنفرون من مواجهة الموت باشخاصكم في سبيل مجده هذا العدو الذي يسودكم إلى هذا المدى ليس له إلا عينان ويدان وجسد واحد[1]، ولا هو يملك شيئاً فوق ما يملكه أقلكم على كثرة مدنكم، التي لا يحصرها العد إلا ما اسبغتموه عليه من القدرة على تدميركم. فأنّى له بالعيون التي يتبصص بها عليكم إن لم تقرضوه إياها؟ وكيف له بالأكف التي بها يصفعكم إن لم يستمدها منكم؟ أنّى له بالأقدام التي يدوسكم بها إن لم تكن من أقدامكم؟ كيف يقوى عليكم إن لم يقو بكم؟ كيف يجرؤ على مهاجمتكم لولا تواطؤكم معه؟ أي قدرة له عليكم إن لم تكونوا حماةً للص الذي ينهبكم، شركاء للقاتل الذي يصرعكم، خونة لأنفسكم؟ تبذرون الحب لِيُذْرِيه. تؤثثون بيوتكم وتملؤنها حتى تَعظُم سرقاته. تربون بناتكم كيما يجد ما يشبع شهواته. تنشئون اولادكم حتى يكون أحسن ما يصيبهم منه جرهم إلى حروبه وسوقهم إلى المجزرة، ولكي يصنع منهم وزراء مطامعه ومنفذي رغباته الانتقامية. تتمرسون بالألم كيما يترفه في مسراته ويتمرغ في ملذاته القذرة، وتزيدون وهناً ليزيد قوة وشراسة ويَسِمَكم بلجامه. كل هذه الألوان من المهانة التي إما البهائم لا تشعر بها، أوما كانت تحتملها، يسعكم الخلاص منها لو حاولتم لا أقول العمل عليه بل محض الرغبة فيه. اعقدوا العزم ألا تخدموا تصبحوا أحراراً. فما اسألكم مصادمته أو دفعه بل محض الامتناع عن مساندته، فترونه كتمثال هائل سُحبت قاعدتُه فهوى على

الأرض بقوةَ وزنه وحدها وانكسر.

* * *

غير أن الحقيقة هي أن الجدل فيما إذا كانت الحرية حقاً طبيعياً أم لا، لن يكون إلا تحصيلاً للحاصل مادمنا لا نسترق كائناً دون أن نلحق الأذى به، وما دام الغبن أكره الاشياء إلى الطبيعة التي هي مستودع العقل. اذن يبقى ان الحرية شيء طبيعي، ويبقى بهذا عينه أننا (فيما أرى) لا نولد أحراراً وحسب، بل نحن أيضاً مفطورون على محبة الذود عنها. فإن اتفق بعد ذلك أن ساورنا شك فيما أقول وأن بلغ من فسادنا أننا لم نعد نستطيع تمييز مصالحنا، ولا مشاعرنا الطبيعية، لم يبق إلا أن أكرمكم الاكرام الذي تستحقون، وأن أترك الحيوانات التي لا تمت إلى المدنية بصلة تصعد المنبر لتعلمكم ما هي طبيعتكم وما وضع وجودكم. إن الحيوانات (أخذ الله بعوني!) اذا البشر لم يصموا آذانهم لسمعوها تصرخ فيهم: عاشت الحرية! الكثير منها لا يكاد يقع في الأسر إلا مات. فكما السمك يترك الحياة إذ يترك الماء، كذلك هي تترك الضوء وتأبى العيش بعد فقدان حريتها الطبيعية. فلو كانت لها مراتب لجعلت من الحرية عنوان نبالتها. فأما البقية من أكبرها إلى أصغرها، فهي لا تستسلم للأسر حين نقتنصها إلا بعد أن تظهر أشد المقاومة باظافر، والقرون، والمناقير، والاقدام، معلنة بذلك مدى إعزازها لما تفقد. ثم هي تبدي لنا بشتى العلامات الجلية مدى إحساسها بمصابها حتى أننا لنعجب إذ نراها تؤثر الضوى على الحياة، كأنها إنما تقبل البقاء لترثي ما خسرت وليس لتنعم بعبوديتها. هل يقول الفيل شيئاً آخر حين يقاتل دفاعاً عن نفسه حتى يستنفد قواه ويرى ضياع الأمل ووشوك الأسر، فاذا هو يغرس فكيه محطماً على الشجر سنّيه، هل يقول شيئاً آخر سوى أن رغبته الشديدة في البقاء حراً تلهمه الذكاء، فتحثه على مساومة قناصيه لعلهم يتركون له الحرية ثمناً لعاجه ولعله يفتدي به حريته؟ إننا نستأنس الجياد منذ مولدها لندربها على خدمتنا، فاذا كنا مع ذلك حين نجيء إلى ترويضها نعجز عن ملاطفتها إلى الحد الذي لا يجعلها تعض الحَكَمة، وتنفر من المهماز، فما هذا في اعتقادي إلا شهادة منها بأنها إنما تقبل خدمتنا كارهة لا مختارة. ما القول اذاً؟

هناك ثلاثة أصناف من الطغاة: البعض يمتلك الحكم عن طريق انتخاب الشعب، والبعض الآخر بقوة السلاح، والبعض الثالث بالوراثة المحصورة في سلالتهم. فأما من انبنى حقهم على الحرب فنعلم جيداً انهم يسلكون، كما نقول، في أرض محتلة. وأما من ولدوا ملوكاً فهم عادة لا يفضلونهم قط لأنهم وقد ولدوا وأطعموا على صدر الطغيان، يمتصون جبلة الطاغية وهم رضاع، وينظرون إلى الشعوب الخاضعة لهم نظرتهم إلى تركة من العبيد، ويتصرفون في شؤون المملكة كما يتصرفون في ميراثهم، كل بحسب استعداده الغالب نحو البخل أو البذخ. أما من ولاه الشعب مقاليد الدولة، فينبغي فيما يبدو

أن يكون احتماله أهون. ولقد يكود الأمر كذلك على ما اعتقد لولا أنه ما أن يرى نفسه يرتقي مكاناً يعلو به الجميع، وما أن يستغويه هذا الشيء الغريب المسمى بالعظمة، حتى يعقد النية على ألا ينزاح من مكانه قط. ثم ان هذا الرجل لا يلبث أن يشرع عادة في اسناد القوة التي سلمه الشعب إياها إلى أبنائه. وما ان يتلقف هؤلاء هذه الفكرة حتى نشهد شيئاً عجباً: نشهد إلى أي مدى يبزون سائر الطغاة في جميع أبواب الرذائل، بل في قسوتهم، دون ان يروا سبيلاً إلى تثبيت دعائم الاستبداد الجديد، سوى مضاعفة الاستعباد وطرد فكرة الحرية عن أذهان رعاياهم، حتى يعفو عليها النسيان رغم قرب حضورها في ذاكرتهم. فكلمة الحق هي أني أرى بعضاً من الاختلاف بين الطغاة، ولكني لا أرى اختياراً بينهم، لأن الطرق التي يستولون بها على زمام الحكم تعدد، ولكن اسلوب الحكم لا يكاد يختلف: فمن انتخبهم الشعب يعاملونه كأنه ثور يجب تذليله، والغزاة كأنه فريستهم، والوارثون كأنه قطيع من العبيد امتلكوه امتلاكاً طبيعياً.

* * *

ويطيب لي هنا أن أتذكر حديثاً جرى في قديم الزمن بين أحد المقربين إلى اكسركس ملك فارس الأعظم وبين رجلين من لاسيدومونيا. أخذ اكسرس، وهو يعد جيشه الضخم لغزو اليونان، يبعث رسله إلى المدن اليونانية يطلبون اليها الماء والتراب: وهو تعبير كان يستخدمه الفرس، اشارة إلى انهم يأمرون المدن بالاستسلام. إلا أثينا واسبرطة، فقد تجنب أن يرسل اليهما أحداً. ذلك أن الاثينيين والاسبرطيين كان قد سبق لهم أن امسكوا بسفراء أبيه داريوس فزجوا بعضهم في الحفر والبعض الآخر في الآبار قائلين: خذوا ما تريدون من الماء والتراب! كانوا قوماً لا يطيقون ولو كلمة تمس حريتهم. غير أن الاسبرطيين بعد ان صنعوا هذا الصنيع، أدركوا أنهم قد جروا على أنفسهم غضب الآلهة وغضب تالثيبيوس، إله الرسل، بنوع خاص، فقرروا أن يرسلوا إلى اكسركس مواطنين من بينهم لِيَمْثُلا بين يديه وليصنع بهما ما يشاء انتقاماً لمن قُتل من رسل أبيه. فتطوع رجلان ليدفعا هذا الثمن، اسم أحدهما سُبرثيوس واسم الآخر بولس. وبينما هما في الطريق صادفا قصراً يملكه رجل فارسي اسمه هندران، كان الملك قد عينه والياً على جميع المدن الواقعة على الساحل، فرحب بهما أكرم ترحيب، واطعمهما بغير حساب، ثم سألهما بعد ان أخذوا يتجاذبون أطراف الحديث لِمَ يرفضان إلى هذا الحد صداقة الملك. قال: «انظرا إليّ أيها الاسبرطيان واتخذا مني مثلاً تعلمان منه كيف يعرف الملك تشريف من استحق، وتذكرا انكما لو صرتما بين أتباعه، لرأيتما من صنيعه ما رأيت، وانكما لو دنتما له بالطاعة وعرف أمركما لما خرج كلاكما عن أن يكون أميراً لمدينة من مدن اليونان». فأجابه محدثاه: «لهذا ياهندران أمر لا تملك فيه إسداء النصح الينا، لأنك جربت النعمة التي تَعدُنا بها

ولكنك لا تعلم شيئاً عن نعمتنا؛ لقد ذقت حظوة الملك، وأما الحرية فلست تعرف ما مذاقها ولا مدى عذوبتها، ولو فعلت لنصحتنا بالدفاع عنها لا بالرمح والدرع بل بالاسنان والاظافر». هذا الجواب وحده هو الصدق، ومع هذا فلا شك أن ثلاثتهم تحدثوا وفاقاً لنشأتهم، فما كان للفارسي أن يستشعر الأسف على الحرية وهو لم ينلها قط، ولا للاسبرطي أن يحتمل التبعية بعد أن ذاق الحرية.

* * *

لقد أدرك قراقوش الترك[٥] هذا الأمر أحسن ادراك: ادرك أن الكتب والثقافة الصحيحة تزود الناس أكثر من أي شيء آخر بالحس والفهم اللذين يتيحان لهم التعارف، والاجتماع على كراهية الطغيان، دليل ذلك خلو أرضه من العلماء، وبعده عن طلبهم. وفي سائر الأرض بوجه عام تظل حماسة من أخلصوا قلوبهم للحرية، وتظل محبتهم دون أن يكون لهما أثر مهما كثر عددهم لانقطاع التواصل بينهم: فالطاغية يسلبهم كل حرية: حرية العمل وحرية الكلام، ولو أمكن فحرية الفكر، فاذا هم منفردون منعزلون كلٌ في تخيله. وعليه فما بالغ الإله الساخر موموس[٦] في سخريته، إذ شهد الانسان الذي صنعه فولكان[٧] فنصحه أن يضع أيضاً بقلب صنيعه نافذةً صغيرة لكي تتسنى رؤية أفكاره من خلالها. ولقد قيل إن بروتوس وكاسيوس[٨] حين شرعا في تحرير روما، أو بالأصدق تحرير العالم أجمع، أبيا أن يشركا شيشرون، وهو المدافع المنقطع النظير عن المصلحة العامة، فيما عقدا العزم عليه إذ كان من رأيهما أن قلبه أضعف من أن يثبت في هذا الموقف العصيب. كانا يثقان في صدق ارادته دون أن يضمنا شجاعته. وإن لفي وسع من أراد استقراء وقائع الماضي وسجلات التاريخ، أن يتحقق أن من رأوا بلدهم تُساء سياسته وتستحوذ عليه أياد جانية فعقدوا العزم على تحريره بنية صادقة، مستقيمة، لا تردد فيها قلَّ ألا يحالفهم النجاح، وأن الحرية تساندهم في الدفاع عن قضيتها. انظر هارموديوس وارسطجيتون وثراسيبول وبروتوس الأقدم وفاليريوس وديون[٩]: لقد كان عملهم ناجحاً مثلما كان ذكرهم فاضلاً، لأن الحظ لا يكاد يتخلى أبداً في مثل هذه القضية عن مناصرة الارادة الطيبة. كذلك نجح بروتوس الأصغر وكاسيوس في رفع العبودية، وإن كانا اذ استرجعا الجمهورية قد خسرا الحياة خسارة لا تحط من شأنهما (فأي سبّة هذه أن تنسب الحطة إلى أمثال هؤلاء القوم سواء في الحياة أم في الممات!) بل خسارة عانت منها الجمهورية أكبر الضرر، وعانت البؤس أبد الدهر، واندثرت اندثاراً كأنها قد دفنت بدفنهما. فأما ما تلا ذلك من الحركات الموجهة ضد الاباطرة الرومانيين، فلم تكن إلا مؤامرات حاكها قوم طامحون لا يستحقون الرثاء على سوء مآلهم، فقد كان من الواضح أن مطلبهم لم يكن تقويض العرش بل زحزحة التاج، مدعين طرد الطاغية مع الابقاء على الطغيان. هؤلاء قوم ما كنت

نفسي أود لهم نجاحاً، وإنه ليسرني أنهم قد ضربوا بأنفسهم المثل على أن اسم الحرية المقدس لا يجوز استخدامه مع اعوجاج القصد.

* * *

ولكنني لكي أعود إلى موضوعنا الذي كاد يغيب عن نظري أقول إن السبب الأول، الذي يجعل الناس ينصاعون طواعية للاستعباد، هو كونهم يولدون رقيقاً وينشأون كذلك. إلى هذا السبب يضاف سبب آخر: إن الناس يسهل تحولهم تحت وطأة الطغيان إلى جبناء مخنثين. ولكم أشكر أبا الطب هيبوقراط اذ فطن إلى ذلك، وعبر عنه أحسن تعبير في كتابه المُعَلَّى عن الامراض. لقد كان هذا الرجل يملك يقيناً في جميع أحواله قلباً يزخر بالمروءة، أبدى ذلك حين أراد ملك الفرس جذبه بالعطايا والهدايا فأجابه أنه لن يسلم من وخزات الضمير لو أنه اشتغل بعلاج الاجانب، الذين يريدون موت الاغريق، وراح يخدمهم بفنه بينا هو يريد اخضاع بلادهم. ولا يزال خطابه المرسل إلى ملك الفرس ماثلا إلى يومنا هذا بين سائر كتاباته، يشهد مدى الدهر على قلبه الطيب وطبيعته النبيلة. من المحقق إذاً ان الحرية تزول بزوالها الشهامة. فالقوم التابعون لا همة لهم في القتال ولا جلد، إنهم يذهبون إلى الخطر كأنهم يشدون اليه شداً، أشبه بنيام يؤدون واجباً فرض عليهم، لا يشعرون بلهب الحرية يحترق في قلوبهم، هذا اللهب الذي يجعل المرء يزدري المخاطر، ويود لو اكتسب بروعة موته الشرف والمجد بين أقرانه. ان الاحرار يتنافسون كلٌ من أجل الجماعة ومن أجل نفسه، وينتظرون جميعاً نصيبهم المشترك من ألم الانكسار أو فرحة الانتصار، أما المُستعْبَدون فهم عدا هذه الشجاعة في القتال يفقدون أيضاً الهمة في كل موقف، وتسقط قلوبهم وتخور وتقصر عن عظيم الأعمال. وهذا أمر يعلمه الطغاة جيداً، فهم ما أن يروا الناس في هذا المنعطف الا عاونوهم على المضي فيه حتى يزيدوا استنعاجاً.

* * *

الهوامش

(١) ثار نقاش حول من المراد بهذا الوصف: أهو شارل التاسع أو هنري الثالث؟ ولكن الأصح أن المؤلف إنما أراد أن يرسم صورة نموذجية، وان صدقت على كثير من الحكام، دحضاً للرأي القائل بأن هناك ممن جُعلوا بطبيعتهم للسيادة وهناك من جعلوا مسودين.

(٢) ميلسيادس قائد أثيني تحقق بفضله أول انتصار حازه الاغريق ضد الفرس، وذلك في معركة ماراتون عام ٤٩٠ ق.م. ثيميسوكل قائد آخر يرجع إلى سياسته من أجل تقوية الاسطول الاثيني، ويرجع إلى براعته ونبوغه الفضل الأول في انتصار اليونانيين الحاسم في معركة سلامين البحرية عام ٤٨٠ ق.م، التي انتهت بها حملة كسركس الثانية، التي كان قد أعد لها جيشاً يقدر بمائة ألف مقاتل، واسطولاً يقدر بألف سفينة. أما ليونيداس فاسبرطي خلّد ذكره استشهاده مع ثلاثمائة من رجاله في معركة مضيق

ثرموبيل، التي خاضها بغية تعويق تقدم الفرس في البر. هذا ولقد صار هذا الانتصار رمزاً إلى انتصار الحرية على الاستبداد. وصحيح ان شعوب الاغريق كانت لها في ادارة شؤونها مشاركة حرمت منها في أغلب الظن شعوب العدو، وان هذا الفارق ربما لعب دوراً هاماً في هذا الانتصار. ولكن ذلك لا يمنع أن هذه الحرب، أياً كان وجه استخدامها لأغراض الرمز، كانت في واقع أمرها صراعاً ضارياً بين قوتين تهدف كل منهما إلى السيطرة على المعمورة: فارس واثينا. ومن المعلوم ان المدن أو الدول اليونانية ما ان تحقق لها هذا النصر المشترك، حتى عادت إلى تفرق بعد اتحاد، وحتى شن بعضها الحرب على اثينا في حرب البيلوبونيز التي سبقت الاشارة اليها.

(٣) لا شك أن لابويسيه يلمح هنا إلى نظرية اذاعها المشرعون الانجليز في عصر أسرة تيودور مؤداها ان للملك جسدين، أحدهما مادي فانٍ، والآخر غيبي لا يتطرق اليه الفناء. هذه النظرية المضحكة فيزيولوجياً كانت لها وظيفة سياسية بالغة الأهمية، هي ادخال التمييز بين ما يعود من الحكم إلى شخص الحاكم، وما يعود إلى وظيفته أو منصبه هذا التمييز هو الذي سمح للانجليز بمحاكمة الملك شارل ستوارت واعدامه بتهمة الخيانة، دون أن يذهبوا إلى الغاء الملكية كما فعل الفرنسيون في ١٧٩٣، لأن «الملك، كما قال أحد قضاتهم، اسم للدوام، باقٍ بما هو رأس الشعب وحاكمه (حسب القانون) طالما بقي الشعب. . . وفي هذا الاسم لا يموت الملك أبداً» [illegible] النظرية مستقاة لا من العقائد النصرانية عن المسيح والكنيسة وحسب، بل أيضاً، وأكاد أقول [illegible] استعارة الجسد من حيث تطلق على كل مجتمع ديني أو مدني، وعلى مقوماته المختلفة بما فيها الاتحادات المهنية والجامعية التي لعبت دوراً هاماً في تطور الغرب، والتي يطلق عليها في لغاته اسم ترجمته الحرفية هي «المتجسديات».

(٤) التعبير الفرنسي ترجمته الحرفية التركي الكبير، ولكنه ينطوي على استخفاف، ثم ان حامله كان يعد الرمز الأول للطغيان. ولا يُكذِّب كلام لابويسيه هنا وإن لم يكف في تأييده ما يخبرنا به الدكتور ابراهيم سلامة، في رسالته المقدمة إلى السوربون عام ١٩٣٩، عن التعليم الاسلامي في مصر من اثر سياسة الاتراك في القضاء على المدارس.

(٥) هذا الإله الساخر شخصية مسرحية أكثر منه خلق اسطوري.

(٦) فولكان إله النار والحدادة. هيفايستوس عند اليونان.

(٧) بروتوس وكاسيوس قاتلا يوليوس قيصر.

(٨) هارموديوس وارسطوجيتون شابان أرادا قتل هيبساس الذي تولى حكم اثينا مع أخيه، بعد موت ابيهما بيسيستراتوس، ولكنهما، أخفقا وماتا شر ميتة. رأى الاثينيون في موتهما استشهاداً، وأشادوا بذكرهما ملقبين اياهما بلقب مانحي الايسومونيا ـ وهو المساواة أمام القانون. أما بروتوس الاقدم، وفالريوس، فكانا بين مؤسسي الجمهورية الرومانية. أما ديون فكان صهراً لديونيسيوس الأول الذي سبق ذكره. أراد ان يجعل من ابنه ديونيسيوس الثاني ملكاً فيلسوفاً متأثراً في ذلك بعلاقته بافلاطون والاكاديمية. فلما اخفق خلص البلد منه ولكن زمام الأمور افلت من يده، فاشتد وتعسف، برغم ادعائه الاستناد إلى المبادىء الفلسفية، حتى قتل بدوره.

٩) حمل كثير من رجال الدولة الرومانية اسم سيبيون. لقب احدهم بالافريقي لأنه فتح افريقية.



ماذا ينبغي
بعد انتهاء حرب الخليج؟

لقد انتهت الحرب في الخليج بهزيمة العراق، وكان ذلك منتظراً، وانتصرت القوات المتحالفة بزعامة الولايات المتحدة الامريكية، وكان ذلك ايضاً منتظراً، واضطر العراق للانسحاب من الكويت تحت ضغط الهجوم البري والقصف الجوي العنيف، وإلى الموافقة على جميع قرارات مجلس الأمن والأمم المتحدة الـ ١٢ المفروضة على العراق بعد احتلاله الكويت ورفضه الانسحاب منه، ويجري الآن ترتيب عمليات تنفيذ هذه القرارات.

وكان من الممكن تحاشي كل هذه المأساة التي لحقت بالعراق وشعبه وجيشه، لو ان قيادته وعلى رأسها صدام حسين سلكت طريق العقل، ولم تسر في طريق المغامرات العسكرية الانتحارية، أو لو انها استجابت لنصح الناصحين الذين حذروها من مغبة اجتياح الكويت، وطلبوا منها الخروج منه، والانصياع إلى مطالب وقرارات الأمم المتحدة.

والآن، وبعد ان جرى ما جرى، كيف تسير الأمور في العراق وفي المنطقة، وما هو موقف الولايات المتحدة والقوات المتحالفة؟ وما هو موقف الشعب العراقي من هذه الحرب ونتائجها المأساوية؟

من السابق لأوانه التنبؤ بدقة عما يجري تماماً، ولكن الظواهر والاحداث تشير إلى وجود غليان في أوساط الجماهير العراقية وانتفاضات وثورات في العديد من مناطق العراق في الجنوب والشمال والوسط. وهي تطالب باجراء تغييرات في قيادته وازاحة صدام المسؤول الأساسي عن مآسي الشعب العراقي وزجه في اتون الحروب طوال عشر سنوات، من حرب إلى أخرى، ضد ايران وثورتها الاسلامية من جهة وضد الكويت من جهة أخرى.

ومهما يكن تطور الأمور في العراق، ومهما تكن نتائج المعارك الداخلية فيه، فمن المهم معرفة تطورات الأمور في منطقة الخليج، وماهية النظام الأمني فيه، وما هو دور دول

المنطقة في هذا النظام؟ فالولايات المتحدة تسعى لاستغلال انتصارها العسكري ضد العراق لفرض هيمنتها على الخليج ولترتيب الأمور فيه وفق مصالحها الاستراتيجية والنفطية وهي تعمل لتهميش دور حلفائها الاوربيين، فرنسا والمانيا وتعمل بالتنسيق والتشاور ظاهرياً مع انكلترا عن طريق عقد اجتماعات بين المسؤولين في البلدين، كما تعمل لتهميش دور اليابان ولأضعاف دور الاتحاد السوفييتي. وهي تعمل للتفرد بالقرار على النطاق العالمي اذا استطاعت، وخاصة وانها قد استمرأت سياسة القوة بعد انتصارها العسكري على العراق، وبعد خلاصها من عقدة النقص والهزيمة في الفيتنام.

وهي لذلك تعمل للبقاء في منطقة الخليج عن طريق إبقاء وجود عسكري لها فيه، وهي لا تزال تحتل قسماً كبيراً من جنوب العراق وقامت بتوسيعه مؤخراً وهي تراقب الاوضاع في المنطقة، في العراق وايران ودول الخليج والسعودية، وبين الحين والآخر تقوم بالتعبير عن آرائها ومواقفها، وتوجه انذاراتها المتتالية لهذه الدولة أو تلك، انها تقوم بمهمة الشرطي في المنطقة تحت ستار الاشراف على تنفيذ قرارات الأمم المتحدة والشرعية الدولية ضد العراق.

ان غزو العراق للكويت أخاف دول الخليج ودفعها للاحتماء بالاجنبي، واضعف التضامن العربي، وأقام حواجز مصطنعة أمام اتجاهات الوحدة العربية، ولاشك أن هذه الآثار ستظل فترة طويلة نسبياً ولكنها ستزول مع الزمن. والحاجات الموضوعية للتعاون العربي، والتكامل الاقتصادي العربي، والوحدة العربية ستفرض نفسها، وعلينا نحن أن نساعد في تحقيق ذلك.

ان حرب الخليج اقامت نوعاً من الصلات والروابط بين دول الخليج والسعودية ومصر وسورية وهذه الروابط ينبغي أولاً ان لا تشكل محوراً وان تساعد على تلبية حاجات هذه البلدان الاقتصادية والسياسية والفكرية وان ترصّ شعوبها كي تكون في خدمة القضية القومية وفي خدمة حركة التحرر الوطني وفي خدمة أمن المنطقة، وفي خدمة التكامل الاقتصادي العربي والتنمية الاقتصادية والاجتماعية، وان تقف بوجه الاتجاهات المغامرة الصدامية من جهة وبوجه الاستنجاد والاستقواء بالقوى الاجنبية من جهة ثانية،

ان آثار حرب الخليج جعلت من العراق وايران قوى ضعيفة وتركت فراغاً كبيراً ومن المهم ان لا يؤثر ضعفها سلبياً على قوى التحرر والتقدم فيهما وعلى قوى التحرر والتقدم في المنطقة، كما أن المهم ان يقوم الشعبان العراقي والايراني بملء هذا الفراغ، ان هزيمة نظام صدام خلقت الظروف والامكانيات لانتصار قوى المعارضة والتي هي في مجملها قوى وطنية وتقدمية ومعادية للاطماع الامبريالية والصهيونية وعلينا نحن ان نساند ونؤيد هذه القوى ونعمل لانتصارها في العراق وسيكون ذلك سنداً وقوة للأمن العربي في المنطقة.

ان انتهاء حرب الخليج بالشكل الذي انتهت اليه، خلق امكانيات لحل قضية الشرق الاوسط فالشرعية الدولية التي اسهمت في انهاء حرب الخليج، ينبغي الاستناد اليها في تطبيق قرارات هذه الشرعية بالنسبة للنزاع العربي الاسرائيلي استناداً لقراري مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨. وعبر مؤتمر دولي تشارك فيه دول المنطقة والدول الخمس الكبرى ومنظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي والوحيد للشعب العربي الفلسطيني.

ولكن الولايات المتحدة واسرائيل ترفضان ذلك، وتسعيان لعقد مؤتمر اقليمي بدلاً من المؤتمر الدولي، وهما بذلك تعيقان الوصول لحل عادل للقضية الفلسطينية، وتعملان لابقاء الاحتلال للأراضي العربية، وترفضان تنفيذ قرارات الأمم المتحدة والشرعية الدولية.

وقد بينت التجارب العملية في منطقة الشرق الاوسط وفي غيرها من بلدان العالم، ان اتجاهات المغامرة في المجال السياسي والعسكري، تشتد كلما كان في السلطة حكام فرديون متسلطون من طراز صدام لا يعيرون اهتماماً لاراء ونصائح الاصدقاء، ولا يزنون الأمور بميزان العقل والواقع الملموس وانما توجههم الرغبات وتزلف المتملقين والمنافقين، ومخططات الاعداء والخصوم المرسومة والمطلية بالبراقع الزاهية ولذلك يقع هؤلاء بسهولة في الفخاخ والأحابيل التي تكبلهم وتقضي عليهم، ولابد لتلافي الوقوع في مثل هذه المطبات، من أقامة سلطة وطنية ديمقراطية تعتمد على الشعب، على الجماهير، وعلى الدستور والمجالس التشريعية. ولو كان الحكم في العراق حكماً ديمقراطياً لما سارت سياسته في طريق المغامرة، ولما ارتكبت العديد من الاخطاء والجرائم القاتلة كالحرب العراقية ـ الايرانية واجتياح الكويت.

إن شعوب المنطقة وجماهيرها كانت ضد احتلال العراق للكويت وادانت هذا الاحتلال وكانت في الوقت نفسه ضد الوجود الامريكي والاجنبي في المنطقة وهي تطالب بعودة هذه القوات إلى بلادها، وترى في استمرارها تهديداً لأمن المنطقة واحتلال لأراضيها. إن شعوب المنطقة هي مع الشرعية الدولية ومع قرارات الأمم المتحدة، ولكنها ليست مع مواقف الولايات المتحدة ولا مع سياستها وأطماعها في المنطقة.

إن الولايات المتحدة كانت خلال حرب الخليج وخلال اجتياح العراق للكويت حازمة وفاعلة واستخدمت كافة امكاناتها لتجنيد الرأي العام الدولي والشرعية الدولية والقوة العسكرية لاخراج العراق من الكويت، وسار معها العالم في ذلك. وهي تعلن اليوم انها ستعمل لاستتباب الأمن في المنطقة، ولحل النزاع العربي الاسرائيلي، واطفاء بؤر التوتر ومنع اسلحة الدمار الشامل والغائها وتدميرها في المنطقة، إننا نؤيد هذا التوجه ونطالب بتحقيقه وتنفيذه ولكن هل هي حقاً ستفعل ذلك؟ وهل ستستخدم كافة امكاناتها في حل النزاعات في المنطقة، وفق قرارات الأمم المتحدة والشرعية الدولية؟ وهل سترغم اسرائيل

على الانسحاب من الاراضي العربية المحتلة في القدس والضفة الغربية وغزة والجولان وجنوب لبنان وعلى القبول بقرارات الشرعية الدولية؟ هل حقاً ستفعل ذلك.

إن ظواهر الأمور وبواطنها تعلن غير ذلك، إن الولايات المتحدة جعلت من اسرائيل قلعة عسكرية ضخمة في منطقة الشرق الاوسط مزودة بكافة الاسلحة بما فيها اسلحة الدمار الشامل، وهي تحتل العديد من أراضي جيرانها، وتعتمد في ذلك على دعم الولايات المتحدة، وكلما أخذ مجلس الأمن قراراً بادانة اسرائيل ابطلته الولايات المتحدة بالفيتو أو بتشجيع اسرائيل على عدم تطبيقه، ولم تكتف امريكا بذلك وانما زودتها مؤخراً وخلال حرب الخليج بكل الترسانة العسكرية التي كانت مخزونة في المانيا الغربية، فكيف ستوفق الولايات المتحدة بين سياستها وأعمالها هذه، وبين اعلانها عن النظام الامني في المنطقة؟ وكيف ستوفق بين تسليحها اسرائيل وبين اقتراحاتها بحظر ارسال الاسلحة إلى المنطقة؟ وهل المطالبة بحظر ارسال الاسلحة سيشمل اسرائيل ايضاً؟

إن أي حظر للاسلحة في منطقة الشرق الاوسط ينبغي ان يشمل اسرائيل أيضاً. وما هو المكيال الذي ستكيل فيه في حل مشاكل المنطقة؟ أهو نفس المكيال الذي طبقته خلال حرب الخليج أم هو مكيال آخر؟

إن الأعمال والتصرفات الملموسة هي الحكم على أعمال الولايات المتحدة، وعلى سياساتها. ومهما يكن فشعوب المنطقة وقواها الوطنية والتقدمية لا تثق بالولايات المتحدة ولا بوعودها وأقاويلها، وهي ستحكم على الأعمال المطبقة والسياسة المنفذة. وهي ستواصل النضال كي يكون أمن المنطقة بيد شعوب هذه المنطقة بيد حكوماتها الوطنية، بيد الأمم المتحدة. وان لا يكون بيد الولايات المتحدة مباشرة أو بصورة غير مباشرة.

ان زوابع حرب الخليج حجبت القضية الفلسطينية والنضال البطولي للانتفاضة في الأراضي العربية المحتلة ووضعتها في الموضع الخطأ، وفي مجال المزاودة الكلامية، لقد كان اهتمام الناس في كل أرض العروبة وفي العالم مشدوداً إلى احداث الخليج، والحديث عن فلسطين وعن الانتفاضة كان يمر عابراً ومن المهم بعد ان انتهت حرب الخليج ان نسلط الاضواء على القضية الفلسطينية وعلى الانتفاضة وان ننتبه للمؤامرات التي تحاك ضد الشعب العربي الفلسطيني وضد قضيته العادلة.

واسرائيل خلال هذه الحرب، وخلال انشغال الرأي العام العالمي باحداثها ومعاركها، قامت بتشديد ارهابها ضد الفلسطينيين، كما قامت باستقبال عشرات الألوف من المهاجرين السوفييت إلى الأراضي الفلسطينية وبزيادة تسلحها استعداداً للمعارك المقبلة، ومن أجل اقامة اسرائيل الكبرى في الأراضي العربية المحتلة والبلدان المجاورة.

والشيء نفسه يمكن قوله بالنسبة للجولان وجنوب لبنان، لقد نسي الناس خلال

حرب الخليج ما يجري في هاتين المنطقتين المحتلنين من قبل اسرائيل وما يعانيه سكانهما من ارهاب وجرائم الصهاينة، والآن وبعد انتهاء هذه الحرب ينبغي تسليط الاضواء على هاتبن المنطقتين، والعمل والنضال من أجل تحريرهما واعادتهما إلى سورية وإلى لبنان.

ان انتهاء حرب الخليج يضع أمامنا مهام كبيرة، لابد للامة العربية من مواجهتها وهام جداً ان لا نصاب باليأس والاحباط وان نرى ان الهزيمة في العراق لم تكن تماماً هزيمة للامة العربية وانما هي هزيمة للطريق الخطأ، هزيمة للمعركة الخطأ هزيمة للقيادة الخطأ - هزيمة لحكم الفرد هزيمة للارهاب، واذا كان هناك من اخطاء ارتكبتها الأمة العربية فهذه الاخطاء هي انقساماتها، تفككها، تخلفها، اعتمادها في الدفاع عن نفسها على الاجانب وعدم اعتمادها على نفسها، وعدم تنظيم صفوفها وعدم توحد هذه الصفوف لمواجهة اعدائها الكثر. لقد بذلت جهود منذ اجتياح العراق للكويت لايجاد حل عربي للقضية، وعدم تدويلها، قامت بذلك سورية، ولكن العراق ودولاً عربية أخرى رفضت ذلك، وكان ما كان.

فهل نستفيد من دروس معركة الخليج، وهل نعمل لتوحيد صفوفنا وتعزيز التضامن العربي، ونعتمد في تحقيق امننا على قوى امتنا وقوى اصدقائنا.

عن «دراسات اشتراكية» دمشق آذار ١٩٩١

البديل الاسلامي تدخل عامها الخامس

بهذا العدد، تدخل جريدة «البديل الاسلامي» عامها الخامس، بعد ان صدر ٥٦ عدداً خلال السنوات الأربع الماضية.

ويحق للقارىء اليوم ان يتساءل: ماذا مثلت هذه الجريدة، وماذا حققت، منذ ان صدر عدداها التجريبيان في ٨٦/١/١، و٨٦/٣/١٥، ثم لتواصل مسيرتها ابتداء من عددها الأول في ١٩٨٧/٥/١؟

في العـدد التجريبي الاول من «البديل»، حددت الجريدة نهجها: «النقدي» في ساحات المعارضة العراقية: وقالت انها تطمح إلى تحقيق الأمور التالية:

١ ـ اشـاعـة التصـورات السياسية الناجحة التي تقود إلى «الرشد السياسي» على مستوى النظرية وعلى مستوى الممارسة.

٢ ـ اشاعة الوعي الثوري الحقيقي الذي يخلق الرجال الثوريين الذين يحملون، فعلاً وصدقاً، لا قولاً وادعاء، هم القضية العراقية ويعتبرونها همهم الأول والأخير.

٣ـ اشاعة الالتزام الاخلاقي الصادق في الممارسة السياسية، وخاصة على صعيد العلاقات بين فصائل المعارضة العراقية، على اختلاف انتماءاتها الايديولوجية واصولها القومية.

٤ ـ اشاعة اجواء الحوار العلمي واحترام الرأي الآخر والحرية الفكرية والانفتاح السياسي.

ومن أجل ان تؤدي البديل دورها الايجابي على بصيرة ووعي حدث ثوابتها في العدد التجريبي الثاني، والتي كان من بينها:

١ ـ تبني «الخيار الاسلامي» عقيدة ونظاماً ونهجاً.

٢ ـ جعـل شعـار اسقـاط النظام الصدامي هو المهمة رقم واحد بالنسبة للشعب العراقي، واعتباره هدفاً لا يقبل المساومة، أو المهادنة، أو التأجيل، أو الحلول الوسط.

٣ ـ تبني نهـج المـراجعة النقدية والموضوعية لحركة الساحة الاسلامية العراقية، باعتباره شرطاً ضرورياً من شروط تسديد مسيرتها وتطويرها ومعالجة نقاط ضعفها ونقصها.

٤ ـ الايمان بالحرية السياسية، وبحق كل انسان في العمل السياسي الحر، واعتبار ذلك من ضمانات التطور الاجتماعي.

٥ ـ الايمان بالخصوصية العراقية وضرورة مراعاتها في العمل السياسي والجماهيري.

٦ ـ تبني قاعدة المبدئية الواقعية في العمل السياسي والتي تستبطن مفهومي المرونة في العمل، والانفتاح في العلاقات.

وقد ظلت البديل الاسلامي وفية لهذه الاهداف والمنطلقات طيلة السنوات الاربع الماضية. وقد استطاعت بعون الله ووعي الجماهير ان تساهم في بلورة تيار ذي وعي متقدم ومتميز في الساحة العراقية عامة، والاسلامية خاصة، سيكون، ان شاء الله، الركيزة المتينة لبناء حياة سياسية سليمة في العراق بعد سقوط صدام.

ان السـاحـة الاسلامية العراقية تشهد اليوم تحولاً نوعياً في رؤيتها للامور ووعيها للقضايا واسلوب تعاطيها مع الاحداث. وكل هذا يهيء الاجواء للتفكير بمشروع سياسي

لعراق ما بعد صدام يكون بمستوى الوعي الجديد. وهذا ما تعتزم البديل الاسلامي اعتباراً من هذا العدد، حيث تبدأ بطرح تصوراتها عن المشروع السياسي المقترح.

ان «البديل الاسلامي» اذ تبادر إلى هذا، لتأمل ان تشهد سنتها الخامسة من عمرها المـديد حواراً عميقـاً وعلمياً حول مسـألـة «المشروع السياسي» وقضاياه الأساسية والتفصيلية. ولسوف تفتح الجريدة صفحاتها لكل الآراء الموضوعية والمساهمات الجادة التي سوف تساهم بروح ايجابية بناءة في صياغة المشروع السياسي الأمثل والقادر على تحقيق السلام والبناء والحرية والتقدم لمجتمعنا في العراق.

(البديل الاسلامي) ٩ أيار

من أجل مساعدة المشردين.. من أجل حقوق الانسان

السيد خافيير بيريز ديكويلار/ الأمين العام للأمم المتحدة/ نيويورك
تحية واحتراماً:

يشاركنا المجتمع الدولي حالة القلق والتوتر ازاء الظروف القاسية التي يعانيها مئات الالـوف من الـلاجئين الاكراد العراقيين، وما يتهدد حياتهم بسبب بطش وملاحقة قوات الحكومة العراقية، بالاضافة إلى الظروف الجوية القاسية التي تواجههم أثناء هروبهم إلى الحدود الدولية لكل من تركيا وايران.

لقـد ناشـدنـاكم في مذكرتنا المرسلة اليكم في السادس من نيسان بادانة وفضح الانتهاكات الفظة لحقوق الانسان التي تمارسها قوات النظام الحاكم في العراق، واتخاذ الاجـراءات الكفيلة لوقفهـا، وتقديم المساعدات العاجلة لمئات الالوف من المواطنين العراقيين من أطفال ونساء وشيوخ الذين اصبحوا بلا مأوى يتهددهم الموت نتيجة حرب الابادة الشاملة، وتأمين حماية دولية لهم.

تتوجه لجنة الدفاع عن حقوق الانسان في العراق اليكم ثانية وتناشدكم ببذل مساعيكم وجهودكم الانسانية لانقاذ حياة أكثر من أربعين الف مواطن عراقي، الذين هربوا من وسط العراق وجنوبه إلى منطقة صفوان التي تحتلها القوات الامريكية التي بدأت بالانسحاب منذ أيام، في الوقت الذي تقوم قوات النظام العراقي بأبشع حملات ابادة جماعية ضد شعبنا في العراق وتدمير قواه ومدنه.

السيد ديكويلار:

اننا نرى أن على الأمم المتحدة والمنظمات واللجان الانسانية الحكومية وغير الحكومية المعنية بالدفاع عن حقوق الانسان، ان تولي المزيد من الاهتمام بقضايا حقوق الانسان العراقي، الذي يعاني المزيد من القهر والاضطهاد والتعسف والقتل الجماعي ومن العمليات الانتقامية التي تقوم بها القوات الموالية لرئيس النظام العراقي صدام حسين بسبب امتداد الانتفاضة الشعبية من شمال العراق حتى جنوبه. وتعتبر استمرارها دليلاً على حجم المعارضة لنظام الحكم في العراق واستفتاءاً حقيقياً على رفض شعب العراق لهذا النظام والحاكم المستبد الجائر الذي ينتهك حقوقه وحرياته الأساسية.

ان دول العالم أجمع باتت على علم ومعرفة بطبيعة النظام العراقي وممارساته القمعية بحق شعب العراق والشعوب الأخرى وانتهاكاته المستمرة للمباديء الاخلاقية والقانونية واستخفافه بارادة المجتمع الدولي. وقد أصبح المجتمع الدولي مطالباً اليوم العمل على الزام النظام العراقي ورئيسه صدام حسين احترام حقوق الانسان وممارسة الضغط عليه لايقاف المجازر الدموية وحملات القتل الجماعي التي يتعرض لها شعبنا في العراق.

سيادة الأمين العام:

اننا في الوقت الذي نتطلع إلى جهود الأمم المتحدة ودول العالم والمنظمات الانسانية وجميع دعاة ومحبي حقوق الانسان في العالم، نثمن الموقف الانساني في تقديم المساعدات العاجلة لانقاذ أرواح ما يقارب مليوني لاجيء عراقي الذين ما زالوا يواجهون الصعاب والظروف الجوية القاسية في مخيمات تركيا وايران والذين ما زالوا في الاراضي العراقية يتعرضون لملاحقة قوات النظام العراقي، في الوقت ذاته نناشدكم بالتدخل الفوري لحماية أرواح ما يزيد على خمسة واربعين الف مواطن عراقي الذين لجؤا إلى منطقة صفوان في جنوب العراق، المنطقة التي تحتلها القوات الاميركية والتي بدأت بالانسحاب منها، بأن تتكفل قوات الأمم المتحدة حمايتهم والحفاظ على ارواحهم وتأمين

مستلزمات العيش والاقامة الآمنة لهم .

مع تقديرنا لجهودكم ومواقفكم الانسانية .

رئيس اللجنة

الدكتور أحمد الموسوي

٢٠/٤/١٩٩١

نسخة إلى :

- رئيس مجلس الأمن الدولي / نيويورك .
- الأمين العام المساعد لجامعة الدول العربية / القاهرة .
- سكرتير اللجنة الدولية للصليب الأحمر / جنيف .
- رئيس مركز حقوق الانسان ، مكتب الأمم المتحدة / جنيف .
- المفوضية العليا لشؤون اللاجئين / لندن .
- منظمة العفو الدولية / لندن .
- المنظمة العربية لحقوق الانسان / القاهرة .
- سفراء الدول الدائمة العضوية في مجلس الأمن بدمشق .
- ممثل الأمم المتحدة بدمشق .

وقفة من أجل الموتى

لانس مورو

ترجمة : محمد صالح ياسين

طلب البنتاغون شحن (١٦٠٩٩) تابوتاً إلى الخليج لاعادة رفاة القتلى من الاميركيين إلى بلادهم . واتضح في النهاية ان (١٥٧٧٣) من تلك التوابت لم تكن ضرورية .

أما الجيش العراقي فلا أحد يعرف كم كانت حاجته إلى التوابيت: مئة الف؟ أكثر؟ لا أحد يعرف أو لن يعرف ابداً. فلم يحسب أحد جثث العراقيين قط، اذ دفن الكثير منهم في الرمال وبلا مراسيم. وصار بعضهم طعاماً للطيور الجارحة.

وقوع القليل جداً من الضحايا وسط جنود التحالف بدا للاميركيين، بشكل ما، على انه عودة إلى ماضيهم المشرق، أو محاكاة لافلام سلفر تاليون. أما الحكاية التي لم ترو فهي استعادة الاميركيين لمناعتهم، أو شمولهم بهبة آلهية، أو هدية منحت لهم لتنفيذ الأمور بشكل صحيح. فقد كان النصر بهذا الشكل المقنع، كأي عمل قاموا به سويةً منذ نزولهم على سطح القمر.

إن قتل مئة الف انسان لا يمكن ان يكون بلا اثر. فسوف تترك حياة اولئك الناس، التي اخمدت فجأة وبهذه القسوة، ثغرة شوهاء في مكانٍ ما من الكون. والمرء بحاجة لقدرات خاصة من نوع فوق فيزياوي ليشهد كل هذا الموت، وليشهد شهيق كل تلك الارواح التي فاضت. ولكن الكثير من اولئك الناس ماتوا بلا امجاد، كما يحصل في حادث مرور، بل راحوا مجللين بالعار، وجوههم مطمورة في الرمال وبالغنائم المكدسة حولهم. فالفاتحون يموتون بذلٍ على الاغلب، فلم يولهم المنتصرون اهتماماً يذكر.

وبعد، انه لأمرٌ خطير قتل مئة الف انسان. فلا يمكن ان يكون كاطلاق النار على كلب مسعور. والاسوء من ذلك هو شعور الاميركيين ان الحرب كانت ابادة بهائم مصابة بالسعار. لم يكن اولئك المئة الف رجل مصابين جميعاً بداء العظمة أو جلادين أو قتلة. ولم يرتكبوا كلهم شناعات في الكويت. لقد كانوا اناساً عاديين: فلاحيين، سواق شاحنات، طلبة... الخ. كانت لهم عوائل تحبهم وكانت عندهم كراماتهم الشخصية في الحياة والعمل. ولم يكونوا مهتمين بالسياسة إلا قليلاً، أقل من باقي الناس في أرجاء العالم. ولو توخينا الدقة فانهم لم يكونوا صدام حسين. وهذا كله يعني انه طالما كان صدام حسين الهدف الحقيقي الأول للتحالف في كل ما جرى فان المئة الف جثة كانت ان جاز القول، خسائر زائدة. فالقذائف الذكية الشهيرة لم تعثر على الرجل الذي كانت تبحث عنه.

ان السر في سفك الكثير من الدماء والاذى يكمن في تجريد الضحية من آدميته، في نزع انسانية الضحية، في جعله نوعاً غريباً ومختلفاً عنا. فعندما فعلنا ذلك، نكون قد هيأنا انفسنا لقتله، فقتل افعى أو صرصر أو حشرة مؤذية، أو آفة، أو يهودي أو عقرب، أو زنجي، أو أم اربعة واربعين، أو فلسطيني، أو ضبع أو قتل عراقي أو كلب وحشي أو اسرائيلي... قتل مثل هؤلاء يصبح أمراً لا غبار عليه.

لو كان صدام حسين افعى سامة في الصحراء، وكان قد حشد حوله مليوناً من

الافاعي السامة، لكان من المستحسن اسقاط القنابل لتقتل مئة الـف افعى سامة والتخلص من خطر الافاعي.

لكن بطبيعة الحال، لم يكن المئة الف عراقي افاعي سامة. وقتل مئة الف انسان دون الشعور بالألم ونحن نفعل ذلك قد يكون خطراً بالنسبة لاولئك الذين قاموا بالقتل. انه من اعراض مرض في انسانيتهم، وخلل يماثل فتح الباب أمام المزيد من الموت، الموت الذي لم يأخذه أحدٌ بالحسبان. فالموتى الذين لم ينعموا بالسكينة وسائل عدة لمواصلة التحويم ـ خاصة في منطقة الشرق الاوسط الذي مازال يجمع احزان الموت منذ آلاف السنين.

وفي كل الاحوال، ليس هناك، ولا ينبغي ان يكون هناك، قتل بدون ذنب، خصوصاً عندما يكون قتلاً بالجملة بلا ذنب. فحين يمارس الناس القتل بلا ندامة، فاننا، ندعوهم مجانين، ندعوهم مهووسين، مثل اولئك الذين يقتلون الناس واحداً بعد الآخر.

يعتبر غالبية الاميركيين، بلا وعي تقريباً، النصر على انه نوع من التطهر الاخلاقي، أي يعدونه الأمر الصحيح. غير ان الحقيقة والرعب باقيان. فالقتل فعل دنس على الدوام. ان عليه لطخة لا تستطيع التكنولوجيا ان تمحوها أو تتجاوزها. ولا يمتلك الاميركيون القدرة الكلية، وليسوا، كلهم اطهار، وينبغي ان يتذكروا انهم لا يمتطون العالم. فالزهو سلوك بالغ الحمق. انه أشبه بالشهقة التي نسمعها قبل السقوط من الأعالي في افلام الكارتون.

هل كان من الضروري ان يقتل اولئك العراقيون؟

في الظروف القائمة، نعم

وبعد ان قتلوهم، كيف يشعر المنتصرون؟

يشعرون بالعظمة.

في شريعة تكساس، يبررون قتل الانسان بالقول: «كان من الضروري قتله». فهل من الباطل الشعور بالعظمة لقتل مئة ألف عراقي تطلب الأمر قتلهم؟

لا ضير من الشعور براحة البال. فليس مطلوباً، ولا من الطبيعة الانسانية ان تحزن على الجنود الذين احتشدوا لقتلك. فقتل العراقيين يعني ان الاميركيين وشركاءهم قد تخلصوا من مواجهتهم في أرض المعركة ربما لتعرض للموت. وكما حصل، فقد استسلم العراقيون في الميدان من دون قتال تقريباً.

وشأن بعض المظاهر العسكرية لسنوات حكم ريغان، أدى النصر في الخليج إلى شعور الاميركيين بالرضى عن انفسهم. لقد كان أمراً رائعاً وضرورياً، ولكنه غير واقعي. فقد تجزأت تلك المغامرة العنيفة، كما في أغلب الافلام، إلى ثلاثة فصول وثلاثة منعطفات حاسمة: ١ ـ الاجتياح العراقي ثم تحشيد قوى الائتلاف. ٢ ـ اندلاع الحرب

الجوية. ٣ ـ الحرب البرية وحل عقدتها. لقد جاء النصر بسهولة شديدة القسوة بحيث ان طرف المنتصرين لم يحس بمشاعر سامية (النبل، التضحية، الجلد، وهلم جرا) أثناء القتال. والمنتصرون يحتفلون قبل كل شيء بالاطمئنان لانهم نجوا مما كان يحتمل ان يحصل لهم. وستبدو لحظة المجد، لدى الاحتفال في الرابع من تموز، على انها مرت منذ وقت طويل لقد كانت احتمالات الدخول في الحرب مرعبة. رابع جيش في العالم، يقوده سفاح كنا وقتها نحسبه ماكراً، بل متلبساً بقوى شيطانية. كان صدام قد تزود بالاسلحة الكيمياوية ويعمل لامتلاك الاسلحة النووية. كل تلك الاحتمالات السوداء اجازت، عملياً، لقوى الائتلاف ان تقتل. فقامت بالقتل على أحسن ما يرام. وآمل ان لا يشعرنا ذلك بالكثير من المسرة.

عن مجلة (تايم) الاميركية، عدد ١ نيسان

مذكرة الوفاق الوطني العراقي إلى السيد سكرتير عام الأمم المتحدة

ان النتائج المباشرة لفشل السياسة التدميرية التي انتهجها نظام صدام حسين الارهابي وما ترتب عنها من كوارث انسانية وبيئية على الشعبين العراقي والكويتي قد ولدت موجة من الاحتجاجات الواسعة ضده من قبل الفصائل الانسانية الخيرية في العالم وفي مقدمتها قوى المعارضة العراقية التي لم تر بدأ في هذه المرحلة من الاعلان عن اسمائها والافصاح عن حقيقة مواقفها الرافضة لهذا النظام والتنديد بسلوكه اللاإنساني، وخاصة فيما يتعلق بالقوى العراقية المعارضة المتواجدة خارج العراق بسبب ظروفها السياسية الاستثنائية. وغير خاف على سيادتكم بأن الغالبية العظمى من عوائل هؤلاء واقاربهم ما زالوا يعيشون داخل العراق. لقد أكدت لنا مصادر موثوقة بأن هؤلاء العراقيين الابرياء من عوائل واقرباء المعارضين يتعرضون هذه الايام لحملة من الارهاب والترويع والاعتقال من قبل اجهزة صدام حسين القمعية لا لذنب اقترفوه سوى انهم ذو علاقة عائلية أو قرابة أو نسب بأحد أفراد المعارضة المعلنة خارج العراق.

ان هذه الاعمال تتنافى مع كل الشرائع السماوية والانسانية وتتناقض تناقضاً صريحاً مع مباديء حقوق الانسان المعلنة كما تتنافى مع أهم القيم التي تنادي بها جمعيتكم الموقرة وتدعو لها وتعمل على حمايتها.

اننا نهيب بكم وبكافة المنظمات الانسانية ان تتصدى لهذا العمل وتحتج ضده بكل

الوسائل الممكنة وتعمل على ايقافه حماية لهؤلاء الابرياء العزل أمام طاغية مجرم لا يعرف الحدود في ممارساته اللاانسانية بحق مواطنيه.

شكري صالح زكي
عن الوفاق الوطني العراقي

٢٩/ ٣/ ١٩٩١

صورة منه إلى:
رئيس الجمعية العامة للأمم المتحدة
مكتب الأمم المتحدة في جنيف.
المنظمة العربية للدفاع عن حقوق الانسان.

تجمع المستقلين الديمقراطيين

أصدرت «لجنة الديمقراطيين المناهضين للحرب» بياناً في لندن اعلنت فيه التحول إلى «تجمع المستقلين الديمقراطيين».

وهذا التجمع لا يطرح نفسه حزباً أو واجهة لحزب انما إطار تتظافر عبره جهود ومبادرات المستقلين الديمقراطيين العراقيين افراداً وجماعات لدعم شعبنا. انه لا يتبنى ايديولوجية (ويسعى) إلى الحد الأدنى التالي من الثوابت المتوازية في أهميتها:

* ضمان الحريات الاساسية وحقوق الانسان.
* حماية الاستقلال الوطني العراقي ووحدة كيانه ورفض كل أشكال التدخل الاجنبي.
* وحدة الشعب العراقي بقوميتيه وكافة اقلياته وحق الشعب الكردي بتقرير مصيره. وتعميق التعاون بين أمم الشرق سيما العرب والفرس والترك والكرد.
* ضرورة النظام الديمقراطي القائم على القانون والانتخابات الحرة والتعددية وضمان حق الأقلية ورفض كافة أنواع الدكتاتورية والوصاية الحزبية والفئوية.
* ضمان التوزيع العادل للثروة الوطنية وتعبئة موارد البلاد لضمان الحاجات الاساسية وتنمية الطاقات الانتاجية وضمان تكافؤ الفرص للجميع.
* حماية حقوق المرأة على أساس مساواتها الكاملة مع الرجل.
* الجمع بين الانفتاح على الحضارة العالمية وبين هويتنا الحضارية.

عن (شناشيل) العدد الاول

الاشتراك السنوي:

٢٥ دولار أو ما يعادلها
يدفع مقدماً بشيك أو حوالة مصرفية
إلى رقم الحساب:
282243 - 54
Banque Libano - Francaise
Bar Elias - Libanon

المراسلات:

الثقافة الجديدة
سوريا ـ دمشق
ص. ب ٧١٢٢



السعر دينار ونصف